# شرعية الأحزاب السياسية في القرآن والسنة

بقلم

توحيد الزهيري

دار العلم
القاهرة

https://www.facebook.com/TawhiedElZohery

# شرعية الأحزاب السياسية
# في القرآن والسنة

**جميع حقوق الطبع محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م**

**رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية**

**٢٠١٢ / ١١٩٧٩**

**الترقيم الدولي I. S. B. N.**

**977-555-35-1**

**E-mail: daralkalamca@gmail. com**

# شرعية الأحزاب السياسية

# في القرآن والسنة

بقلم

**توحيد الزهيرى**

بسم الله الرحمن الرحيم

# تأصيل وتمهيد

## (١) قريش من القبيلة الجاهلية إلى الدولة الإسلامية:

قال رسول الله (ﷺ):

"الناس تبع لقريش فى هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم"[١].

والشأن المشار إليه بـ "هذا" هو الإمارة أو الإمامة السياسية أو الخلافة، التى تعنى الحكم. والحديث واضح الدلالة على أحقية وجدارة قبيلة قريش فى أن تكون لها السيادة على سائر القبائل التى ستكون - بعد قليل – جماعة المواطنين المنتمين إلى الدولة العربية الإسلامية الناشئة، ومن ثم يحق لقريش أن يكون منها الحاكم أو الخليفة[٢] الذى يرأس الدولة الإسلامية الأولى التى كانت – حين نطق الرسول (ﷺ) بهذا الحديث - فى طور التكوين أو التأسيس. وقد علل الرسول (ﷺ) هذه الأحقية لقريش بسيادتها على سائر القبائل العربية فى الجاهلية قبل الإسلام بإعتبارها القبيلة التى أراد الله (ﷻ) فى محكم أقداره وحكيم تقديره لها أن تتولى رعاية البيت الحرام، الكعبة التى كانت الرمز الحى المشهود لوحدة العرب، الذى يذكرهم على الدوام بأنهم أمة

---

(١) نص الحديث رقم ٣٤٩٥ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" باب المناقب، عن أبى هريرة (رضى الله عنه). كما أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الإمارة. انظر كتاب "صحيح مسلم بشرح النووى، الجزء ١٢ صـ ١٩٩ – ٢٠٠. وروى بلفظ "في هذا الأمر" فى مراجع الحديث النبوى الأخرى مثل مسند ابن حنبل والطبراني، وغيرهما. انظر شرح الحديثين ٧١٣٩، ٧١٤٠ فى فتح البارى.

(٢) يدور لفظ الخلافة فى القرآن حول معنى الحكم والسيادة. انظر على سبيل المثال قول الله (سبحانه وتعالى) إلى النبى الملك داود (عليه السلام): (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)، ربط بين لفظ "خليفة" والأمر بالحكم بحرف الفاء، الذى يشير إلى السبب أو التتابع المنطقى "فاحكم". وقد عبر عن هذا الحديث النبوى بعدة صياغات (روايات) أخرى حسب تعبير الصحابى عن المعنى الذى فهمه فى كلام النبى (ﷺ). ومن تلك الروايات الكثيرة نص يقول: "قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم". الحديث رقم ٤٣٩١ فى كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته. أخرجه الإمام أحمد بن حنبل عن أبى بكر الصديق، وسعد بن أبى وقاص، و سعد بن عبادة. ونص يقول: "قريش ولاة الناس فى الخير والشر إلى يوم القيامة" وهو الحديث رقم ٤٣٩٠ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته – عن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) أخرجه أحمد بن حنبل والترمذى.

واحدة، يأتى أفرادها من كل فج عميق فى كافة أنحاء الجزيرة العربية إلى مكة فى رحلة الحج فى كل عام ليطوفوا حول البيت العتيق، ويمارسوا طقوسهم المقدسة، حيث تتولى قريش تأمينهم وإطعامهم وسقايتهم وحراسة بيتهم المقدس والعناية بهم أثناء أداء الشعائر التى تذكرهم بأصلهم الكريم إسماعيل بانى الكعبة مع أبيه إبراهيم خليل الرحمن (عليهما الصلاة والسلام).

من الكعبة، أقدس مقدسات العرب إستمدت قريش مكانتها فوق سائر القبائل العربية. ومن ثم فعندما يصعد العرب من طور القبيلة إلى طور "الأمة" – ذات الكيان السياسى الذى نسميه "الدولة" فمن المنطقى أن تحتفظ قريش بمكانة القائد لسائر القبائل العربية التى ستكون شعب هذه الدولة المنشودة، وأن يكون منها الإمام أو الخليفة.

لقد كانت المهمة التاريخية أو الرسالة الحضارية للإسلام بالنسبة للعرب (سكان الجزيرة العربية) هى إنجاز التحول التاريخي السياسي فى القبيلة إلى الدولة. والقبيلة جماعة بشرية تنتمى إلى والد واحد، فهى جماعة تكونت بالتزاوج والتناسل (التكاثر) ومن ثم فإنها تعبر عن رابطة الدم أو الجسد التى تجمع أفرادا يرجعون في أصلهم إلى والد واحد.

والقبائل لذلك تسمى باسم الرجل الذى ولدهم، فقريش، وكنانة، وتميم، وأوس، خزرج..... إلخ أسماء رجال أنجبوا تلك الجماعات التى تسمى قبائل نسبة إلى القابلة، وهى المرأة التى تتلقى المولود على يديها عند خروجه من الرحم.

أما الدولة فهى الاسم الذى يعبر عن وجود جماعة بشرية عاشت وارتبطت ببقعة متميزة من الأرض، حيناً من الدهر كان كافياً لخلق رباط مادى ووجدانى بين الجماعة البشرية والأرض حتى صارت بقعة الأرض "وطناً" وصار البشر شعباً أو مواطنين(٣).

(٣) لفظ "الوطن" يدور حول معنى الإستقرار فى المكان، ويمكن للقارئ أن يتعرف على معنى الدولة فى كتاب "الدولة نظرياً وعملياً" – تأليف هارولد. ج. لاسكى – الجزء الأول – سلسلة اخترنا لك رقم ٦١ – دار المعارف – القاهرة.

فعندما نتحدث عن "دولة" فإننا نشير إلى جماعة بشرية كبيرة ربما تتكون من عـــدة قبائل، قد ارتبطت حياتها ببقعة محددة من الأرض لمدة زمنية كبيرة، وأثمـــرت شـــعوراً بالانتماء بين أفراد هذه الجماعة يربطهم ويوحدهم معاً. وبينهم جميعاً وبين "الـــوطن" الذى عاشوا على أرضه، وصنعوا فيه تاريخهم (تراثهم). وفى كلمة واحدة لقد حصلوا على "هويتهم" التى تميزهم عن غيرهم من الشعوب الأخرى وأنتجوا ثقافتهم التى تصبغ سلوك الأفراد المنتمين إليهم من خلال ارتباطهم "التاريخى" بالأرض التى صارت وطنـــاً يخصهم وحدهم، ويمتلكونه معاً ملكية جماعية تتجاوز سلطة الأفراد، فلا يباح لفـــرد منهم مثلاً أن يتصرف أو يبيع جزءا من الوطن. مفهوم – إذن– الدولة يتضمن ثلاثـــة عناصر: الشعب والأرض والسيادة التى يمارسها الشعب على أرضه (وطنه) عبر النظام السياسي أو السلطة السياسية.

**(٢) القبائل: أحزاب الدولة الإسلامية الأولى**

كان الإنسان الفرد فى المجتمع العربى قبل الإسلام لا يجد لنفسه هوية ولا انتماء إلا إلى القبيلة التى ولد فيها، أو الأب الوالد الذى انحدر مـــن صـــلبه. وكانـــت الحيـــاة الاجتماعية فى العصر الجاهلى قبل الإسلام قائمة على الصراع المشتعل بـــين القبائـــل، بسبب التنافس المحموم على مناطق النفوذ التى توفر مواضع الكلأ، وعيون الماء وطـــرق التجارة الضرورية لاستمرار الحياة، وعلى علو المكانة أو الشرف، فكان السؤال: "أى القبائل أكرم نسباً أو أصلاً؟" هو محور الحياة الثقافية فى المجتمع العربى الجاهلى. ولذلك امتلأ الشعر العربى – وهو الديوان الذى اختار العرب قبل الإسلام أن يســـجلوا فيـــه حياتهم– بقصائد الفخر التى يتباهى فيها الشاعر بنفسه و قومه، وقصائد المدح والـــذم التي يمدح فيها الشاعر الملأ من قبيلته ويذم القبائل الأخرى.

ولا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن غارات السلب والنهب والمعارك الدموية البشـــعة، واختطاف النساء والأطفال والرجال ليكونوا سبايا وأرقاء كانت الملامـــح الأساســـية

لتاريخ العرب فى الجاهلية[٤] بل كانت أحداثاً يومية تتكرر دون انقطاع.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة التاريخية الدامغة فى سياق امتنانه على قريش بقوله: (**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ**)[٥].

وقوله: (**وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)[٦].

قوله (ﷻ): (**وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**) تصوير بالغ الدلالة على حالة انعدام الأمن و غياب الاستقرار وشيوع الفوضى والظلم فى شتى أنحاء الجزيرة العربية، التى تقع حول "الحرم الآمن" لأن الكعبة – التى تعيش قبيلة قريش حولها – هى نقطة المركز فى دائرة الجزيرة العربية، بل دائرة الكرة الأرضية كلها.

وفى الآيتين بيان واضح لما تمتعت به قريش من الأمن والاستقرار بفضل جوارها للكعبة وقيامها على حراستها وتنظيم الحج إليها. وقد جعلها الله فى شريعته منذ إبراهيم (عليه السلام) (**حَرَماً آمِناً**): مكاناً معظماً مقدساً يحرم فيه انتهاك حرمات (حقوق) الناس.

وبذلك الحكم الإلهى الشرعى أصبح الناس لا يخافون على أنفسهم ولا على ممتلكاتهم (أموالهم). بل تعهد الله (ﷻ) بتوفير الرزق لأهله رغم أنه صار "آمناً" لا يخاف الناس فيه علي أنفسهم (**بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ**)[٧] فمن على قريش وأهل الحرم بضمان الرزق لهم رغم جدب أرضهم بجلب الثمرات إليهم من خارج مكة (**يُجْبَى**

---

(٤) انظر على سبيل المثال كتاب "الحضارة العربية القديمة"، وكتاب "تاريخ العرب القديم" للأستاذ الدكتور/ محمد بيومى مهران – نشر دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية.

(٥) سورة العنكبوت – الآية ٦٧.

(٦) سورة القصص الآية ٥٧.

(٧) انظر الآية ٣٧ من سورة إبراهيم: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ).

**إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا**) وذلك عبر تأمين التجارة فى رحلتى الصيف والشتاء إلى الشام واليمن (**لإِيلافِ قُرَيْشٍ** (١) **إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ** (٢) **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ** (٣) **الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** (٤))[٨].

لقد نزهت قريش نفسها عن أن تكون غارات النهب والسلب وسيلتها لاكتساب الرزق واتخذت من التجارة سبباً للحصول على المال اللازم للقيام بمقتضيات المعيشة.

وكان ذلك سبباً فى رفع مكانة قريش فوق سائر القبائل العربية مما أهلها لدور القيادة بما تكون وتراكم لها من احترام وهيبة فى قلوب سائر العرب.

وكانت الحروب الطاحنة وغارات النهب والسلب التى لم تنقطع قد زرعت عداوات شديدة بين مختلف القبائل فى شتى أنحاء الجزيرة العربية. وجاء الإسلام، ودعا الإنسان العربى إلى الخروج من ضيق انتمائه إلى قبيلته وتعصبه الأعمى لها ليرى نفسه فرداً من أمة كبيرة تحمل رسالة إلى كل البشر وأخاً لكل المؤمنين برسالة القرآن وشريعة الإسلام، بل أخاً لكل البشر الذين ولدوا من أب واحد وأم واحدة، وليجد نفسه مواطناً فى "دولة" لا تخضع لزعيم قبيلته التى ينتسب إليها بصلة الدم، بل يحكمها رجل آخر من قبيلة أخرى، وبقوانين مستمدة من سلطة أعلى تتجاوز أوامر شيخ القبيلة – التى اعتاد العرب لزمن طويل الخضوع لها – وتخالف الأعراف الموروثة والتقاليد القبلية القديمة.

وسارعت القبائل من شتى أنحاء الجزيرة العربية بالدخول فى دين الله أفواجاً، بعد ما استطاع رسول الله (ﷺ) أن يفتح مكة، وأن يخضع قريش – قائدة العرب – لسلطاته، فكانت قريش إماماً لكل القبائل العربية في الدخول في الإسلام والتى أصبحت تكون الشعب فى دولة الإسلام التى يحكمها رسول الله (ﷺ) بقوانين (أحكام) الشريعة الإسلامية.

---

(٨) سورة قريش.

لقد دخل الكثير من العرب فى الإسلام وهم يحملون فى قلوبهم (بواطنهم) الكثير من تراث الجاهلية. انظر إلى قوله (ﷻ): **(قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)**[٩] الذى ينفى عنهم الإيمان **(قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا)**، ويبين أن الإيمان لم ينفذ إلى قلوبهم بعد **(وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)**.

ومعنى قوله ﷻ: **(قُولُوا أَسْلَمْنَا)** أنهم أعلنوا خضوعهم لأحكام الإسلام، وقبولهم الدخول تحت حكم الرسول (ﷺ) واعتبارهم مواطنين فى الدولة الإسلامية. ولكن دون أن يكونوا قد آمنوا حقاً بالقرآن، أو ارتضوا صدقاً بأحكام الشريعة الإسلامية باعتبارها وحياً منزلاً من الله.

وانظر إلى قول رسول الله (ﷺ) مخاطباً أباذر(رضي الله عنه): "يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، إنهم إخوانكم، فضلكم الله عليهم، فمن لم يلائمكم فبيعوه، ولا تعذبوا خلق الله"[١٠].

وذلك عندما آذى أبو ذر (رضي الله عنه) أحد العبيد وعيره بأمه قائلاً له: "يا ابن السوداء".

ومن التراث القديم الذى انتقل إلى دولة الإسلام الأولى الصراع القبلى، الذى اتخذ فى الكيان السياسى الجديد صور التنافس على السلطة أو التزاحم على الإمارة.

وقد طفا ذلك الصراع على السطح عند وفاة الرسول (ﷺ) فى حركة الردة عن الإسلام التى لم تكن فى حقيقتها أكثر من صراع على السلطة أو رفضاً لاستئثار قريش بمنصب الخلافة. ثم فى الفتنة الكبرى التى أعقبت مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) والتى يمكن رؤيتها – فى أحد مستوياتها – تجلياً للصراع القديم بين بنى هاشم وبنى أمية على رئاسة قريش. ذلك الصراع الذى بدأ بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف[١١] ثم بين عبد المطلب بن هاشم وحرب بن

---

(٩) من الآية ١٤ فى سورة الحجرات.

(١٠) الحديث رقم ٧٨٢٢ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) للأستاذ/ محمد ناصر الدين الألبانى.

(١١) انظر الجزء الأول من "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" صـ ٣١٩-٣٢٠.

أميه[١٢] ثم بين رسول الله (ﷺ) وأبى سفيان بن حرب الذى كان يحمل لواء الحرب ضد محمد ودعوة الإسلام. ثم أخيراً بين على بن أبى طالب (الهاشمى) ومعاوية بن أبى سفيان (الأموى).

ذلك الصراع الذى لم يزل مؤثراً وفاعلاً فى حركة التاريخ الإسلامى حتى يوم الناس هذا.

والخلاصة أن القبائل العربية التى دخلت فى الإسلام وكونت شعب الدولة الإسلامية الأولى صارت أحزاباً سياسية تطلب السلطة، وتريد الوصول إلى سدة الحكم أو على الأقل المشاركة فيها. وهذا هو التعريف الدقيق للحزب السياسى، فهو جماعة من الناس تربطها وتوحدها أفكار مشتركة، وتجمعها مصالح تبعثها على العمل من أجل الوصول إلى السلطة فى المجتمع أو المشاركة فيها.

**(٣) المغزى السياسى للحديث النبوى القائل بإمامة قريش:**

تتجلى هذه الحقيقة التى أشرنا إليها آنفاً إذا علمنا السياق التاريخي الذى جاء فيه الحديث النبوى الشريف، أعنى الحدث الذى قال فيه الرسول (ﷺ) هذا الحديث الذى يعد – فى الحقيقة – مجرد جزء (طرف) من حديث نبوى أطول، أو بالأحرى خطبة نبوية وجهها الرسول (ﷺ) إلى المسلمين يوم فتح مكة.

وللأسف الشديد فإن أحاديث النبى (ﷺ) قد دونت فى مراجع السنة النبوية تبعاً لأبواب الفقه، منتزعة من سياقها التاريخى، أو سبب ورودها مما أدى إلى إخفاء الكثير من الحقائق، وغموض المعاني وكثرة الاختلافات، نتيجة بتر الحديث عن الحادث الذى قيل فيه، فضلاً عن تكرار الحديث النبوى الواحد أكثر من مرة لاحتواء نصه (متنه) على ألفاظ وقضايا – تصلح لوضعها تحت العديد من أبواب الفقه.

ذلك بالإضافة إلى تعدد روايات (صياغات) الحديث الواحد، وتقسيمه إلى عدة

---

(١٢) انظر المصدر السابق، صـ ٣١٠ – ٣١١.

أجزاء يوضع كل جزء (طرف) فى باب الفقه الذى يناسبه دون نظر إلى الحادث الذى قيل فيه هذا الحديث، لأن كتب (مراجع) الحديث النبوى الشريف دونت بمعزل عن كتب السيرة النبوية.

ولكن تلك قضية كبرى ندعو الله (ﷻ) أن يمكننا من علاجها فى كتاب كبير يجمع بين أحداث السيرة النبوية وأحاديث الرسول (ﷺ) وآيات القرآن الكريم كما نزلت فى وقائع حياة النبى (ﷺ) وليس كما رتبت فى المصحف الشريف.

ولنعد الآن إلى الحديث النبوى الذى صدرنا به هذه الدراسة والذى يقدم لنا مثلاً واضحاً على ما ذكرناه من حقائق.

فنقول عندما فتح رسول الله (ﷺ) مكة فى رمضان من العام الثامن للهجرة ظن الناس أنه سينتقم أشد الانتقام من قريش التى حاربه صناديدها، وأجبروه على تركها وطاردوه يريدون قتله، واضطهدوا المؤمنين وأكرهوهم على ترك ديارهم وأموالهم وعذبوا المستضعفين منهم.

فقال أبو قتادة الأنصارى فى حديث محتدم مع خالد بن الوليد: "هذا يوم يذل الله فيه قريشاً"(١٣).

وتضايق المسلمون من قريش من هذه الإهانة، وتذمروا وشكى بعضهم إلى رسول الله (ﷺ) فقالوا: "ألا تسمع ما يقول أبو قتادة، يا رسول الله؟".

فقال رسول الله (ﷺ): مهلاً يا أبا قتادة، "من يرد هوان قريش أهانه الله"(١٤).

"لا تسبن قريشاً فإنه لعلك ترى منهم رجالاً تزدرى عملك مع عملهم، وحلمك

---

(١٣) انظر كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" الجزء الأول صـ ٢٧٢ – وقد روى البيهقى هذا الحديث. وجاء فى رواية أخرى أخرجها الإمام أحمد و الطبرانى والبزار وصحح العراقى إسنادها (كمال قال الإمام محمد بن يوسف الصالحى فى المرجع المذكور) أن الذى قال ذلك الكلام كان قتادة بن النعمان (رضي الله عنه).

(١٤) هذه الجملة أو هذا الطرف (الجزء) من الحديث النبوى الشريف أخرجت كحديث مستقل وأورده الألبانى فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)" تحت رقم ٦٦١٣ عن سعد بن أبى وقاص (رضي الله عنه) وذكر أن الإمام أحمد بن حنبل والنسائى والحاكم قد أخرجوه. أما الإمام محمد بن يوسف الصالحى فذكر أن الترمذى قد رواه وحسنه – انظر "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" الجزء الأول صـ ٢٧١.

مع حلمهم، ورأيك مع رأيهم، و تغبطهم إذا رأيتهم"[١٥].

يعظ رسول الله (ﷺ) الرجل الأنصارى بالانتهاء عن سب قريش، وعدم التسرع فى الحكم عليهم باعتبارهم الكفار الذين حاربوا الإسلام، لأنهم سيؤمنون وسيظهر الإسلام – الذى سيصدقون ويخلصون فى اعتناقه – أفضل ما أودع الله (ﷻ) من صفات كامنة فى قلوبهم (بواطن نفوسهم) وحينئذ يتجلى من عملهم ورأيهم (عقلهم) وحلمهم ما يجعل الآخرين يزدرون (يستقلون) ما لديهم من عمل وعلم وحلم، وسيرى أبو قتادة – أو غيره من الأنصار – من رجال قريش ما يجعله يتمنى أن يكون مثلهم.

علينا أن ننتبه هنا إلى أن رسول الله (ﷺ) يقدم حيثيات الحكم بإمامة (قيادة) قريش، أى يجيب عن سؤال لما تكون الإمامة (القيادة أو الخلافة) فى قريش دون غيرها من القبائل؟ فهو يقول إنها أفضل القبائل علماً وخلقاً.

ونفهم من ذلك أن الإمام أو القائد المؤهل للحكم أو الخلافة ينبغى أن تتوفر فيه ثلاث صفات هى، كما نص الحديث الشريف:

١- حسن العمل، أى أنه مشهود له بالصلاح.

٢- حسن الرأى الذى يدل على رجاحة العقل، أى أنه يتصف بالعلم والحكمة (حسن التصرف فى الأمور).

٣- حسن الخلق وقد خص رسول الله (ﷺ) بالذكر فضيلة الحلم، الذى يعنى ضبط النفس حتى لا تسرع بإنفاذ ما تولد فيها من غضب على من أساء إليها. ولا شك فى أن الحلم هو أفضل الفضائل التى يحتاج إليها الإمام أو الحاكم فى مباشرته لمهمة الحكم، حتى لا يستعمل ما تحت يديه من قوة (سلطة) فى البطش بخصومه ومعارضيه.

وواصل رسول الله (ﷺ) حديثه (خطبته) فقال: "يأيها الناس"، "قدموا قريشاً ولا

---

(١٥) صياغة تجمع بعض ما ورد فى الروايتين المشار إليهما فى الحاشية رقم (١٤).

تقدموها فتهلكوا، ولا تتخلفوا عنها فتضلوا، وتعلموا من قريش ولا تعالموها، ولولا أن تبطر قريش لأخبرتها ما لخيارها عند الله رب العالمين"(١٦).

والحديث أمر صريح يجعل الحكم (الخلافة أو الإمارة) فى قريش، وهو ما يعنى وجوب أن يكون خليفة المسلمين أو أمير المؤمنين من قبيلة قريش. وفيه نهى مؤكد وتحذير شديد من منازعة قريش على قيادة (رئاسة) الدولة، فبين (ﷺ) أن الامتناع عن تسليم الأمر (الحكم) لقريش سيفضى إلى الهلاك – الذى يعنى تصدع بنيان الدولة وتفرق الأمة (الشعب) إلى طوائف متنازعة ومتناحرة – والامتناع عن الانقياد لقريش سيؤدى إلى الضلال والذى يعنى السير فى طرق خاطئة وترك الصراط المستقيم، أى التمذهب بأفكار توافق الأهواء وتخالف الحق(الصواب) الذى جاء به رسول الله (ﷺ).

قوله (ﷺ): "ولا تقدموها": ولا تتقدموا عليها أو تسبقوها.

"ولا تتخلفوا عنها": ولا تتركوا طاعة الخليفة (الأمير) منها .

"ولا تعالموها": ولا تظنوا أنكم أعلم منها بأمور الحكم، أى بشئون إدارة الدولة (= السلطة السياسية المعبرة عن سيادة الشعب).

والمقصود بيان أن قريشاً أعلم من كل القبائل العربية الأخرى بأمور السياسة لسابق خبرتها الناتجة عن طول بقائها فى مجتمع مستقر، وقيامها المستمر على تنظيم موسم الحج الذى يتطلب إعاشة أعداد كبيرة من الناس الذين يأتون إلى بيت الله أفواجاً فى كل عام، ولابد من توفير الماء والطعام والملابس والإيواء ووسائل الراحة لهم. وتلك مهمة الحاكم (الراعى) الأساسية إزاء شعبه (رعيته). وذلك ما كانت تقوم به قريش لكل العرب.

وبعد هذه المقدمة التى مهدت للحكم الشرعي، نطق رسول الله (ﷺ) بالحديث

---

(١٦) صياغة تضم نص روايات الأحاديث أو بالأحرى الأطراف التى أوردها محمد ناصر الدين الألبانى فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" تحت الأرقام ٤٣٨٢، ٤٣٨٣، ٤٣٨٤ والإمام محمد بن يوسف الصالحى فى الجزء الأول من كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" صـ ٢٧٢، ٢٧٣.

الذى صدرنا به هذه الدراسة: "الناس تبع لقريش فى هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم"(١٧).

**(٤) الإمامة (الخلافة):**

ثم زاد الأمر وضوحاً حتى لا يبقى ظل من شك، ولا موضع قدم بثلاث فقال (ﷺ): "ألا إن الأئمة من قريش، ولهم عليكم حق، ولكم مثل ذلك، ما عملوا فيكم بثلاث: عدلوا إذا حكموا ووفوا إذا عاهدوا، ورحموا إذا استرحموا.

فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل"(١٨).

يبين (ﷺ) أن الحكم (تولى السلطة السياسية) يعد عقداً بين الحاكم (الراعى) وبين المحكومين (الرعية)، ينتج حقاً لكل طرف عند الآخر، وأن الحق هو الوجه الآخر للواجب، بمعنى أن الحصول على الحق هو ثمرة القيام بالواجب، فكل حق يقابله واجب. وقوله (ﷺ): "ولهم عليكم حق، ولكم مثل ذلك اى: ولكم عليهم حق يشبه أو يقابل حقهم عليكم و المعنى أن للحكام على الشعوب حق الطاعة، و للشعوب على

---

(١٧) وهو الحديث الذى عبر عن معناه بألفاظ مختلفة (متنوعة). فقال عمرو بن العاص: "قريش ولاة الناس فى الخير والشر إلى يوم القيامة" وهو الحديث رقم ٤٣٩٠ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) للألبانى. وقال مرة أخرى "قريش قادة الناس"، وذلك فى معرض رده على رجل من قبائل بكر بن وائل، أغضبه تنازع قريش على الحكم حين احتدم الصراع بين على بن أبى طالب الهاشمي (ﷺ) ومعاوية بن أبى سفيان الأموى وكلاهما من قريش. وكان صراعهما سبباً فى تفريق الأمة الإسلامية فقال الرجل: "لئن لم تنته قريش لنجعلن هذا الأمر فى جمهور من جماهير العرب" فقال عمرو بن العاص رداً عليه "كذبت سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: "قريش قادة الناس"– انظر شرح الحديثين ٧١٣٩، ٧١٤٠ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى. وروى أيضاً بلفظ "قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم". وهذا هو نص الحديث رقم ٤٣٩١ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)" للألبانى.

(١٨) هذه صياغة تضم فى سياق واحد مختلف الروايات الكثيرة لهذا الجزء من الخطبة النبوية والتى أوردها الألبانى فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) فى الحديثين رقم ٢٧٥٨، ٢٧٨٨ وابن حجر فى شرحه للحديثين رقم ٧١٣٩، ٧١٤٠.

وقد تناثرت روايات هذا الجزء من الخطبة النبوية فى مراجع كتب الحديث الشريف كما يتضح من كلام ابن حجر والألبانى فى مسند ابن حنبل، وسنن النسائى، والطبرانى. وجاء لفظ "الأمراء" بدلاً من لفظ "الأئمة" فى بعض الروايات، كما جاء لفظ "الملك" فى رواية عن قتادة عن أنس بن مالك (ﷺ) "إن الملك فى قريش".

الحكام حق القيام بواجبات الحكم. فما هى واجبات الحاكم التى تعد حقوقاً للشعب؟ وإجابة الرسول (ﷺ) هى:

١- إقامة العدل "عدلوا إذا حكموا".

٢- الوفاء بالعهود "ووفوا إذا عاهدوا".

وجاء فى بعض الروايات بلفظ: "وأقسطوا إذا قسموا".

ومعنى الاقساط فى القسمة هو العدل فى توزيع الثروة القومية. ولا شك فى أن هذا هو البند الأول والأهم فى العهد الذى ينشأ بين الحاكم والشعب بمجرد الصعود إلى سدة الحكم، لأن الناس تريد دائماً أن تضمن ألا يستغل الحاكم قوة السلطة فى الاستحواذ على ثروة الأمة لنفسه وأهله وأعوانه، فإن نهب المال العام هو الجريمة الأشد خطراً التى يرتكبها الحاكم، ويخون بها الأمانة التى تحملها عند تسلم مقاليد الحكم.

٣ - الرحمة بالناس "ورحموا إذا استرحموا".

وإذا كان رسول الله (ﷺ) قد أعطى قبيلة قريش - للأسباب التاريخية التى أشرنا إليها من قبل - مكانة القيادة وحق الإمامة (الخلافة) فإنه (ﷺ) قد قيد ذلك الحق بقيام قريش بواجبات الحاكم.

فإذا لم يقوموا بها فلا حق لهم على الناس بل عليهم اللعنة. "فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل".

واللعنة هي الغضب الموجب للإبعاد عن الرحمة والصحبة فلعنة الله تعني: إبعاد العبد عن رحمة الله ورفضه (سبحانه وتعالى) لأن يكون العبد قريباً منه. ولعنة الملائكة تعني رفض الملائكة لصحبة وقرب العبد الملعون لهم. ولعنة الناس تعني إبعادهم للملعون ورفضهم صحبته أو موالاته. ومن ثم فإنها تعنى إنزال الحاكم الملعون من فوق سدة الحكم أى انتزاع السلطة منه.

"لا يقبل منه صرف" يعنى لا يمكنه تقديم عذر مقبول عن خيانته للأمانة وتقاعسه عن القيام بواجب الحاكم الشرعى (الخليفة)، أى أنه لا يستطيع تأويل سوء عمله

ليصرف عن نفسه العقاب الذى لابد أن ينـــزل عليه لا محاله، فلن يصرف عنه مهمـــا قال أو ادعى.

ولا عدل: ولا يقبل منه أى تعويض أو فداء.

**(٥) قريش هى الحزب الذى اختاره الرسول (ﷺ) للحكم:**

لقد لمح النبى (ﷺ) بنور النبوة باعث التعصب القبلى الذى دفع أبا قتادة الأنصارى إلى سب قريش والتهجم عليها. كما رأى (ﷺ) – ببصر النبى – الفتنة الـــتى ســـوف تشتعل عند وفاته بسبب الصراع على خلافته فى الحكم، فأراد أن يحسم الأمر وهو لم يزل حياً بينهم لصالح قريش؛ لأن ذلك يحقق صالح الأمة ويحفظ وحدتها.

فزاد الأمر وضوحاً بقولـــه: "إن هـــذا الأمـــر لا يـــزال فى قـــريش مـــا بقـــى من الناس اثنان، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله – تعالى – على وجهه فى النار ما أقـــاموا الدين"(١٩).

ولا نحتاج إلى بيان أن العدد هنا ليس مقصوداً كخبر أو حقيقة واقعية، بـــل هـــى صورة مجازية بلاغية تهدف إلى تأكيد جدارة وأحقية قريش بإمامة الناس.

كأنه (ﷺ) قال: إذا إفترضنا أنه لم يبق من الناس سوى اثنان فقط فينبغى أن يكون القرشى منهما أميراً على الآخر. ولكن هذا الحكم القاطع مشروط بإقامة الدين الـــذى هو شريعة الله التى بين رسول الله (ﷺ) فى الفقرة السابقة من الحديث أو الخطبة النبوية أنها تعنى إقامة العدل، والوفاء بالعهود والإقساط فى القسمة والرحمة بالناس.

ثم توجه إلى رجال قريش قائلاً: "يا معشر قريش، لا يزال هذا الأمر فيكم، وأنـــتم

---

(١٩) وجاء فى رواية البخارى: "لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقي منهم اثنان – هذا نص الحديثين رقم ٣٥٠١، ٧١٤٠ عن ابن عمر بن الخطاب (رضى الله عنهما). والمتبادر إلى الذهن أن يكون المعنى: ما بقى من قريش اثنان. وهو معنى غامض أو غير مفهوم.

ولكن الرواية الواردة فى صحيح مسلم تقول: "ما بقى من الناس اثنان" وهى تعطى معنى بليغاً واضح الدلالة علـــى أحقية وجدارة قريش بمنصب الخلافة (= إمارة المؤمنين) لأنها تقول: إذا افترضنا أنه لم يبق من الناس سوى اثنـــان فقط فينبغى أن يكون القرشى منهما أميراً على الآخر. وهذه صورة مجازية تهدف إلى توضيح وتأكيد المعنى.

أولى الناس به ما كنتم على الحق، و لم تحدثوا، فإذا غيرتم بعث الله عليكم من يلحاكم كما تلحى هذه الجريدة[٢٠] وأمسك بفرع جاف من نخلة وأخذ ينزع الأوراق الصفراء ويقذفها فى الهواء، يهدد بذلك قريش بالهلاك والإبادة إذا خانت الأمانة وتقاعست عن القيام بواجبات الخلافة.

ثم توجه إلى عموم المؤمنين من الأنصار والمهاجرين فقال: (استقيموا لقريش ما استقاموا لكم فإن لم يستقيموا لكم، فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم. فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء)[٢١].

وهذه دعوة صريحة بل صيحة صارخة للخروج على الحاكم الظالم إن أصر على "الاعوجاج" ورفض الإستقامة على شريعة الله، وهذا مدلول قوله (ﷺ) فإن لم يستقيموا لكم "يعنى رغم دعوتهم إلى الاستقامة. فإن تخاذل الناس وتقاعسوا عن القيام بالنهى عن المنكر (= مقاومة الظلم) فعليهم أن يقبلوا بمعيشة الذل والهوان. هذا مدلول قوله (ﷺ): "فكونوا زراعين أشقياء".

وسنلمس صدى هذه الدعوة النبوية لتقويم الحكام وإجبارهم على الاستقامة عند تولى الخلفاء الراشدين الحكم من بعده (ﷺ)

قال أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فى أول خطبة له فى الناس بعد أن تمت مبايعته: "أما بعد، أيها الناس، فإنى قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى.

وقال: "أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم....." ثم قال مرة أخرى: "أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإنى لا أدرى لعلكم

---

(٢٠) صياغة تجمع فى سياق واحد الروايات المختلفة المتناثرة فى مراجع الحديث النبوى، والتى أوردها ابن حجر فى شرحه للحديثين ٧١٣٩، ٧١٤٠ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى". "يلحاكم": يقضى عليكم ويمحو ذكركم، مأخوذ من اللحى وهو تقشير الشجرة أو العصا، الذى يعنى إزالة القشرة التى تحفظها وتميزها.

(٢١) رواية عن ثوبان (رضي الله عنه) أوردها ابن حجر فى شرح الحديثين ٧١٣٩، ٧١٤٠ وذكر أن الطبرانى وأبو داود قد أخرجاها. انظر المصدر السابق.

ستكلفونني ما كان رسول الله (ﷺ) يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات، فإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فاتبعوني، وإن زغت فقوموني"(٢٢).

وهذه كلمات ساطعة الدلالة تؤكد – بما لا مزيد عليه – حق الناس أى الشعب فى محاسبة الحاكم، وواجب معارضته إذا أخطأ، والانخلاع من طاعته والخروج عليه أى إعلان العصيان إذا أصر على الاعوجاج ورفض الاستقامة، لأن الطاعة مشروطة بالاستقامة على شريعة الله التى تقوم على معنى العدل.

ولنتأمل كيف كرر(رضي الله عنه) لفظ "فقوموني" مستحضراً معنى "الاستقامة" الوارد فى خطبة النبى (ﷺ). والتقويم يكون باللسان وباليد، أى بالدعوة التى تأمر بالمعروف (= العدل) وتنهى عن المنكر (الظلم) وبالأفعال التى تعبرعن رفض الإذعان للظلم، والتى قد تبلغ فى حدها الأقصى – عند احتدام النزاع برفض الحكام الأستجابة إلى دعوات الاستقامة – التهديد باستعمال القوة كوسيلة أخيرة لإجبار الحاكم – على النزول من سدة الحكم، أى إكراهه على التنازل عن السلطة بعد استنفاذ مختلف الوسائل الأخرى، إذ لا تقبل شريعة الله "العدل" أن يستوى الحاكم على كرسى الإمارة رغم أنف الناس (الشعب)، إذ المفترض – شرعاً – أنه الراعى الذى يعتنى بشئون رعيته، وليس الجبار الذى يكرههم على ما لا يرضون.

فقوله (ﷺ): "فضعوا سيوفكم على عواتقكم" يعنى: فهددوا الحكام (الأئمة) باستعمال القوة فى انتزاع السلطة منهم؛ لأن وضع السيف على العاتق (= الكتف) يصور وضع الاستعداد والتهديد باستعمال السيف فى القتل.

وقوله (ﷺ): "فأبيدوا خضراءهم" يعنى فإذا لم يستجيبوا – تحت ضغط التهديد

---

(٢٢) انظر نص خطبة أبى بكر الصديق (رضي الله عنه) فى كتاب "الإسلام وحقوق الإنسان – ضرورات لا حقوق" للأستاذ الدكتور/ محمدعمارة – عالم المعرفة الكتاب رقم ٨٩ الكويت – صـ ١٦٧، ١٧٢ وقد نقلها عن كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب" للنويرى الجزء ١٩ صـ ٤٢، ٤٥ طبعة القاهرة.

باستعمال القوة ضدهم – بالإذعان لمقتضى الاستقامة، فعليكم أن تنتزعوا الحكم منهم، وهذه هى دلالة قوله (ﷺ): "فأبيدوا خضراءهم" لأن "خضراء" الحاكم هى السلطة التى يتمتع بنعيمها ويستعملها فى تحصيل الثروة وتحقيق الأهواء والشهوات دون أن يقوم بتكاليفها الشرعية، إبادتها تعنى انتزاعها منه.

ولنلاحظ أنه (ﷺ) لم يقل فقاتلوهم أو اقتلوهم، ليبين أن المقصود هو انتزاع الحكم منهم بعد أن أثبتوا عدم جدارتهم بحمل أمانته، وليس المقصود المسارعة بقتلهم. بل المطلوب إنزالهم عن سلطانهم (خضراءهم) ومحاكمتهم على خطاياهم. وبالطبع فقد تفضى الأحداث إلى قتلهم إذا أصروا على الاحتفاظ بالحكم "وعضوا" عليه بالنواجذ مستعملين القوة العسكرية فى إسكات صوت العدل.

فلا يحدث القتال والقتل إلا عندما يستعمل الحكام القوة – التى تمنحها السلطة لهم – فى القضاء على المعارضة لظلمهم، وحينذاك يكون الحكام الظالمون هم المعتدون لأنهم يستعملون القوة التى منحها الشعب لهم- باعتباره فى الأصل مصدر الشرعية ومانح السلطة — فى الاستئثار بالحكم ضد إرادة الشعب.

وأنهى عمر بن الخطاب (ﷺ) خطبته عند تولى الخلافة بقوله: "وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم" ثم نزل(٢٣).

وهو نص بالغ الوضوح فى إعطاء الحق فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لجميع الناس — الذين اجتمعوا فى المسجد للاستماع إلى خطبة التكليف بالخلافة — وكذلك الحق فى الشورى الذى يعنى تقديم النصيحة للحاكم ومناقشته فى الأمر الذى يهم الأمة "إحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم".

ودخل حذيفة بن اليمان (ﷺ) على عمر بن الخطاب (ﷺ) فرآه مهموم النفس،

---

(٢٣) انظر نص الخطبة فى كتاب "خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه" للأستاذ الدكتور/ محمد أحمد عاشور — دار الاعتصام — صـ ٢٧.

فسأله: "ماذا يا أمير المؤمنين؟".

فأجاب عمر (رضي الله عنه): "إنى أخاف أن أخطئ فلا يردنى أحد منكم تهيباً منى".

فقال حذيفة (رضي الله عنه): "والله لو رأيناك خرجت عن الحق لرددناك إليه".

فقال عمر (رضي الله عنه): (الحمد لله الذى جعل لى أصحاباً يقومونى إذا أعوججت).

وصعد عمر بن الخطاب المنبر وقال: "يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملت برأسى إلى الدنيا. هكذا" ومال برأسه، فقال له رجل من الجماعة: "إذن نقول لك بسيوفنا هكذا" ورفع الرجل يده كأنه يشهر سيفه فى وجه عمر (رضي الله عنه) فسأله عمر (رضي الله عنه): "إياى تعنى بقولك؟"..... يريد أن يتأكد أن الرجل يعى ويعنى ما يقول.

فأجاب الرجل متحدياً ومؤكداً علمه: "نعم إياك أعنى بقولى يا عمر".

فقال عمر (رضي الله عنه): رحمك الله، الحمد لله الذى جعل فيكم من يقوم عوجى". وقد اشتهرت هذه القصة وروى معناها بلفظ: "والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا"(٢٤).

ويحاول بعض الفقهاء من أهل الجمود - كعاداتهم - التشكيك فى هذه الرواية وتوهينها بادعاء عدم الثقة فى بعض الرواة، لأنها فى الحقيقة لا تتفق مع مذهبهم أو هواهم القائل بالخضوع والخنوع للحاكم مهما ظلم وانتهك الحرمات، بدعوى الحفاظ على وحدة الأمة، وتوقى الوقوع فى الفتن، متغافلين عن أن شيوع الظلم وانتهاك الحرمات – التى أوجبت شريعة الله حفظها – هو أعظم الفتن، ومتغافلين عن أن معنى (مضمون) الرواية يتوافق تماماً مع فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى جعلها الله (سبحانه وتعالى) السمة الجوهرية التى تميز الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم.

والنهى عن المنكر يكون بالقلب (= النفور والإعراض عن المشاركة فيه) وباللسان (= بدعوة الظالم إلى التراجع عن ظلمه) وباليد التى تعنى الأعمال المعبرة عن رفض الظلم.

---

(٢٤) انظر كتاب "كيف نحكم بالإسلام فى دولة عصرية؟" للأستاذ الدكتور/ أحمد شوقى الفنجرى، صـ ٢٤٤ – الهيئة العامة للكتاب – القاهرة – سنة ١٩٩٩ – الطبعة الثانية.

ومن تلك الأعمال التهديد باستعمال القوة لإزالة الظلم. وقد عبر عن هذا المعنى بإشهار السيف. ونكتفى هنا بهذا القدر من المناقشة لحدود وضوابط التعبير عن المعارضة ونعود إلى الخطبة النبوية التى ألقاها رسول الله (ﷺ) يوم فتح مكة لوأد الفتنة التى رآها تطل برأسها، ولحسم التنافس على السلطة لصالح حزب قريش مراعياً فى هذا مصلحة الأمة والدولة الإسلامية الأولى فى طور نشأتها.

**(٦) الكفاءة الإنسانية أساس استحقاق القيادة (الإمامة):**

فسأل رجل النبى (ﷺ) "من أكرم الناس؟". كان الواضح أن الرجل من غير قريش، وأنه كان يرغب فى أن يقول النبى (ﷺ) كلاماً يمدح به القبائل الأخرى كما أثنى على قريش.

قال الرسول (ﷺ): أكرمهم عند الله أتقاهم.

قال الرجل: يا نبى الله، ليس عن هذا نسألك!!

من الواضح أن الرجل يتكلم باسم جماعة (قبيلة) وأن الحديث سيساق إلى ميدان التفاخر بين القبائل وسيفضى إلى إشعال روح التنافس والتخاصم والتنازع.

فقال رسول الله (ﷺ): فأكرم الناس نبى الله يوسف ابن نبى الله يعقوب ابن نبى الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

فقال الرجل: يا نبى الله، ليس عن هذا نسألك!!

فقال رسول الله (ﷺ): فعن معادن العرب تسألونى؟

قال الرجل: نعم.

فقال رسول الله (ﷺ): تجدون الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا. وتجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه. وتجدون شر الناس عند الله يوم القيامة ذا الوجهين، الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه. من كان له وجهان فى الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار. لا يدخل الجنة قتات والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر

منها اختلف"[٢٥].

معدن الشيء: أصله أو سره أو جوهره، وهو ما يعنى الصفات الأساسية الدائمة التى تميزه عن نظائره (أشباهه) من الأشياء. فكما أن معدن (عنصر) الذهب أو الفضة يتميز كل منهما بمجموعة من الخصائص الثابتة التى تميزه عن المعادن (العناصر) الأخرى الموجودة فى الأرض وتمنحه هويته (شخصيته أو ذاتيته) ومكانته بين أمثاله من معادن (عناصر) الأرض، فكذلك يكون الناس.

فقد منح الله (ﷻ) القبائل (السلالات) البشرية، وكذلك الأفراد مجموعة من الصفات الثابتة والفضائل التى تميزهم بعضهم عن بعض، وتؤهل بعضهم للقيام بأعمال لا يقدر عليها الآخرون.

وفى كلمة واحدة فقد رفع الله (ﷻ) بعض الناس – على مستوى الأفراد والجماعات — فوق بعض درجات بما وهبهم من خصائص وخصهم من فضائل على سبيل الابتلاء (الامتحان) فى هذه الحياة الدنيا، ودون أن يبطل ذلك أو يدحض الأساس المتين لمبدأ المساواة بين جميع بنى آدم، باعتبارهم أبناء رجل واحد، وهو آدم (عليه الصلاة والسلام) خليفة الله (ﷻ) فى الأرض، ويخوضون جميعاً غمار ابتلاء

---

(٢٥) نص القسم الأخير من خطبة النبى (ﷺ) والذى تناثرت أطرافه فى مختلف كتب الحديث النبوى تحت مختلف التراجم (العناوين)، فأوردها البخارى – على سبيل المثال –فى أربعة عشرة حديثاً أخذت الأرقام ٣٠٥٨، ٣٣٣٦، ٣٣٧٤، ٣٣٨٢، ٣٣٣٨٣، ٣٣٩٠،، ٣٤٩٣، ٣٤٩٤، ٣٤٩٦، ٣٥٨٨،٤٦٨٨، ٤٦٨٩، ٦٠٥٦،، ٧١٧٩.
كما أورد هذا الجزء من الخطبة النبوية كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) فى الأحاديث ٢٩١٦، ٣٢٦٧، ٦٤٩٦، ٦٧٩٦، ٦٧٩٧، ٧٦٧٢.
وبهذا نفهم أن النص الكامل لخطبة النبى (ﷺ) يوم فتح مكة رداً على تهجم أبى قتادة الأنصارى على قريش قد تبعثر فى زهاء تسعة عشرة حديثاً فى صحيح البخارى وحده، إذ يضاف إلى الأحاديث المذكورة هنا الأحاديث التى أوردناها آنفاً فى عرضنا للقسم الأول من الخطبة النبوية وهى الأحاديث رقم ٣٤٩٥، ٣٥٠٠، ٣٥٠١، ٧١٣٩، ٧١٤٠.
فلا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا: إن هذه الخطبة النبوية قد تحولت إلى عشرات الأحاديث فى مختلف كتب السنة النبوية تحت مختلف التراجم (العناوين) الفقهية منزوعة من سياقها التاريخى الذى ألقيت فيه.

واحد، مضمونه "أيكم أحسن عملاً"[٢٦] يقول الله (ﷻ): **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)**[٢٧]

التعارف: التعرف المتبادل على أوجه التشابه (التماثل) بين الأشباه (النظائر) ولا تعرف أوجه التشابه أو التماثل إلا بمعرفة أوجه الخلاف، ومن ثم فهو عمل عقلى يؤدى إلى تقسيم الناس إلى جماعات متفرقة، تتميز كل جماعة منها بعدة خصائص، تربط وتوحد بين أفرادها وتخلق بينهم الانتماء وتبعثهم على التآلف والاتحاد، وفى نفس الوقت تفصلهم (تميزهم) عن أفراد الجماعات"الأخرى". إذن التعارف معرفة تكتسب عبر الاشتباك فى العديد من العلاقات الإنسانية وخوض الابتلاءات التى تؤدى إلى تمييز مجموع الناس إلى جماعات مختلفة (متنوعة) بالنظر إلى أوجه التشابه التى تجمع بين أفراد كل جماعة وتضمهم فى نطاق طائفة أو فرقة واحدة، وبالرجوع إلى مقاييس (معايير) التدرج التى ترفع بعض الناس فوق بعض.

وفى هذا المضمار فإن "تقوى الله" هى المقياس (المعيار) الوحيد المعتد به عند الله (سبحانه وتعالى) يوم الحساب. ولذلك قال بعد ذكر التعارف مباشرة: **(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)** والمعنى إن أعلاكم مكانة أو أرفعكم درجة عند الله يوم القيامة أشدكم تقوى، وهم أكثركم طاعة الله (ﷻ) باجتناب ما نهى عنه والإقبال على ما أمر به.

يقول الله (ﷻ) واصفاً نفسه: **(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ**

---

(٢٦) انظر الآيتين الأولى والثانية فى سورة "الملك". يقول الله (ﷻ) فيهما: (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) وتأمل فى تصدير السورة بلفظ "الملك" الذى يعنى على المستوى البشرى الاجتماعى: الإمارة أو الحكم أو الخلافة.

(٢٧) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

رَحِيمٌ)[٢٨].

خلائف الأرض: ملوك (حكام) الأرض، فأنتم – يا بنى آدم سادة الأرض الذين تملكون التصرف فى كل ما فيها من أشياء بسلطان قانون "الخلافة" التى منحها الله لأبيكم آدم.

"وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ": وجعل بعضاً منكم أعلى درجة – فى سلم الصعود الاجتماعى – فوق بقية إخوتهم من البشر، بالنظر إلى بعض المقاييس أو المعايير التى تجعلونها موضع الاعتبار، وتعتدون بها عند تمييزكم بين الناس وتقسيمهم إلى طبقات، مثل سعة الرزق أو كثرة المال، وقوة الجسد، وجمال الصورة، والعلم،.....

ولم يكن الباعث على ذلك التمييز والتقسيم الظلم أو الإخلال بمبدأ المساواة بين البشر فى الحقوق والواجبات، وإنما كان ذلك على سبيل الابتلاء، لأن الله (ﷻ) أراد أن يمتحن عمل الناس فيما منحهم من نعم قد رفعت بعضهم درجات فوق الآخرين فى مجالات التنافس والرقى الإنسانى، هل يشكرون النعم التى فضلوا بها على غيرهم، ويؤدون الواجبات المستحقة عليهم نظير منحهم ذلك الفضل؟ أم يجحدون فضل الله (ﷻ)، ويستعملون تلك المنح الإلهية فى التكبر على غيرهم من خلق الله وإيذائهم؟

ذلك هو "سر" التفضيل الإلهى لبعض الناس فوق بعض، الذى باح به قول الله (ﷻ): (**لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**).

وحذر (ﷻ) الناس من إساءة استعمال النعم الإلهية التى فضلوا بها على غيرهم، فذكرهم بيوم الحساب قائلاً: (**إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ**) ودعاهم إلى الإسراع بالتوبة وخلع رداء الكبرياء بقوله: (**وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**).

والحقيقة الجوهرية التى يهمنا لفت الأنظار إليها هى البيان القرآنى بالغ الوضوح

---

(٢٨) الآية (١٦٥) من سورة الأنعام.

لتفاوت البشر فى مختلف القدرات الخاصة أو المتعلقة بكافة ميادين التسابق (التنافس) الإنسانى.

وهى الحقيقة التى يشير إليها الرسول (ﷺ) بقوله: "تجدون الناس معادن كمعادن الذهب والفضة".

والمعنى المقصود: كما يختلف معدن الذهب عن معدن الفضة وكلاهما عن سائر معادن الأرض، لأن لكل معدن خصائصه الثابتة المكنونة فى جوهره أوبنيته الأساسية، فكذلك الناس يختلفون فى سلوكهم وصفاتهم لاختلاف المواهب والفضائل التى منحها الله (ﷻ) لأنفسهم عندما فاض عليها بالروح (= سر الحياة) فصارت النفوس أرواحاً نزلت من الغيب إلى هذه الأجساد (الأثواب) الطينية (الأرضية) لتخوض الابتلاء وفى هذه الحياة الدنيا(٢٩).

فكأن النفوس – باكتسابها الروح (سر الحياة) - قد أصبحت أنفاساً أطلقت من جوف (= صدر) الغيب لتصبح مشهودة فى هذه الأجسام.

ولذلك فالذين اتصفوا بالفضائل الخلقية وعرفوا (ميزوا) بالأعمال الصالحة النافعة للناس فى زمن الجاهلية قبل الإسلام، من المؤكد أنهم سيحتفظون بعد دخولهم فى الإسلام بتلك الصفات الحسنة المنشودة فى كل مجتمع إنسانى.

بل أن اعتناق الإسلام والإلتزام بقيمه الخلقية وأحكامه الشرعية سيزكى نفوسهم وينمى فضائلهم، ومن ثم فمن ارتفعت مكانتهم فى الجاهلية سترتفع مكانتهم بعدإسلامهم. هذا هو تفسير قوله (ﷺ): "فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا".

"إذا فقهوا": إذا علموا مقاصد شريعة الإسلام وعملوا لتحقيقها.

"الفقه": علم (تبين) المقصود من الكلام أو الأعمال، أى الوصول إلى معنى الألفاظ

---

(٢٩) لمزيد من البيان لمعنى النفس والروح وغيرهما من الألفاظ (المصطلحات) القرآنية التى تعبر عن الإنسان، انظر كتابنا نحو "فلسفة إسلامية للجمال و الفن" دار القلم – ٣٦ شارع القصر العينى – القاهرة – صـ ٦٧، ١٠٧.

أو الأفعال.

والمقصود – هنا – من كلام رسول الله (ﷺ) بيان جدارة قريش بإمامة العرب فى الدولة الإسلامية الأولى، فكما كانت لقريش إمامة (قيادة) العرب فى الجاهلية قبل الإسلام، وأقرت لها القبائل العربية كلها بذلك، فينبغى أن تكون لقريش إمامة العرب فى الدولة الإسلامية؛ لأنها تحوز الصفات التى تؤهلها لذلك.

وقوله (ﷺ): "وتجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر (الشأن) حتى يقع فيه": تحذير لمن يشتد حرصه على الإمارة ببيان أنها فتنة عظيمة توقع بصاحبها فى خطايا كثيرة وتفضى به – فى النهاية – إلى الهلاك، لأن الاستحواذ على السلطة يغرى بالفساد، إذ ييسر على الإنسان اتباع الأهواء وتحصيل الشهوات. لذلك حذر الله (سبحانه وتعالى) نبيه داود (عليه الصلاة والسلام) فقال له: **(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)**[٣٠].

ولننظر ملياً فى تحذيره لنبيه داود (عليه الصلاة والسلام) – باعتباره خليفة (= حاكماً) – من اتباع الهوى ولننظر فى بيانه لحاجة الخليفة (الحاكم) إلى من يذكره بيوم الحساب.

وكذلك حذر رسول الله (ﷺ) أصحابه الذين تطلعت نفوسهم إلى الإمارة، فقال (ﷺ): "يا أبا ذر، إنى أراك ضعيفاً، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى. لا تتأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم"[٣١].

---

(٣٠) الآية (٢٦) من سورة ص.

(٣١) صياغة تضم نص الحديثين ٧٨٢٣، ٧٨٢٥ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

وقال (ﷺ): "يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فكفر عن يمينك، وائت الذى هو خير"(٣٢).

وقوله (ﷺ): "وتجدون شر الناس عند الله يوم القيامة ذا الوجهين، الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه".

تحذير من الوشاة الذين يتقربون ويتوددون إلى الحكام بنقل الكلام المسئ إليهم الذى يقوله المعارضون لهم الساخطون عليهم، فيوغرون بذلك صدور الحكام ويزينون لهم البطش بخصومهم.

فالواشى المفسد يحضر مجالس الخصوم المعارضين للأمير (الحاكم) ويبدى لهم وجهاً مؤيداً ومتعاطفاً معهم فيتمكن بذلك من الاستماع إلى أقوالهم والعلم بأخبارهم وأسرارهم. ثم يذهب إلى مجلس الأمير وينقل إليه ما سمع وما علم ويغريه باستعمال سلطته فى الانتقام من أعدائه المناوئين له، وبذلك الافساد يشعل الفتن ويقوض استقرار المجتمع ويهدد وحدة الأمة. ولذلك استحق أن يكون شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة.

"من كان له وجهان فى الدنيا، كان له يوم القيامة لسانان من نار"(٣٣).

"لا يدخل الجنة قتات"(٣٤).

النمام: الذى ينقل ما وصل إلى علمه من أقوال وأفعال بعض الناس إلى غيرهم على سبيل الإفساد بين الفريقين.

القتات: الذى يستمع أحاديث الناس خلسة من حيث لا يعلمون ثم ينقل ما سمع

---

(٣٢) الحديث رقم ٧٩٤١ فى المصدر السابق.

(٣٣) رويت هذه الجملة كحديث مستقل أخرجه أبو داود عن عمار بن ياسر (رضى الله عنهما). انظر الحديث رقم ٦٤٩٦ فى المصدر السابق.

(٣٤) نص الحديث رقم ٦٥٠٦ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" والحديث رقم ٧٦٧٢ فى صحيح الجامع الصغير.

إلى من يهمه الأمر على سبيل الإفساد بين الطرفين والإيقاع بينهما.

إذن خطيئة القت تتضمن التجسس بالإضافة إلى النم[٣٥].

قوله (ﷺ): "والأرواح جنود مجندة" تشبيه للأرواح – التى قلنا آنفاً: انها النفوس التى اكتسبت سر الحياة، فصارت بمثابة أنفاس خرجت من صدر الغيب – بالجنود التى تم حشدها وإرسالها فى جيش لأداء مهمة خارج عن الوطن.

وكذلك أرسلت الأرواح من الغيب إلى الأرض مرتدية هذه الأجساد (الأثواب الطينية) لتحقيق العلم الإلهى عبر خوض الابتلاء. ويصطبغ كل روح من الأرواح بصفات النفس التى جاء بها من الغيب ويبحث فى هذه الحياة الدنيا – على الأرض – عمن يشبهه من الأرواح. إن كل روح يبحث عن أمثاله (أشباهه) الذين يحملون مثل صفاته. هكذا تحس الأرواح المتشابهة بالانتماء إلى بعضها فى جماعة واحدة، فتسعى إلى التآلف والاتحاد بينما تتنافر الأرواح المتخالفة. هذا تفسير قوله (ﷺ): "فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف".

والمقصود دعوة المسلمين وحثهم على التآلف والاتحاد إن كانوا – حقاً– يحملون أرواحاً (= نفوساً) مؤمنة طيبة، ونهيهم عن التنافر والتفرق.

**(٧) المعنى التاريخى للحديث النبوى:**

لقد أخطأ الفقهاء فى فهم الحديث النبوى القائل بإمامة قريش، إذ اعتبروا أن ذلك الأمر النبوى– بوجوب أن يكون الخليفة أو الأمير من قريش فرضاً دائماً مستمراً يجب طاعته إلى قيام الساعة، كما لو كان حديث النبى (ﷺ) يعبر عن نزعة عنصرية أو تعصب قبلى يرفع قريشاً فوق كل القبائل العربية، بل فوق كل البشر دون قيد أو شرط.

ذهبوا إلى ذلك الفهم السقيم حتى قال بعضهم: إذا لم يوجد قرشى يستخلف

(٣٥) انظر ما قيل فى معنى القتات فى لسان العرب، مادة قتت – صـ ٣٥٢٤.

كنانى (من بنى كنانة) فإن لم يوجد فمن بنى إسماعيل (عليه الصلاة والسلام)، فإن لم يوجد منهم أحد مستجمع الشرائط فعجمى، وفى وجه (= رأى آخر) جرهمى، وإلا فمن ولد إسحاق(٣٦).

فكأننا بصدد الحديث عن أسطورة التفوق (التمييز) العنصرى الذى يرفع سلالات بشرية فوق أخرى بموجب الأصل الجسدى أو الوالد الذى خرجوا من صلبه.

وقد تغافل الفقهاء عن أن الأمر النبوى بوجوب طاعة الخليفة أو الإمام من قريش مشروط بأن يؤدى هذا الحاكم القرشى الواجبات التى تفرضها عليه الشريعة الإسلامية. وقد حدد رسول الله (ﷺ) أهمها وهى: العدل فى الحكم، والوفاء بالعهود، والقسط فى القسمة، الرحمة بالرعية.

وعندما لا يقوم الحاكم القرشى بهذه الواجبات فلا طاعة له ويحق للرعية (الشعب) الخروج عليه، بل توعده النبى (ﷺ) باللعنة: "فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل"(٣٧).

ويقول ابن حجر: "وليس فى هذا ما يقتضى خروج الأمر عنهم"!!

كأن تقاعس الأئمة من قريش عن أداء واجبات الحكم الشرعية واستحقاقهم اللعنة بنص رسول الله (ﷺ) لا يقتضى خروج الحكم من أيديهم!!!

ويقول النبى (ﷺ) متوعداً قريش: "فإذا غيرتم بعث الله عليكم من يلحاكم كما تلحى هذه الجريدة".

فيعقب ابن حجر على هذا الحديث بقوله: "وليس فى هذا أيضاً تصريح بخروج الأمر عنهم وإن كان فيه إشعار به"!!(٣٨).

يتوعدهم النبى (ﷺ) بالإبادة و يصر ابن حجر على أن ليس فى هذا الوعيد تصريح بخروج الحكم من أيديهم.

---

(٣٦) انظر شرح الحديثين ٧١٣٩، ٧١٤٠ من كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى".

(٣٧) المصدر السابق.

(٣٨) المصدر السابق.

وغفل الفقهاء عن أن أمر النبى (ﷺ) مقصود به ومقصور على الدولة الإسلامية الأولى التى أعقبت وفاته (ﷺ)، فهو أمر مخصص لفترة تاريخية محدودة، ولا يمتد سلطانه إلى قيام الساعة والحكمة من ورائه مراعاة صالح الأمة الإسلامية، وحفظ وحدتها فى عهد ولادتها وليس التعصب القبلى لقريش أو الاعتقاد بتفوقها العنصرى.

والدليل على صحة ما نقول هو الحديث النبوى الصحيح الذى تنبأ بمحو قريش وفناء ذكرها. قال رسول الله (ﷺ): "أسرع قبائل العرب فناء قريش، يوشك أن تمر المرأة بالنعل، فتقول هذه نعل قرشى"(٣٩).

إذن فقد زالت قبيلة قريش، وذابت فى جموع الناس، ولم يبق لها أثر فى جملة الأحياء، فلا يستطيع أحد أن يزعم أنه قرشى ولا أن يطلب الحكم بتلك الدعوى الكاذبة.

وتغافل الفقهاء فى فهمهم السقيم عن قول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي استخلفته، فإن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل"(٤٠).

ومعاذ بن جبل (رضي الله عنه) أنصارى لا نسب له فى قريش. ورأى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه أولى الناس بالخلافة بعد أبى عبيدة الجراح (رضي الله عنه). والمغزى المطلوب التنبيه عليه أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) – الذى من المؤكد أنه قد سمع رسول الله (ﷺ) وهو يتحدث عن أن الأئمة من قريش – قد فهم أن المقصود فى هذا الأمر النبوي مراعاة مصلحة الأمة وليس إعلان التفوق العنصري لقبيلة قريش.

وهكذا لم يتبق موضع قدم لمتشكك فى أن تولى الحكم قضية اجتهادية تختلف فيها آراء الناس، وأن لجميع الناس الحق فى التطلع إلى الجلوس على كرسى السلطة مع ضرورة العلم بالواجبات الثقيلة التى فرضتها الشريعة الإسلامية على الحاكم وألزمته

---

(٣٩) الحديث رقم ٩٦٢ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) عن أبى هريرة (رضي الله عنه).
(٤٠) انظر شرح الحديثين ٧١٣٩، ٧١٤٠ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى".

بأدائها، وإلا فلا سمع ولا طاعة (= لا شرعية) له، وأن الغاية المنشودة فى كل الأحوال هى تحقيق مصلحة البلاد، وهو أمر تتعدد فيه الآراء، ومحال أن يقع فيه الإجماع علـــى رأى واحد وأعتقد أننا بعد عرض وبيان تلك الخطبة النبوية – التى تناثرت أطرافها فى عشرات الأحاديث – قد مهدنا الطريق لفهم قضية تعدد الأحزاب فى الدولة الإسلامية المعاصرة.

* * *

# الباب الأول
# المشروعية

**(١) مفهوم المشروعية:**

"المشروعية" لفظ مشتق من "الشرع" بصيغة "المفعولية" ويعنى عدم مخالفة الشرع، فعندما نقول عن شيء أنه "مشروع"، فإننا نقصد أنه لا يخالف الشرع، بمعنى أنه "مباح" لا تحظره مبادئ وأحكام الشرع، ومن ثم فيجوز ممارسته أو الأخذ به دون الوقوع في "الحرام" الذي يمنعه الشرع.

أما "الشرعية" فلفظ مشتق – أيضاً – من الشرع ولكن بصيغة الفعلية، ويعني موافقة الشرع، أي يوجبه أو يطلبه الشرع، فعندما نقول عن شيء أنه "شرعي" فإننا نقصد أنه يوافق الشرع، بمعنى أنه يستجيب و يحقق مبادئ وأحكام الشرع، ومن ثم فيجب أو يستحب (يفضل) ممارسته أو الأخذ به، فهو – إذن – من الواجبات (= الفروض) أو المستحبات (المندوبات) التي يستحسن الأخذ بها.

هكذا يتبين لنا أن "الشرعية" أعلى درجة من المشروعية على سلمّ الاتفاق أو التطابق مع مبادئ وأحكام الشرع.

وسيتبين لنا – أثناء هذه الدراسة – أن تعدد الأحزاب في الدولة الإسلامية يخرج من نطاق المشروعية إلي دائرة الشرعية، فهو ليس مجرد أمر مباح لا تعارضه مبادئ وأحكام الشرع الإسلامى، بل هو – فى الحقيقة – أمر واجب تفرضه نصوص الشرع الإسلامى وتؤكده حقائق التاريخ.

فما هى مراجع أو أصول الشرع الإسلامى التى ينبغى أن نلجأ إليها من أجل إقرار وتأكيد صحة هذا الأمر؟!

والإجابة: ثلاثة أصول هى:

(١) القرآن الكريم.

(٢) السنة النبوية التى تتمثل في الأحاديث النبوية الصحيحة التى وردت فى مراجع

الحديث الشريف والسيرة النبوية التى تجسم الحكمة القرآنية فى صورة حية مشـــهودة فقد كان (ﷺ) قرآناً يمشى على الأرض. أو كما قالت عائشة (رضي الله عنها): "كـــان خلقـــه القرآن"[٤١].

(٣) سيرة الخلفاء الراشدين الأربعة الذين تولوا حكم الدولة الإسلامية بعد وفـــاة النبى (ﷺ) وهم أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب (رضي الله عنهم).

قال العرباض بن سارية (رضي الله عنه): صلى بنا رسول الله (ﷺ) صلاة الصبح، ثم قام فينا خطيبا، فأقبل علينا بوجهه ووعظنا موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت العيون، فقيل له: يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟

قال (ﷺ): قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك: فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ. و إياكم ومحدثات الأمـــور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة. وعليكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد"[٤٢].

**قوله** (ﷺ): "البيضاء" تشبيه لسنته (ﷺ) بالأرض المضيئة على الـــدوام، واضـــحة المعالم مستقيمة السبل التى يسهل السير فيها على السالك فى الليل – أى عند الفـــتن وغموض الحقائق – لأن القمر ينيرها كما تضيئها الشمس بالنهار.

"الليل" هنا كناية عن زمن الفتن الذى تكثر فيه الشبه والضلالات وتختفـــى فيـــه الحقائق.

فلا يترك سنة الرسول المصطفى (ﷺ) إلاّ من قدر الله (سبحانه وتعالى) عليه الحرمـــان مـــن

---

(٤١) الحديث ٤٨١١ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٤٢) انظر روايات هذا الحديث النبوى فى باب "اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين" بمقدمة الجـــزء الأول مـــن "سنن المصطفى (ﷺ)" لابن ماجه والحديث رقم ٤٤٤٣ فى مختصر ســـنن أبى داود و الحـــديث رقـــم ٤٣٦٩ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

الخلود فى رحمة الله، "لا يزيغ عنها إلا هالك".

والرسول (ﷺ) يتنبأ – هنا – فى هذا الحديث بأن سنته (طريقته) سوف يتخلى عنها الكثير من الحكام (الأئمة) الذين يتولون السلطة السياسية من بعده، فسيرى من يقدر له الحياة إلى ذلك الحين الذى يحدث فيه التغيير "اختلافاً كثيراً" عن السنة (السيرة) النبوية.

ولذلك أمرهم بشدة التمسك بما عرفوا من سنته التى تبينها سيرته حتى لا يزيغوا مع الهالكين.

قوله (ﷺ): "عضوا عليها بالنواجذ" تصوير لشدة الفتن التى سيحدثها الحكام (الخلفاء أو الملوك و الأمراء) الذين سيخالفون سنة رسول الله (ﷺ) فى الحكم (سياسة الأمة وإدارة الدولة) مما يتطلب من المؤمنين الصادقين العض بالنواجذ على ما عرفوا من نهج النبوة. والنواجذ (جمع ناجذ) هى الضروس الخلفية والعض بها على الشيء كناية عن شدة الاستمساك به لعظم القوة التى تحاول انتزاعه.

وحذرهم من التوافق والانسياق وراء أهواء الحكام المخالفين لسنة النبى (ﷺ) الذين سيحدثون البدع المناقضة لمبادئ وأحكام الشرع، لأن ذلك يفضى إلى الضلال المؤدى إلى الهلاك. "وإياكم و محدثات الأمور" التى تخالف أصول السنة النبوية، "فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة".

وقوله (ﷺ): "وإن عبداً حبشياً" يعنى وإن كان الحاكم عليكم عبداً حبشياً، فإن وضاعة أصله (نسبه) فى نظركم لا تبطل شرعيته، أو تدحض فى وجوب طاعته. وقد حاول الفقهاء – الذين قد أساءوا فهم الحديث النبوى القائل بأن الأئمة من قريش كما أسلفنا – تأويل المقصود بالعبد الحبشى المذكور فى هذا الحديث النبوى، بأنه الأمير أو النائب الذى يعينه الخليفة (الإمام)، إذ تعذر عليهم قبول أن يكون الخليفة (الإمام) عبداً حبشياً لتعارض هذا – فى وهمهم – مع وجوب أن يكون الخليفة (الإمام) من قريش. ولكننا نرى – فى ضوء فهم المعنى التاريخى للحديث النبوى – أن

لا مجال لذلك التأويل لأن الحديث النبوى يتكلم عن "الخلفاء" صراحة. ولكنه ميزّ بين "الراشدين المهديين" السائرين على نهج النبوة وبين غيرهم الذين من حقنا أن نصفهم – بموجب نص هذا الحديث النبوى – بأنهم ضالون مضلون.

ومن ثم فقد أوجب رسول الله (ﷺ) علينا اتباع "الخلفاء الراشدين المهديين" من بعده كما أوجب مخالفة غيرهم من الحكام الضالين المضلين وهذه هى دلالة تحذيره القائل "وإياكم".

هكذا نرى فى وضوح أن رسول الله (ﷺ) قد أعطى الأمة حق معارضة الحاكم المخالف لنهج النبوة أو أصول الشرع الإسلامى، وجعل هذه المعارضة (المخالفة) فى مرتبة الواجب الشرعى، وإلا فلا معنى للتحذير الذى تنطق به كلمة "وإياكم" التى تنهى عن الوقوع فى الذنب.

وقوله (ﷺ): "فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد" تصوير لتواضع المؤمن الصادق وتخليه عن الكبر المفضى للتمرد على الحاكم الشرعى الرشيد، فهو يشبّه الجمل الذى وضع الزمام على أنفه فيقوده كل من أمسك بالزمام (= تولى سلطة الحكم) إلى حيث يشاء ما دام كان ذلك فى غير معصية الله (ﷻ) ولرسوله (ﷺ).

ولاشك فى أن هذا الحديث النبوى قد أثار فى الأفئدة سؤالاً صارخاً عن مدة الخلفاء الذين وصفهم (ﷺ) "بالراشدين المهديين"، أو بكلمات أخرى: متى يبدأ التغيير المخالف لنهج النبوة وينتهى زمن الخلافة الراشدة المهدية؟

فقال النبى (ﷺ): "خلافة النبوة: ثلاثون سنة، ثم يؤتى الله الملك من يشاء"[٤٣].

---

(٤٣) الحديث رقم ٤٤٨١، و الحديث رقم ٤٤٨٢ فى مختصر سنن أبى داود للحافظ المنذرى – الجزء السادس. والحديث رقم ٣٣٤١ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته.
وراوى هذا الحديث عن النبى (ﷺ) هو مولاه الملقب بسفينة وكانت كنيته أبو عبد الرحمن.
ولما قال له سعيد بن جمهان الذى روى عنه الحديث: إن هؤلاء (يقصد بنى أمية) يزعمون أن علياً لم يكن بخليفة.
قال سفينة: كذبت أستاه بنى الزرقاء.
أستاه جمع إست وهو العجز أو فتحة الدبر (الشرج) والزرقاء امرأة من أمهات بنى أمية. يشبه سفينة (رضي الله عنه) هذا الإدعاء من بنى أمية بأنه مثل الضرطة التى تخرج من الشرج فلا قيمة لها.

**"الخلافة بعدي فى أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك عضوض بعد ذلك"**[٤٤].

وقد تولى أبو بكر الصديق (ﷺ) الحكم ما يقرب من سنتين، ثم عمر بن الخطاب (ﷺ) عشر سنين، ثم عثمان بن عفان (ﷺ) اثنتى عشرة سنة، ثم على بن أبى طالب (ﷺ) ست سنين. واكتمل بهذا عهد الخلافة الراشدة المهدية على نهج النبوة ليبدأ بمعاوية بن أبى سفيان عهد الملك الذى ينبغى عدم الاقتداء به أو اتخاذه أسوة، ومن ثم، فلا يعد مرجعاً (أصلاً) للتشريع.

جلس رسول الله (ﷺ)، ثم بدا – للجالسين أمامه على وجهه الضيق والأسف كأنما "رأى" شيئاً يكرهه، ثم سمعوه يقول: "أعوذ بالله من إمارة الصبيان".

**فتعجبوا وقالوا: وما إمارة الصبيان؟**

قال (ﷺ): "إن أطعتموهم هلكتم. وإن عصيتموهم أهلكوكم"[٤٥].

ثم قال (ﷺ): يهلك الناس هذا الحى من قريش، **ثم أوضح المقصود فقال: "فساد** هذه الأمة على أيدى غلمة سفهاء من قريش".

قالوا: فما تأمرنا؟ يقصدون عند ظهور ذلك الفساد من هذا الحى من قريش عندما يعتلون سدة الحكم.

قال (ﷺ): "لو أن الناس اعتزلوهم"[٤٦].

---

(٤٤) انظر الحديث رقم ٣٣٤١ فى "صحيح الجامع الصغير و زيادته" الفتح الكبير.

(٤٥) عن أبى هريرة (ﷺ). أخرجه على بن معبد وابن أبى شيبة. انظر شرح الحديث رقم ٧٠٥٨ فى "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" لابن حجر.

(٤٦) صياغة تجمع فى سياق واحد الروايات المختلفة التى أوردها ابن حجر فى شرحه للأحاديث ٣٦٠٤، ٣٦٠٥، ٧٠٥٨ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى".

وقد أخرج البخارى الحديث مرة بلفظ "هلكة أمتى على يدي غلمة من قريش" فى الحديث رقم ٧٠٥٨ ومرة بلفظ "هلاك أمتى...." فى الحديث رقم ٣٦٠٥ ولكننا اخترنا الرواية بلفظ "فساد هذه الأمة" لأنها تفسر معنى الهلاك الوارد فى قوله (ﷺ): "يهلك الناس هذا الحى من قريش (الحديث رقم ٣٦٠٤) ولأن لفظ "أمتى" قد يفهم خطأ على أن المقصود به عموم الأمة الإسلامية إلى قيام الساعة، وليس هذا المراد بالطبع بل المقصود أهل ذلك العصر الذى أعقب وفاته (ﷺ) عند اشتداد الصراع على السلطة و اشتداد حرص معاوية بن أبى سفيان وحزب بنى أمية على الملك و القتال فى سبيله. لذلك رأينا الروايات التى جاءت بلفظ "فساد هذه الأمة" أوضح وأدق.

مرة أخرى يثبت هذا الحديث النبوى الصحيح خطأ الفقهاء فى وهمهم القائل بوجوب أن يكون الخليفة (الإمام) من قريش؛ لأن على أيدى هؤلاء الأئمة الضالون المضلون فسدت أحوال الأمة بنص كلام النبى (ﷺ).

قوله (ﷺ): "الصبيان" و"غلمة" (= جمع غلام) ليس المقصود منه صغار السن، بل الرجال السفهاء الذين ينساقون وراء شهواتهم وأهوائهم كالأطفال ولا يقدرون على ضبط أنفسهم ويغترون بالقوة التى تضعها السلطة فى أيديهم.

وفى التعبير بلفظى "الصبيان" و"غلمة" إشارة أكثر من واضحة لمبدأ التوريث الذى بدأه معاوية بن أبى سفيان، لأن الناس يطلقون على الأبناء لفظ "الصبيان" والغلمة (= الغلمان)(٤٧).

فهذا مبدأ فساد الحكم المفضى إلى فساد (هلاك) الأمة لأنه يصادر على حق الناس (الشعب) فى اختيار من يحكمهم.

وقوله (ﷺ): "إن أطعتموهم هلكتم" يعنى فسدت دنياكم وفسد دينكم لأنهم ينساقون وراء الشهوات والأهواء فلابد أن تفضى بكم طاعتكم لهم إلى فساد دنياكم بالأضرار التى تصيب معيشتكم، لأن ذلك الصنف من الحكام تغويه السلطة النافذة إذا لم يجد من يرده و يقوم اعوجاجه كما قال القرآن الكريم: **(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ)**(٤٨).

كما تفضى طاعتكم لهم إلى فساد دينكم لأنكم لا محالة تقعون فى الخطايا التى تغضب ربكم. فهذا تحذير بليغ من طاعة الحكام الفاسدين.

إذن، هذا القول من النبى (ﷺ): "إن أطعتموهم هلكتم" نهى عن طاعة الحكام الفاسدين، ومن ثم فهو تأسيس لقاعدة المعارضة للحكم الفاسد. إذ من غير المقبول شرعاً ولا عقلاً أن يدعو رسول الله (ﷺ) الناس إلى طاعة ما فيه هلاكهم.

---

(٤٧) انظر على – سبيل المثال – إلى قوله (ﷻ) على لسان زكريا (عليه السلام): (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) الآية ٤٠ من سورة آل عمران.
وقوله (ﷻ) على لسان الملائكة وهم يخاطبون خليله إبراهيم (عليه السلام): (قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ) الآية ٥٣ من سورة الحجرات.
وقوله (ﷻ): على لسان الخضر مخاطباً موسى (عليه السلام): (وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً) الآيه (٨٠) من سورة الكهف.
(٤٨) الآية ٢٠٥ من سورة البقرة.

وقوله (ﷺ): "وإن عصيتموهم أهلكوكم" بيان لجور هؤلاء الحكام وفجورهم، وتحذير من بطشهم. فقال الذين استمعوا إلى هذا الحديث النبوى: فما تأمرنا؟

فأجابهم (ﷺ) – **كما لو كان يتمنى ما يعلم يقيناً من الله** (ﷻ) أنه لن يتحقق– "لو أن الناس اعتزلوهم"، أى لكان خيراً لهم وأولى بهم.

فهذا القول من النبى (ﷺ) دعوة إلى اعتزال الحكام الظالمين. والاعتزال يعنى الكف عن التودد إليهم أو إظهار التأييد لهم، والامتناع عن قبول المناصب فى أجهزة حكمهم، ورفض الاشتراك معهم أو معاونتهم فيما يقومون به من إجراءات ظالمة وعلى رأس كل ذلك رفض القتال معهم فيما يشنونه من حروب غاشمة.

والاعتزال – إذن – هو الدرجة الأولى فى سلم النهى عن المنكر، أعنى الإنكار بالقلب الذى يحفظ الإيمان. وهو الموقف الذى يمثل الحد الأدنى الواجب شرعاً على الناس – أفراداً وجماعات – أن يتخذوه من اجل أن يقاموا الظلم والفساد.

وينبغى أن نقول أن هذا الحديث النبوى الصحيح يشير بقوله (ﷺ): "**هذا** الحى من قريش" وقوله (ﷺ): "غلمة من قريش" إلى بنى أمية. وقد أسر رسول الله (ﷺ) بذلك إلى أبى هريرة (رضي الله عنه) راوى هذا الحديث ولذلك كان (رضي الله عنه) يمشى فى الأسواق ويقول: "أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان".

ويدعو ربه قائلاً: "اللهم لا تدركنى سنة ستين ولا إمامة الصبيان" وقد تولى يزيد ابن معاوية الملك خلفاً لأبيه سنة ستين بعد الهجرة. وقد أجاب الله (ﷻ) دعاء أبى هريرة (رضي الله عنه) فمات عام ٥٩ قبل خلافة يزيد بن معاوية بسنة.

ويحكى سعيد بن عمرو بن أمية أنه جلس فى مسجد رسول الله (ﷺ) فى المدينة المنورة على عهد ملك معاوية بن أبى سفيان: وكان بالمسجد مروان بن الحكم، أميراً على المدينة يحكم باسم معاوية فنطق أبوهريرة (رضي الله عنه) بالحديث النبوى ليسمع مروان بن الحكم فما كان من الأخير إلا أن قال: "لعنة الله عليهم غلمة" يريد أن يبعد الاتهام عنه وعن قومه بنى أمية فقال له أبو هريرة (رضي الله عنه) مهدداً بكشف المقصودين: "لوشئت أن

أقول بنى فلان وبنى فلان لفعلت".

ويحكى عمرو بن يحيي حفيد سعيد بن عمرو – الذى روى الحديث عن أبى هريرة (ﷺ) – أنه خرج مع جده إلى الشام حين صار مروان بن الحكم خليفة للمسلمين، فلما رأى أبناء مروان غلماناً أحداثاً قال: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم فقالوا له: أنت أعلم [٤٩].

ونخلص مما سبق إلى أن نظم الحكم التى أعقبت عهد الخلفاء الراشدين، وابتدأت بملك معاوية بن أبى سفيان عام ٤٠ هـ، لا شرعية ولا مشروعية لها وإننا إذا كنا نريد أن نبحث عن نظام الحكم الشرعى الجدير بدولة تنسب إلى الإسلام، وهل يتضمن ذلك النظام المنشود معارضة منظمة فى هيئة أحزاب سياسية تسعى إلى الحكم أو المشاركة فيه؟، فعلينا أن نرجع إلى القرآن والسنة (السيرة) النبوية، وسنة (سيرة) الخلفاء الراشدين المهديين مع التنبيه والتأكيد على أننا لا نكفر أحداً، لأن الإيمان فى القلب ولا يعلم ما فى القلوب أحد إلا الله (ﷻ).

(٤٩) انظر شرح بن الحجر للحديث رقم ٧٠٥٨ فى "فتح البارى بشرح صحيح البخارى".

**(٢) قيام الدولة (السلطة السياسية) ضرورة إنسانية وفريضة دينية:**

**أ- فى القرآن الكريم**

لا يمكننا الحديث عن شرعية (وجوب) قيام الأحزاب السياسية فى الدولة الإسلامية المعاصرة قبل أن نقر – على نحو قاطع – وجوب قيام الدولة (السلطة السياسية) المعبرة عن سيادة الشعب على أرضه، لأن تعدد الأحزاب السياسية سمة من سمات الدولة أو بالأحرى ثمرة من ثمار نشأة السلطة السياسية.

يقول الله (ﷻ):

**(أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنْ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)**[٥٠].

قوله (ﷻ): **(أَلَمْ تَرَ)** دعوة للتذكر[٥١] وحث على التفكر فى القضية والقصة التى سيعرضها من أجل استخلاص العبر منها، وتلك العبر المنشودة هى الحقائق التى ينبغى على الإنسان اعتبارها و التزام مقتضياتها فى سلوكه دائماً - على مستوى الفرد والجماعة – من أجل أن يحقق السعادة أو الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة.

---

(٥٠) الآيات ٢٤٦ – ٢٤٨ من سورة البقرة.

(٥١) فى التعبير بلفظ "أَلَمْ تَرَ" دلالة على سبق الرؤية، أى وجود رؤية قديمة سابقة غابت وراء ستار النسيان، فجاء الوحى بهذا القرآن للتذكير بها، أى استدعائها (استحضارها) من وراء ستار النسيان.

فما هى القضية والقصة التى ستتناولها الآيات؟

القضية هى نشأة السلطة السياسية فى الجماعة الإنسانية فى لحظة تحولها من القبيلة إلى الدولة. والقصة هى قصة بنى اسرائيل، وهم يعانون هذا التحول التاريخى، بعد أن خرجوا من مصر بقيادة النبى موسى بن عمران (عليه السلام) ونزلوا إلى أرض فلسطين بعد وفاته (عليه السلام)(٥٢). وكانوا حينذاك اثنتى عشرة قبيلة، تأخذ أسماء الأسباط الذين هم أبناء نبى الله يعقوب (عليه السلام) الذى عرف باسم إسرائيل. وقضوا على هذه الحال من القبلية ما يناهز مائتى عام – عرفت باسم عصر القضاة – حيث كان لكل قبيلة منهم زعيم وقاض يحكم فيما شجر بينهم من منازعات.

وفى ذلك العصر تعرضت قبائل بنى إسرائيل لغارات متوالية من جانب الكنعانيين، وسائر سكان الأرض الأصليين وواجهوا هزائم منكرة، فانتهكت حرماتهم، وتم طردهم مرات عديدة من الأراضى التى استوطنوها بل انتهى الذل والهوان بهم إلى أن استطاع أعداؤهم أن ينتزعوا منهم أقدس مقدساتهم، ألا وهو التابوت الذى كانوا يضعون فيه التوراة والآثار التى تركها النبيان العظيمان موسى وهارون مثل: عصا موسى وملابسه.

وأيقن بنو اسرائيل أن عليهم من أجل أن يحفظوا أنفسهم وحرماتهم أن يخرجوا من طور القبيلة وحالة التفرق والتنازع فيما بينهم إلى تكوين كيان أكبر يضم (يجمع) كل قبائلهم، ويؤلف بينهم و يوحدهم فى بنيان اجتماعى جديد، هو الدولة (أو المملكة)

---

(٥٢) يمكن للقارئ مطالعة تاريخ بنى اسرائيل وخروجهم من مصر واستوطانهم أرض فلسطين فى كثير من المراجع، مثل: (١) قصص الأنبياء والتاريخ، الجزء الرابع (موسى و هارون) و الجزء الخامس للأستاذ الدكتور/ رشدى البدراوى.

(٢) دراسات تاريخية من القرآن الكريم – الجزء الثانى (فى مصر) – للأستاذ الدكتور/ محمد بيومى مهران – (دار المعرفة الجامعية – الأسكندرية ١٩٩٥).

(٣) تاريخ الديانة اليهودية – الدكتور محمد خليفة حسن أحمد – دار قباء – القاهرة.

(٤) آرام دمشق وإسرائيل – فى التاريخ و التاريخ التوراتى – فراس السواح - منشورات دار علاء الدين – دمشق ١٩٩٥.

(٥) الحدث التوراتى و الشرق الأدنى القديم – فراس السواح منشورات دار علاء الدين – دمشق – ١٩٩٧.

التى يكون على رأسها "ملك" قائد يدير شئونهم العامة ويكون على رأس الجيش الذى يحاربون به أعداءهم.

ولذلك اجتمع شيوخ الأسباط (القبائل) – الذين وصفهم القرآن الكريم بأنهم "الملأ من بنى اسرائيل" – وذهبوا "لنبى" كان قد أرسله الله (ﷻ) لهم وهو النبى صموئيل الذى يعرف فى كتب التراث الإسلامى باسم السموال أو شمويل، و قالوا له: **(ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)** طلبوا منه أن يختار لهم رجلاً ينصبونه ملكاً عليهم ويدخلون فى سلطانه وتحت قيادته فى الحرب التى لابد أن يدخلوها دفاعاً عن دين الله الذى يحاربون من أجل التخلى عنه، وعن حرماتهم التى تنتهك فى ذلك الصراع.

قوله (ﷻ): **(فِي سَبِيلِ اللَّهِ)**: من أجل الإسلام الذى هو دين الله. ههنا يبين الله (ﷻ) لنا أن نشأة الدولة (السلطة السياسية) التى عبرّ عنها بالملك حاجة ضرورية لازمة لبقاء المجتمع البشرى عند انتقاله من طور القبيلة، فإن الملأ من بنى إسرائيل هم الذين طلبوا تنصيب ملك عليهم، ليكون وسيلة إلى تجمعهم وتوحدهم فى سبيل الدفاع عن وجودهم وحرماتهم على الأرض، التى كتب الله (ﷻ) فى محكم قدره أن يكون الصراع بين الناس هو الدافع لحركة الحياة عليها، منذ أن قال (ﷻ) لنا – ونحن محمولون فى صلب أبينا آدم (عليه السلام) – **(اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)**[٥٣].

وقال (ﷻ):

**(وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ)**[٥٤].

**(وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)**[٥٥].

---

(٥٣) من الآية ٣٦ فى سورة البقرة.

(٥٤) من الآية ٢٥١ فى سورة البقرة.

(٥٥) من الآية ٤٠ فى سورة الحج.

وأجيب طلب الملأ من بنى إسرائيل المعبر عن حاجة البشر إلى السلطة السياسية (الدولة)، (**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا**).

استعمل الله (ﷻ) لفظ "**بَعَثَ**" الذى يستعمله فى التعبير عن إرسال الأنبياء للدلالة على أهمية إقامة الملوك أو الرؤساء فى حياة الأمم.

وعلينا أن نلتفت هنا إلى التمييز (= الفصل) الذى أقامه القرآن الكريم بين السلطة الدينية المتمثلة فى "النبى" والسلطة الدنيوية المتمثلة فى "الملك"، ولذلك فإن الملأ من بنى اسرائيل لم يطلبوا من نبيهم أن يكون هو نفسه ملكاً عليهم، بل طلبوا منه أن يخرج لهم من الناس رجلاً آخر يكون ملكاً عليهم. فأما "النبوة" أو السلطة الدينية فتقوم على اصطفاء (اختيار) الله لمن يتفضل عليه بالوحى. وتتناول الحقائق الثابتة التى لا تتغير فى العلاقة بين المخلوق العبد والخالق المعبود أى العقيدة والعبادة، والمبادئ الأساسية التى ينبغى أن تضبط العلاقة بين الخلق أى الشريعة. كما بين (ﷻ) ذلك بقوله: (**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**)(٥٦).

"الهدى": النور الذى يضئ العلاقة بين الخالق و المخلوق، فهو العقيدة والعبادات.

"دين الحق": قانون العدل الذى يعطى كل مخلوق حقوقه.

وأما الملك أو السلطة الدنيوية فتقوم على اختيار (اصطفاء) الناس لمن يرتضونه ملكاً أو رئيساً أو سلطاناً أو إماماً أو خليفة أو أميراً عليهم. وتتناول ضبط معايش الناس وسياسة (إدارة) شئونهم الدنيوية العامة بالعقل لتحقيق أكبر المنافع وتجنب أخطر الأضرار.

وهو التمييز (الفصل) الذى أشار إليه النبى (ﷺ) بقوله: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"(٥٧). وذلك تعقيباً على قضية تأبير (تلقيح) النخل حيث ظن رسول الله (ﷺ)

---

(٥٦) من الآية ٣٣ فى سورة التوبة والآية ٩ فى سورة الصف.

(٥٧) انظر صحيح مسلم بشرح النووى – الجزء ١٥، صـ ١١٦ – ١١٨ – باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره (ﷺ) من معايش الدنيا على سبيل الرأى.

– بعقله البشرى – أن التلقيح – الذى يعنى إدخال شيء من طلع ذكر النخل فى الأنثى بيد الإنسان – ليس ضرورياً لإنتاج الثمر فقال: "ما أظن يغنى ذلك (= استعمال يد الإنسان فى التلقيح أو التأبير) شيئاً، لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً".

وظن بعض الذين استمعوا إليه، أن هذا القول يعنى أمراً دينياً (شرعياً) صادراً عن النبى رسول الله (ﷺ) فتركوا التأبير. ولما أخبر (ﷺ) قال: "إن كان ينفعهم فليصنعوه". ولكنهم لم يصنعوه، فنفضت[٥٨] أشجار النخل وخرج البلح شيصاً[٥٩].

فلما مر (ﷺ) – بعد ذلك – فى وقت جنى التمر رأى ما أصاب الشجر فقال (ﷺ): "ما لنخلكم؟" يعنى ماذا أصابه. فقالوا له معاتبين قلت..... وذكروه بما قال. فقال: "إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن إذا أمرتكم بشيء من دينكم، (أو إذا حدثتكم عن الله شيئاً) فخذوا به فإنى لن أكذب على الله ولكن إذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر "أنتم أعلم بأمر دناكم" ما تقولون؟ إن كان أمر دنياكم فشأنكم وإن كان أمر دينكم فإلىّ"[٦٠].

فإذا كان رسول الله (ﷺ) قد جمع فى شخصه السلطتين: الدينية القائمة على الوحى الذى لا يخطئ، والدنيوية القائمة على اجتهاد العقل البشرى القابل للخطأ، فإنه (ﷺ) يدعو أصحابه ويدعونا من بعدهم للتمييز بين السلطتين، أعنى التمييز بين النبى الذى يوحى إليه، والحاكم الذى يجتهد برأيه فيما لا وحى فيه ويمكن مناقشته ومراجعته بحثاً عن الصواب.

ورغم أن الملأ من بنى إسرائيل هم الذين طلبوا من نبيهم أن يخرج (= يختار) لهم من بينهم ملكاً يقودهم – تعبيراً عن حاجة البشر إلى السلطة السياسية – فإنهم لم يقابلوا

---

(٥٨) نفضت: أسقطت ثمرها.

(٥٩) شيصاً: ضامراً ناقص النمو رديئاً.

(٦٠) الحديث رقم ٥٦٠١ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) ويمكن للقارئ أن يطالع كتاب (اجتهاد نبى الإسلام)، للأستاذ الدكتور/ عبد الجليل عيسى أبو النصر – دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى وشركاه) – القاهرة ١٣٦٨هـ – ١٩٤٩م وفيه تفاصيل هذه القضية وغيرها مما اجتهد فيه رسول الله (ﷺ) برأيه دون سند من الوحى فكان عرضة للخطأ.

اختياره بالموافقة والإذعان، بل سارعوا برفضه وإعلان الاحتجاج عليه.

**(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً)** وطالوت هو المعروف فى تاريخ بنى إسرائيل باسم "شاؤل".

**(قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنْ الْمَالِ)**.

فرغم أن النبى الذى يوحى إليه من الله (ﷻ) يخبرهم أن الله ذاته (ﷻ) قد اختار لهم طالوت (شاؤل) ملكاً عليهم، فإنهم رفضوا هذا الاختيار، وتساءلوا على سبيل الإنكار: من أين يأتيه الملك؟، بمعنى ما هى الصفات التى تؤهله وتجعله جديراً بالرئاسة علينا – ونحن أكثر استحقاقاً وأجدر بنيل شرف الملك (الإمارة أو الرئاسة) بما لنا من فضل وصفات تؤهلنا لذلك، خاصة كثرة المال **(وَلَمْ يُؤْتَ)** طالوت (شاؤل) سعة من المال لأنه كان راعياً فقيراً من أسرة لم يعرف عنها الغنى.

والحقيقة الإنسانية الخالدة التى ينبهنا القرآن الكريم إليها عبر هذا الحوار هى أن السلطة (الإمارة أو الرئاسة،....) شهوة تسعى نفوس البشر إلى إشباعها، ومن ثم تتولد فى صدور الناس الرغبة فى الصعود إلى سدة الحكم، خاصة أولئك الذين تكون لهم مكانة عالية فى أقوامهم، أى أولئك الذين يحوزون الجاه الذين سماهم القرآن الكريم "الملأ".

ويغذى هذه الرغبة "الكبر" الذى يوسوس لكل إنسان أنه أكبر مكانه من غيره، ولذلك فهو أفضل وأعظم من الآخرين الذين ينبغى عليهم – فى ظنه – أن يخضعوا لأمره.

ومن ثم، فإن ولادة السلطة السياسية فى المجتمع البشرى تقتضى – حتماً – وجود الحاكم الذى ظفربكرسى السلطة، وفى نفس الوقت وجود المعارض الذى كان يرغب فى الحصول على كرسى السلطة ولكنه عجز عن تحقيق رغبته، لأن الحصول على السلطة السياسية هو أحد أهم ميادين التنافس البشرى.

ونفهم إذن أن وجود المعارضة للحاكم، والأحزاب (الجماعات) السياسية التى تتنافس من أجل الحصول على السلطة السياسية أو الجلوس على كرسى الحكم حقيقة أساسية عبرت عن نفسها فى كل المجتمعات البشريه منذ نشأت الدول وحتى يوم الناس هذا، ولكن تختلف النظم الحاكمة فى درجة الاعتراف (الإقرار) بهذه الحقيقة الإنسانية الجوهرية، وفى أسلوب التعامل أو كيفية إدارة الصراع (التنافس) على السلطة، من نظم حكم مستبدة تنكر وجود ذلك الصراع (التنافس) أصلاً، وتعمل على اسكات صوت المعارضة بالقوة أو العنف الذى تتيحه السلطة لها، إلى نظم حكم تعترف بوجود الصراع (التنافس) على السلطة، وتعمل على اقناع الشعب بجدارتها بحمل أمانة الحكم وتجتهد من أجل الحصول على استمرار تأييده وذلك إيماناً بأن الشعب هو واهب الشرعية للحاكم. وهذه هى النظم الشعبية (الديموقراطية) التى تستمد شرعيتها من اختيار الناس لها.

ولم يكن أمام نبى بنى إسرائيل (صموئيل) من سبيل إلا مخاطبة عقول الملأ ومحاولة إقناعهم بجدارة طالوت (شاؤل) بتولى الملك والقيادة فلم يقل لهم مثلاً: إنى آمركم بقبوله ملكاً عليكم، أو إن الله قد اختاره لكم فلا ترفضوا اختيار الله، بل (**قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (٢٤٧)).

(**اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ**): فضله عليكم بالمواهب التى تؤهله للقيادة.

(**وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**): ووسع عليه فى عطاء العقل والجسم أى منحه زيادة كبيرة فى قوة العقل وقوة الجسم. وهذا المعنى عطف على الاصطفاء على سبيل البيان و التفصيل. والحقيقة التى يريد الله (ﷻ) أن ينبه القلوب إليها هى أن قيادة الشعوب تتطلب توفر مجموعة من الخصائص أو المواهب التى تؤهل الشخص لتلك المهمة العظيمة.

فإذا كان أكثر الناس يطلبون الإمارة أو الرئاسة، فإن المؤهلين منهم للقيام بذلك قلة

يجب أن تتوفر فى شخصياتهم المواهب أو الخصائص التى تعينهم على أداء هذه الوظيفة.

وينبعث فى الأفئدة السؤال: ولماذا فضل الله (ﷻ) بعض الناس بمواهب أو خصائص القيادة دون غيرهم؟ **وتأتى الإجابة الإلهية فى قوله** (ﷻ) **على لسان نبيه: (وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ)**.

فإذا كان الله (ﷻ) هو المالك الحقيقى للأشياء يتصرف فيها بموجب حكمته، فإنه (ﷻ) قد تفضل على بعض خلقه بهبة الملك التى تمكنهم من حسن إدارة الناس وقيادتهم وحسن التصرف فى الأشياء. وإيتاء الملك هو فيض اسمه (**مَالِكَ الْمُلْكِ**) (ﷻ).

(**وَاللَّهُ وَاسِعٌ**) قد أحاط بجميع الخلق (**عَلِيمٌ**) بهم يتبين بجلاء تام ظواهرهم (أجسامهم) وبواطنهم (قلوبهم) دون أدنى خفاء.

و لم يكتف نبى بنى اسرائيل بما قدمه من حجج تخاطب العقل بل أعطاهم – بإذن الله (ﷻ) – برهاناً حسياً للتدليل على صدقه وصحة اختيار الله (ﷻ) لطالوت (شاؤل) ملكاً عليهم (**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ**) – الذى كان أعداؤهم الفلسطينيون قد استطاعوا أن ينتزعوه منهم (**فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** (٢٤٨)).

(**سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ**): صحف التوراة التى كتبها موسى بن عمران (عليه السلام) بيده بإملاء روح الله.

"والسَكِينَةُ": نور يقذفه الله (ﷻ) فى قلوب عباده المؤمنين عند اشتداد الفتنة ليبدد الشك و الخوف واليأس، ومن ثم يثبت الإيمان ويمنح الأمن والأمل فى نصر الله ويزيل الغموض برفع الشبهات التى تعترى القلوب فى أزمنة الفتن. وسمى (ﷻ) التوراة (**سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ**) لأنها تمنح المؤمنين بها كل ما ذكرناه. وفى النهاية قبل الملأ من بنى اسرائيل باختيار طالوت (شاؤل) ملكاً.

والمقصود أن نبى بنى اسرائيل لم يدخر جهداً فى إقناع الملأ منهم بأحقية وجدارة من

اختاره الله (ﷻ) بل إن الله (ﷻ) قد أيده بآية مشهودة من أجل الحصول على رضاهم به ملكاً عليهم.

ونخلص مما تقدم إلى أن رضى الناس عمن يحكمهم شرط جوهرى لشرعية سلطته بل هو أساس الشرعية.

ولم يترك القرآن الكريم مجالاً للشك فى وجوب (فرض) إقامة الدولة (السلطة الساسية المعبرة عن سيادة الشعب على أرضه) باعتبارها شرطاً جوهرياً لإقامة الأحكام الشرعية، فلا وجود للشريعة الإسلامية دون وجود السلطة السياسية المكلفة بتحقيقها وإنفاذ أحكامها.

ولننظر إلى قوله (ﷻ): (**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (٦٠))[٦٢].

يحدد مصارف (أوجه انفاق) الصدقات المفروضة (الزكاة) فيجعل من بينها (**الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا**) ومعنى ذلك أن جمع الزكاة وظيفة أساسية من وظائف الدولة الإسلامية، يؤديها جماعة من الموظفين الرسميين المكلفين بجمعها (جبايتها) وتوريدها إلى خزانة الدولة (بيت مال المسلمين).

وقد تكفلت السنة (السيرة) النبوية بإيضاح هذه الطبيعة الرسمية الحكومية للزكاة، بما لا يترك ظلاً من شك فى وجوب قيام سلطة سياسية تجمع الأموال من الناس بقوة القانون المستمد من الشريعة، وتعاقب المخالفين الممتنعين عن الإذعان لمقتضى القانون، وقد وصل العقاب إلى حد اعلان الحرب والقتال، كما حدث فيما سمى تاريخياً بحروب الردة عندما امتنعت بعض قبائل العرب عن دفع الزكاة لسلطة الدولة المركزية فى العاصمة (المدينة المنورة) وكان ذلك تهديداً فعلياً لوحدة الدولة وانذاراً حقيقياً بالردة إلى طور القبيلة.

---

(٦٢) الآية ٦٠ من سورة البقرة.

وقوله (ﷻ): (**وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** (١٨٨))[٦٣].

ينهى المؤمنين عن تقديم الرشاوى إلى "الْحُكَّامِ" بغرض استعمال "سلطة" أولئك الحكام فى اغتصاب بعض أموال الناس بالظلم (بِالإِثْمِ).

وهو نص بالغ الدلالة على وجود سلطة سياسية (دولة) تستطيع فرض إرادتها على الأفراد الخاضعين لحكمها. ويبين أن أول و أخطر مظاهر فساد السلطة الحاكمة هو استغلالها فى الاستيلاء على أموال الناس بالباطل، وهو ما يعنى اعتبار سلطة الحكم وسيلة لجمع الثروة بالطرق المحرمة.

وقوله (ﷻ): (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** (٥٩))[٦٤].

(**وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**): الحكام الذين جاءوا منكم.

فالأمر – هنا – هو الحكم أو السلطة السياسية، وقوله (ﷻ): (**مِنْكُمْ**) دليل على أن أصحاب الحكم، أى الخلفاء أو الأمراء يأتون من عموم الناس، أى أنهم يستمدون شرعية حكمهم من اختيار الناس لهم. والآية تأمر بطاعة الحكام باعتبارهم خلفاء للرسول (ﷺ) فى الحكم، ولذلك عطف طاعتهم على طاعة الرسول (ﷺ) و لم ينشئ للحكام (أولى الأمر) طاعة خاصة، فلم يقل "وَأَطِيعُوا أُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ"!!

ويبين (ﷻ) أن السلطة موضع تنافس محموم بين الناس، ولذلك فإن أوامر الحاكم غالباً ما تواجه بنفور ورفض، خاصة وأن السلطة تغوى الحاكم باستغلالها فى الحصول على الشهوات وتحقيق الأهواء.

ولذلك، فإن النزاع مع الحكام هو القضية الأهم والأولى بالاعتبار فى الحياة

---

(٦٣) الآية ١٨٨ من سورة البقرة.

(٦٤) الآية ٥٩ فى سورة النساء.

السياسية للمجتمع. ولذلك قال (ﷻ): (**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ**) يعنى مع حكامكم (**أُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**) فى شيء أمروا به و لم يلق قبولاً لديكم، فعليكم أن تراجعوا هذا الأمر إلى القرآن الكريم الذى هو كلام الله، وإلى سنة الرسول (ﷺ) وتنظروا بالعقل: هل يوافقهما أم يخالفهما؟ فإن وافقهما فعليكم طاعته؛ لأن ذلك يكون طاعة لله وطاعة للرسول (ﷺ). وإن خالفهما فلا طاعة فى معصية الله والرسول (ﷺ).

وعلينا أن نتدبر فى أن القرآن ينبه القلوب إلى أن قضية النزاع – الذى هو الخلاف المحتدم مع الحكام – هو القضية الأولى التى تثار عند الحديث عن الحكم مما يعد إقراراً واضحاً بحتمية قيام المعارضة السياسية التى لا تعنى أكثر من الاعتراض على القرارات والإجراءات التى يتخذها الحاكم ورفض الإذعان لها. وهذا هو الأصل فى قيام الأحزاب السياسية.

وعلينا أن ننتبه إلى أن الله (ﷻ) يقول لنا من خلال هذه الآية إن مبادئ وأحكام القرآن والسنة النبوية تعلو فوق أوامر الحكام، وهى الحقيقة التى يمكن ترجمتها – فى لغة سياسية معاصرة – بأن مبادئ وأحكام القانون تعلو فوق قرارات وإجراءات الحاكم، لأن كلاً من الحاكم والمحكومين يخضعون لأحكام القانون.

وهذا هو معنى سيادة القانون التى يكمن فيها معنى الدولة، إذ يمكننا تعريف الدولة بأنها الكيان المعبر عن جماعة إنسانية ذات هوية (شخصية) قومية متميزة يخضع فيها جميع الأفراد لقانون عام تعلو سلطته فوق سلطة الفرد الحاكم فيها.

(**ذَلِكَ خَيْرٌ**) لكم فى الدنيا و الآخرة، لأنه يقيكم من الخضوع لأهواء ونزوات الحكام التى تلقى بكم فى المهالك.

(**وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**): و أفضل سبيل لإزالة الخلاف وكشف الشبهات الناشئة عند النزاع بين الحاكم والشعب.

قال أحد أمراء بنى أمية – كما جاء فى مقدمة شرح كتاب الأحكام فى "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" –: "أليس الله أمركم أن تطيعونا فى قوله: (**وَأُوْلِي**

**الأَمْرِ مِنْكُمْ)**".

فقيل له: أليس قد نـــزعت الطاعة منكم إذا خالفتم الحق بقوله: **(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)**.

**ب – فى السنة النبوية:**

لا يشك أي قارئ للسيرة النبوية – مهما كان موقفه من الإسلام كـــدين – فى أن رسول الله (ﷺ) كان يتصرف فى المدينة المنورة (يثرب) بعد هجرته من مكة كحاكم له سلطة سياسية على الأرض والناس الذين يدينون له بالولاء والطاعة. فكـــان (ﷺ) يجمع الأموال (الزكاة) من الناس بقوة القانون، ويرسل الموظفين الرسميين (الحكوميين) فى تلك المهمة ويحاسبهم على ما جمعوه ويعطيهم أجرهم على ذلك، ويشن الحروب، ويعقد عهود الهدنة واتفاقات السلام وحسن الجوار، ويراسل الملوك والأمراء (هرقـــل إمبراطور الروم وملك فارس،....).

كما لا تترك أقوال الرسول (ﷺ) التى جمعها الرواة فى الأحاديث النبوية الصحيحة ظلاً من شك فى وجوب إقامة الدولة التى تضبطها مبادئ وأحكام الشريعة الإســـلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومن ذلك قوله (ﷺ):

**١**– "من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن يطع الأمـــير فقد أطاعنى ومن يعصى الأمير فقد عصانى"(٦٥).

**٢**– "عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثـــرة عليك"(٦٦).

قاله (ﷺ) لأبى هريرة – ولكل مؤمن من بعده – يأمره بالتزام طاعـــة وفى الأمـــر

---

(٦٥) عن أبى هريرة (رضي الله عنه) انظر الحديث رقم ٧١٣٧ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" وانظر كتاب الإمارة فى صحيح مسلم بشرح النووى، و الحديث رقم ٦٠٤٤ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)! وقد ذكر الألبانى أن الحديث قد أخرجه أيضاً أحمد بن حنبل والنسائى وابن ماجه.

(٦٦) عن أبى هريرة (رضي الله عنه) – كتاب الإمارة – صحيح مسلم.

(الحاكم) على الدوام، ولا تتوقف الطاعة على حالة الإنسان المالية أو المزاجية أو الصحية، لأن طاعة الأمير واجبة على كل حال، بل حتى لو شعر الإنسان بأنه لم ينل حقوقه، أو تم تخطيه عند تولية المناصب أو تقسيم العطايا. وهذا هو معنى "أثرة عليك".

**٣**- قال أبو ذر الغفارى (رضي الله عنه): أوصانى خليلى - (يقصد النبى (ﷺ) – أن أسمع وأطيع، وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف[٦٧].

وقالت أم الحصين (جدة يحيي بن حصين راوى الحديث)، حججت مع رسول الله (ﷺ) حجة الوداع، فقال قولاً كثيراً بمنى أو عرفات ثم سمعته يقول: "إن أمر عليكم عبد حبشى أسود مجدع يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا"[٦٨].

مجدع: مبتور، والمقصود مشوه الخلقة.

فى مثل هذا الأحاديث يحذر رسول الله (ﷺ) من أن تكون وضاعة أصل الأمير (عبد حبشي) – فى نظر الآخرين – أو تشوه خلقته (مجدع الأطراف) سبباً فى احتقاره والاستخفاف بأمره، ومن ثم نزع الشرعية عنه ورفض طاعته.

والمعنى المقصود أن كرم الأصل أو النسب أو جمال الصورة ليس من أسباب شرعية تولى السلطة، لأن وظيفة الحاكم إقامة العدل فى الناس والعدل هو مضمون (معنى) شريعة الإسلام التى يحملها كتاب الله (القرآن الكريم). ومن ثم فإن مهمة الحاكم الأصلية قيادة الناس بكتاب الله. وهذا هو المعيار الذى ينبغى التحاكم إليه عند الحكم على أوامر الأمير وتصرفاته، أى هو الميزان الصحيح الذى ينبغى الرجوع إليه عند تقدير الاجراءات التى يتخذها الحاكم. فإن وافقت كتاب الله وجبت طاعتها وإن خالفت كتاب الله كانت من الظلم الذى ينبغى – شرعاً – إنكاره ورفض الإذعان له، أى معارضته بالوسائل التى تبيحها الشريعة وتتيحها الأقدار.

---

(٦٧) المصدر السابق.

(٦٨) نفس المصدر.

٤- "سبعة يظلهم الله فى ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه"(٦٩).

يجعل (ﷺ) الإمام العادل، وهو الحاكم الذى يحكم بالعدل على رأس الداخلين فى رحمة الله (ﷻ) وجعل بذلك – المهمة الأساسية للحاكم هى إقامة العدل.

٥- "إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن – وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم و أهليهم وما ولوا"(٧٠).

٦- "إن الله سائل كل راع عما استرعاه، أحفظ ذلك أم ضيعه؟"(٧١).

---

(٦٩) الحديث رقم ٣٦٠٦ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير). وقد رواه أبو هريرة (ﷺ) و أبو سعيد الخدرى (ﷺ) وأخرجه البخارى ومسلم والنسائى، وأحمد بن حنبل، والترمذى ومالك.

والظل هو ثمرة حضور (= وجود) الأصل فى ضوء الشمس، ويوم القيامة يتحقق فناء جميع الأشياء حين يتجلى الله (ﷻ) فلا يعد لها وجود إلا وجه الله (ﷻ) مصداقاً لقوله (ﷻ) فى القرآن الكريم: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ) الآيتان ٢٦، ٢٧ من سورة الرحمن.

إذن ظل الله (ﷻ) هو وجهه الباقى بعد فناء خلقه، وهو الكائن الأول الذى كان وسيلة لخلق (ظهور) كل شيء، وبه يعرف ويرى الله (ﷻ) ولذلك سمى وجه الله، لأننا نعرف (نميز) الشخص بوجهه.

وإدخال الخلق فى ظل الله كناية عن منحهم الخلود (البقاء الدائم) فى رحمة الله، ومعناه ضمهم إلى وجه الله الذى هو روح الله الذى كانت به الحياة والمعرفة، وكان له البقاء والمجد.

(٧٠) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهى عن إدخال المشقة عليهم. وقوله (ﷺ): "وكلتا يديه يمين" مقصود به النهى عن تشبيه الخالق (ﷻ) بالبشر المخلوقين. ولفظ يمين يدور حول معانى العطاء والجمال والرحمة. والمعنى: وكلتا يديه تفيضان بالنعم وتتصفان بالحسن. وقد صح أن لله الملك الجبار يدين: يمين وشمال. قال رسول الله (ﷺ): يطوى الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟

ثم يطوى الأرضين، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون، أين المتكبرون؟" الحديث رقم ٨١٠١ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) – عن ابن عمر (ﷺ): وهو المعنى الذى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله (ﷻ): (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) الآية ٦٧ من سورة الزمر.

قبضته:صارت فى قبضته، فهى ما يقبض عليه بيده، وإذا صارت الأرض مقبوضاً عليها بيده (ﷻ) لم يعد لها وجود، فلم يبق – إذن – إلاّ قبضته وتلك قبضة يده الشمال (ﷻ)، لأن السَّمَوَاتُ تصبح (مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) فلا يعد لها وجود. فلم يبق إلا هو (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

(٧١) عن أنس بن مالك (ﷺ) – انظر الحديث رقم ١٧٧٤ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) وشرح الحديث رقم ٧١٣٨ فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر.

"ما من عبد يسترعيه الله رعيه يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة. وما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجتهد لهم و ينصح إلا لم يدخل معهم الجنة"(٧٢).

"إن شر الرعاء الحطمة"(٧٣).

"ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"

"فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته"

"والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته"

"والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وهى مسئولة عن رعيتها"

"والخادم راع على مال سيده وهو مسئول عن رعيته"

"والرجل راع على مال أبيه وهو مسئول عن رعيته"

"ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"(٧٤)

"فأعدوا للمسألة جواباً"

قالوا: وما جوابها؟

**قال** (ﷺ): "أعمال البر"(٧٥)

---

(٧٢) عن معقل بن يسار (رضي الله عنه) – أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الإمارة. وقد قال معقل (رضي الله عنه) هذا الحديث النبوى أو بالأحرى هذا الجزء (الطرف) من الحديث النبوى لعبيد الله بن زياد، أحد أمراء بنى أمية الذين عرفوا بالجور والبطش. وذلك عندما جاء هذا الأمير يزور معقل بن يسار (رضي الله عنه) فى المرض الذى توفى فيه. فقال له الأمير: ألا كنت حدثتنى هذا قبل اليوم. يعنى ألم يكن من الأفضل أن تعطنى بهذا الحديث منذ زمن طويل قبل أن أقع فيما وقعت فيه. فقال معقل (رضي الله عنه): لم أكن لأحدثك ولولا أنى فى الموت لم أحدثك به!!

(٧٣) عن عائذ بن عمرو (رضي الله عنه) – وهو واحد من آخر جيل الصحابة. وقاله لنفس الأمير الأموى: عبيد الله بن زياد عندما ذهب إليه واعظاً زاجراً، فقال له: أى بنى إنى سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: "إن شر الرعاء الحطمة" فإياك أن تكون منهم ثم هب واقفاً وهم بالخروج.

فقال له عبيد الله بن زياد مسترضياً راجياً تخفيف غضبه: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد. يعنى من بقايا جيل الذين صاحبوا النبى (ﷺ) فى جهاده من أجل نشر وتثبيت دعائم الإسلام فى الأرض.

فقال عائذ بن عمرو (رضي الله عنه) له موبخاً: "وهل كانت لهم نخالة إنما كانت النخالة بعدهم وفى غيرهم" والنخالة هى ما يتبقى عند طحن الدقيق، فيطرح ولا يؤخذ فهى – هنا – فى كلام عائذ بن عمرو (رضي الله عنه) كناية عن الشيء الردئ الذى لا يعتد به ولا اعتبار له.

(٧٤) نص الحديث النبوى الذى أخرجه البخارى فى ثمانية مواضع فى كتاب صحيحه بروايات (صياغات) مختلفة فأوردوه فى الأحاديث ٨٩٣،٢٤٠٩، ٢٥٥٤، ٢٥٥٨، ٢٧٥١، ٥١٨٨، ٥٢٠٠، ٧١٣٨. و أخرجه مسلم فى عدة روايات فى كتاب الإمارة.

"اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به"(٧٦).

يعين (ﷺ) فى هذه الخطبة النبوية وظيفة الحاكم فى الشعب فيشبهه بالراعى المؤتمن على الإبل أو الأغنام التى سلمها له مالكها ليحفظها ويعتنى بشئونها فيوفر لها ما تحتاج إليه ويجتهد فى إصلاح أحوالها. وهو مسئول أمام الله أولاً، وأمام الناس ثانياً عن أداء هذه الوظيفة (الأمانة) على أكمل وجه يقدر عليه.

فيحذر (ﷺ) الحاكم (الإمام أو الأمير) من غش الناس الذين جعلهم الله (ﷻ) رعيته. ويبين (ﷺ) معنى الغش بأنه نقص الاجتهاد وعدم الإخلاص.

ونقص الاجتهاد يعنى عدم بذل الجهد المستطاع فى تحقيق مصالح العباد. وعلى رأس هذه المصالح إقامة العدل و محاربة الظلم.

وعدم الإخلاص (= فقدان النصيحة) يعنى استغلال قوة السلطة فى تحقيق منافع شخصية للحاكم على حساب المصالح العامة للشعب.

وقوله (ﷺ): "إلا لم يدخل معهم الجنة" معناه تأخير دخول الحاكم – الذى لم يجتهد من أجل تحقيق مصالح الناس و لم يخلص فى عمله – الجنة وحبسه للحساب على الصراط فوق جهنم مدة من الزمن يصيبه فيها من العذاب قدر تقاعسه عن أداء واجبه وعدم اخلاصه. فإن حكم عليه – آخر الأمر – بالغش حرم من دخول الجنة.

وقوله (ﷺ): "إن شر الرعاء الحطمة" يعنى إن أسوأ الحكام (الرعاة) الذى يكون سبباً فى تحطيم رعيته، بمعنى إيذائهم وتدمير مصالحهم وإهلاكهم.

٧- "إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله عز وجل كان له بذلك أجر، وإن يأمر بغيره كان عليه منه وزر"(٧٧).

---

(٧٥) عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) – أورده ابن حجر فى شرح الحديث رقم ٧١٣٨ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" وذكر أن ابن عدى قد أخرجه والطبرانى فى المعجم الأوسط.

(٧٦) عن عائشة (رضي الله عنها): أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة.

(٧٧) عن أبى هريرة (رضي الله عنه) – أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الإمارة – باب الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به.

يبين (ﷺ) أن إقامة الدولة (السلطة السياسية) تحقق وحدة الأمة وتحفظها، و لذلك فإن وجود الإمام (الخليفة أو الأمير) يعد تجسيماً لوحدة الأمة (الشعب) التى تتجلى على أكمل وجه عند قتال الأعداء. ومن ثم فإن الإمام يعد بمثابة درع تتجمع الأمة وراءه وتقاتل أعداءها، وهى محمية به فهو جنة (= حماية أو وقاية) لها يحفظ وحدتها، ويحشد قوتها ويكون سبباً فى وقاية الأمة من المفاسد التى تهدد بنيانها،وذلك بإقامة العدل ومحاربة الظلم. هذا هو تفسير قوله (ﷺ): "ويتقى به" من كل ما يدمر بنيان المجتمع ويفسد حياة الناس، فكما قيل: "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن".

وربما كانت قصة عبد الله بن اللتبية[٧٨] تلخيصاً وافياً لوجوب إقامة الدولة كضرورة إنسانية وفريضة دينية. وهو رجل من الأزد استعمله رسول الله (ﷺ) لجمع صدقات (زكاة) بنى سليم. فلما عاد الرجل بمال الزكاة قسمه قسمين وقال لمن يحاسبه من العاملين على بيت المال: هذا لكم ثم أشار إلى ما اختص به نفسه قائلاً: وهذا لى، هدية أهديت لى.

فاستدعاه رسول الله (ﷺ) وسأله عما فعل، فأعاد الرجل ما قاله فغضب رسول الله (ﷺ) و قال له: "فهلا قعدت فى بيت أبيك أو بيت أمك فتنظر أيهدى إليك أم لا، إن كنت صادقاً". وأمر رسول الله (ﷺ) بضم كل ما جاء به الرجل إلى بيت مال المسلمين، ثم دخل المسجد وصعد المنبر وقام خطيباً والغضب يفيض من وجهه وصوته.

"الحمد لله رب العالمين"

"وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله"

"أما بعد"

"فإنى استعمل الرجل منكم على أمور مما ولانى الله، فما بال العامل نبعثه فيأتى

---

(٧٨) اللتبية: أمه وهى امرأة من بنى لتب، وهم قبيلة من قبائل الأزد الذين هاجروا قديماًمن اليمن إلى شمال الجزيرة العربية، فمنهم بنو نصر بن الأزد الذين سكنوا تهامه وكونوا ما يعرف باسم "ازد شنوءة" ومنهم بنو عمران بن عمرو الذين سكنوا فى عمان، ومنهم خزاعة وهم أبناء حارثة بن عمرو الذين استوطنوا مر الظهران قريباً من الحرم المكى، ومنهم قبيلتا الأوس و الخزرج، وهم جميعاً أبناء حارثة بن ثعلبة بن عمرو من امرأته قيلة.

فيقول هذا مالكم وهذا هدية أهديت لى. أفلا قعد فى بيت أبيه أو بيت أمه حتى تأتيه هديته، إن كان صادقاً".

"من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً"[٧٩] كان غلولاً[٨٠] يأتى به يوم القيامة.

"هدايا العمال غلول"

"تعلمن والله الذى نفس محمد بيده لا يأخذ أحدكم منها شيئاً بغير حقه إلا لقى الله يحمله على رقبته يوم القيامة"

"ألا لا ألقين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء".

"يقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك".

"ألا لا ألقين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة"

"فيقول: يا رسول الله أغثنى"

فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك"

"ألا لا ألقين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته بقرة لها خوار"

"يقول: يا رسول الله أغثنى"

فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك"

"ألا لا ألقين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته شاة تيعر[٨١]، لها ثغاء"

"فيقول: يا رسول الله أغثنى"

"فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك"

"ألا لا ألقين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته نفس[٨٢] لها صياح"

---

(٧٩) مخيطاً: إبرة.

(٨٠) غلولاً: خيانة للأمانة.

(٨١) تيعر: تصيح بصوت عال.

(٨٢) المقصود إن المصدق (= العامل على الزكاة) قد يأخذ عبداً أو جارية هدية أى رشا من أجل أن يتغاضى عن استيفاء حق الصدقة كاملاً.

"فيقول: يا رسول الله أغثنى"

"فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك"

"ألا لا ألقين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته رقاع[٨٣] تخفق"

"فيقول: يا رسول الله أغثنى"

"فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك"

"ألا لا ألقين أحدكم يجئ يوم القيامة على رقبته صامت"[٨٤]

"فيقول: يا رسول الله أغثنى"

"فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك"

ثم رفع رسول الله (ﷺ) يديه إلى السماء حتى رأى أصحابه بياض إبطيه وقال:

اللهم هل بلغت

اللهم هل بلغت

اللهم هل بلغت

فقام رجل[٨٥] فقال: يا رسول الله أقلنى من عملك.

فقال له رسول الله (ﷺ): ومالك؟

يعنى وما الذى يدعوك إلى الاستقالة.

قال الرجل: سمعتك تقول وأعاد بعض ما وعاه من الخطبة.

فقال رسول الله (ﷺ): وأنا أقوله الآن "من استعملناه منكم على عمل فليجئ بقليله وكثيره فما أوتى منه أخذ، وما نهى عنه انتهى"[٨٦].

---

(٨٣) رقاع = أثواب.

(٨٤) صامت = مال ساكت، أى نقود من الذهب أو الفضة.

(٨٥) نعتقد أنه عبد الله بن اللتبية نفسه.

(٨٦) جمعنا هذه القصة من الروايات المختلفة التى أوردها بن حجر فى شرحه للأحاديث ٩٢٥، ١٥٠٠، ٢٥٩٧، ٦٦٣٦، ٦٩٧٩، ٧١٧٤، ٧١٩٧ والروايات التى أوردها الإمام مسلم فى بابين من كتاب الإمارة وهما: باب غلظ تحريم الغلول وباب تحريم هدايا العمال.

وعلينا أن نتذكر الآن أن قبائل الأوس والخزرج والقبائل اليهودية فى يثرب (المدينة المنورة) قد اجتمعت – بعد صراع طويل الأمد عبر حـــروب عديـــدة – واتفقـــت للخروج من حالة الشقاق والقتال على إنشاء مملكة (دولة) تضمهم جميعاً فى نطـــاق جماعة سياسية واحدة، واختاروا عبدالله بن أبى بن سلول ليكون ملكاً عليهم. وكانوا يتهيأون لإنشاء تلك الدولة وتنصيب عبد الله بن أبى بن سلول وإلباسه التاج، عنـــدما دخل بعض أهل يثرب فى دين الإسلام، ثم انتشر الدين الجديد فيهم وعقد وفدهم مع رسول الله (ﷺ) بيعة العقبة التى تعهدوا فيها لرسول الله (ﷺ) بحمايته والـــدفاع عـــن دعوته، فهاجر (ﷺ) إليهم و أقام دولة الإسلام التى حلت مكان مملكة يثرب التى كانوا يزمعون إنشاءها وينظمون الخرز لتتويج ملكها[٨٧].

(٨٧) انظر سيرة النبى لابن هشام – الجزء الثالث.

**(٣) طلب السلطة (الإمارة) حق مشروع للكافة وواجب شرعى على الأكفاء:**

وإذا كانت الدولة (السلطة السياسية) ضرورة إنسانية تشتد الحاجة إليها عند نمو وتطور المجتمعات البشرية، فمن ثم يصبح من المحتوم أن تتولد فى النفوس الرغبة فى الصعود إلى سدة الحكم، أى يصبح طلب الإمارة أو الرئاسة أو الملك أحد البواعث الأساسية التى تحرك السلوك الإنسانى، خاصة فى الأفراد أصحاب الطموح الذين يعتقدون فى أنفسهم الجدارة بقيادة الآخرين.

يقول الله (ﷻ) على لسان إبراهيم (عليه السلام): (**رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**)(٨٨).

حكماً إمامة تقتضى منحى سلطة تمكننى من إقامة شريعتك، التى هى العدل.

إذن، فإبراهيم (عليه السلام) يطلب من الله أن يمنحه القدرة على إقامة العدل – الذى هو شريعة الله الضابطة للعلاقات والمعاملات بين الخلق – على الأرض، وهذه القدرة المنشودة هى السلطان الذى يمكنه من قيادة الناس، وإدارة شئونهم والفصل (الحكم) فى القضايا التى تنشب بينهم بسبب خلافهم وتنازعهم. وفى كلمة واحدة إنه يطلب الإمامة التى تعنى السلطة السياسية أو الدولة التى يناط بها تنظيم حياة الجماعة الإنسانية ومن أهم مظاهرها أو أسس بنائها وجود القضاء (السلطة القضائية) التى تفصل (تحكم) فى المنازعات بين الأفراد والجماعات.

وقد طلب يوسف (عليه السلام) الحكم المتجسم فى الوزارة، سواء كان المنصب المطلوب رئاسة الوزراء أو وزارة المالية عندما قابل الملك إذ: (**قال اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**)(٨٩).

"خزائن الأرض": خزائن مصر، لأن لفظ "الأرض" – هنا – يعنى مصر وهذا من إعجاز القرآن الكريم لأن المصريين القدماء كانوا يسمون وطنهم بلفظ يعنى فى لغتهم

---

(٨٨) سورة الشعراء – الآية ٨٣.

(٨٩) سورة يوسف – سورة الآية ٥٥.

(المصرية القديمة) معنى الأرض[٩٠].

وخزائن مصر هى مصادر ومستودعات الثروة فيها، ومن ثم نفهم أن يوسف (عليه السلام) كان يطلب تولى منصب وزير الاقتصاد أو المالية أو رئاسة الوزراء وهذه كلها مناصب (وظائف) سياسية.

وقد بين (عليه السلام) جدارته بتولى المنصب المنشود بقوله: (**إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**).

"حَفِيظٌ" شديد الحفظ للأمانة التى ستلقى على عاتقى بتدبير معايش الناس.

"عَلِيمٌ": واسع العلم بشئون ودقائق (تفاصيل) العمل المكلف به. فالحفظ يشير إلى الأمانة، أى الصفات الخلقية الواجب توافرها فى كل من يتولى منصباً عاماً يتعلق بإدارة شئون الجماعة.

والعلم يشير إلى الكفاءة التى تعنى القوة اللازمة للقيام بواجبات الوظيفة.

وقد بين الله (سبحانه وتعالى) أنه هيأ يوسف للقيام بهذا العمل بقوله: (**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**)[٩١].

و"حُكْماً": إمامة تعنى قدرة على قيادة الآخرين، وحسن تصرف فى الأمور يقوم على "الفقه" الذى يعنى الوصول إلى المعنى المقصود والحكم الصحيح فى القضية المعروضة على العقل.

إذن، لفظ "الحكم" يتضمن معنى القيادة (= الإمامة) والحكمة وهما الأساس الذى تقوم عليه السلطة السياسية الرشيدة.

وكذلك هيأ (سبحانه وتعالى) كليمه ونبيه موسى (عليه السلام)، كما أخبر فى قوله: (وَلَمَّا بَلَغَ وَاسْتَوَى أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)[٩٢].

---

(٩٠) انظر كتاب: من إعجاز القرآن. العلم الأعجمى مفسراً بالقرآن الكريم - الجزء الثانى – صـ ٢٧ – ٨٢ – تأليف الأستاذ/ رؤوف أبو سعدة – دار الهلال – القاهرة ١٩٩٤.

(٩١) سورة يوسف – الآية ٢٢.

(٩٢) سورة القصص – الآية ١٤.

"بَلَغَ أَشُدَّهُ": وصل إلى أوج نضوجه.

"وَاسْتَوَى": وتهيأ للقيام بالعمل الذى سيكلف به، وهو تلقى وإبلاغ الوحى الإلهى (النبوة والرسالة) وقيادة (إمامة) الآخرين على طريق طاعة الله (ﷻ).

وقد ذكر موسى (عليه السلام) فضل الله عليه فى حواره مع فرعون فقال: **(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُرْسَلِينَ)**[٩٣].

لقد هربت منكم خوفاً من بطشكم، إذ كنت مجرد واحد من أتباعكم الخاضعين لسلطتكم، فمنحنى ربى الإمامة (القيادة) والحكمة وتفضل علىّ بحمل رسالته فصرت واحداً من الذين يكلفهم بإبلاغ رسالاته إلى خلقه.

إذن بمنحى الإمامة (= القيادة) لم أعد خاضعاً – يا فرعون – لسلطانك.

هنا يتحدث موسى (عليه السلام) عن خروجه من سلطان فرعون؛ لأن الله (ﷻ) قد وهبه "حُكْماً"، اى جعله إماماً قائداً لقوم آخرين، هم بنو إسرائيل الذين ينبغى أن يخرجوا من سلطان فرعون – أيضاً – وراء إمامهم وحاكمهم موسى (عليه السلام)؛ لأن الله (ﷻ) أمر فرعون على لسان موسى (عليه السلام) بتحريرهم من الرق (الاستعباد) وإخراجهم من مصر.

ولماذا نذهب بعيداً فى اعماق التاريخ ولدينا "السراج المنير" (ﷺ) وقد طلب بالهجرة من مكة إلى يثرب (المدينة المنورة) "الحكم" ليتمكن من إقامة شريعة الله فى أرض تقوم عليها دولة (سلطة سياسية) تحت رئاسته. وكانت "البيعة"[٩٤] التى عقدها

---

(٩٣) سورة الشعراء – الآية ٢١.

(٩٤) يمكن مراجعة تفاصيل هذه البيعة فى كتب السيرة النبوية – انظر على سبيل المثال كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" – الجزء الثالث – صـ ٢٦٧ – ٣٠٧، وسيرة النبى لابن هشام – الجزء الثانى – صـ ٣٧ – ٦٠.

وعلينا أن نميز بين ثلاث "بيعات" أبرمت بين رسول الله (ﷺ) ورجال آمنوا به من أهل يثرب التى ستعرف بعد ذلك بإسم المدينة المنورة وسيعرفون هم بالأنصار.

البيعة الأولى: عقدت فى نهاية العام الثانى عشر من نزول القرآن الكريم فى موسم الحج، بين رسول الله واثنى عشر رجلاً من أهل يثرب. ونص هذه البيعة هى الحديث الذى رواه عباده بن الصامت (رضي الله عنه) ونثره الإمام البخارى فى عشرة أحاديث فى صحيحه تحت مختلف التراجم (= العناوين) وهى الأحاديث رقم ١٨، ٣٨٩٢، ٣٨٩٣، ٣٩٩٩، ٤٨٩٤، ٦٧٨٤، ٦٨٠١، ٦٨٧٣،٣ ٧٢١، ٧٤٦٨. ونص الحديث فى سياق واحد يقول: قال رسول الله (ﷺ) لهؤلاء الرجال: "تعالوبايعونى". قالوا: يا رسول الله علام نبايعك؟

قال: (ﷺ): أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تنتهبوا، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصونى فى معروف.=

رسول الله (ﷺ) مع وفد من أهل يثرب عند شعب العقبة فى مكة هى الوثيقة المؤسسة للدولة الإسلامية الأولى والتى تعد – فى الحقيقة – تطبيقاً حرفياً مثالياً (نموذجياً) لنظرية العقد الاجتماعى بين الحاكم والشعب. وبإبرام هذه البيعة هاجر رسول الله (ﷺ) من أرض الاستضعاف إلى أرض التمكين ليقيم الدولة الإسلامية. ولا تترك هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية أى ظل من شك فى وجوب طلب الحكم (السلطة السياسية) على كل من هيأه وأعده الله (ﷻ) لحمل هذه الأمانة والقيام بتكاليفها الثقيلة.

ولكن أغلب الناس يظنون فى أنفسهم الجدارة بالحكم، ولذلك يطلب الكثير منهم الإمارة أو الرئاسة، ويتطلعون إلى الجلوس على كرسى السلطة. و لم يكن أصحاب رسول الله (ﷺ) استثناءً من هذا الميل البشرى الفطرى، الذى يعد أحد التجليات لحقيقة استخلاف (= سيادة) الإنسان فى الأرض على مستوى الفرد، ويغذيه فى النفس البشرية الكبر الذى يوحى ويوسوس لكل إنسان أنه أفضل من غيره، ومن ثم ينبغى أن

---

=فمن وفى منكم فأجره على الله. ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له وطهور. ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فأمره إلى الله. إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه وغفر له".

ويمكن تسمية هذه البيعة بميثاق الإيمان.

البيعة الثانية: عقدت فى نهاية السنة الثالثة عشرة من نزول القرآن قبل الهجرة، بعد عام من البيعة الأولى، وكانت بين: يا رسول الله، علام نبايعك؟

قال رسول الله (ﷺ) وبين ثلاث وسبعين رجلاً وامرأتين من أهل يثرب ونصها: قال رسول الله (ﷺ): أتبايعونى؟ قالوا (ﷺ): تبايعوننى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل وعلى النفقة فى العسر واليسر. وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلى أن تقولوا بالحق لا يأخدكم فى الله لومة لائم وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم يثرب، تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة" فبايعوه على ذلك.

وهذه البيعة هى ميثاق إنشاء الدولة الإسلامية الأولى. وعلى أثرها أذن رسول الله (ﷺ) للمؤمنين بالهجرة من مكة إلى المدينة، ثم هاجر بعدهم ليقيم فى المدينة المنورة دولة الإسلام.

انظر صـ ٢٢٧ فى الجزء الثالث من كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد".

البيعة الثالثة: عقدت فى ذى القعدة من العام الثامن بعد الهجرة فى الجعرانة (بين مكة والطائف) عند تقسيم غنائم غزوة حنين، لما أظهر الأنصار سخطهم إذ توهموا أن رسول الله (ﷺ) قد آثر رجال قريش عليهم. وهى البيعة التى يمكن تسميتها ببيعة التنازل عن الحكم لصالح قريش وهى التى سنتناولها الآن فى هذا الفصل.

وللأسف الشديد فقد اختلطت فى أذهان الحفاظ والشراح والكتاب هذه البيعات الثلاث، مما أدى إلى اضطراب شديد فى فهم أحداث السيرة، ولكن تمحيص هذا الأمر يخرج عن نطاق بحثنا الآن.

تكون له الإمامة (القيادة). ولذلك كانت السلطة السياسية أى الوصـــول إلى الحكـــم أحد أهم مجالات التنافس بين الأفراد والجماعات وأشدها تأثيراً فى تاريخ البشر.

قام رسول الله (ﷺ) بقسم نصيبه فى غنائم معركة حنين – ويبلغ بنص القرآن الكريم خمس الغنائم – على المؤلفة قلوبهم من زعماء قريش وغيرهم من أشراف العرب. وظن الأنصار أنه (ﷺ) يجامل أهله وقومه فتغيظوا وسخطوا وعبروا عن ذلك بأقوال، بل وبأشعار حملت شعورهم بالظلم والحزن؛ لأن رسول الله (ﷺ) قد آثر رجال قريش عليهم. فلما بلغ (ﷺ) بما قالوا، أمر سعد بن عبادة (ﷺ) زعيم الخزرج بأن يجمع له الأنصار، فاجتمع بهم وصارحهم بما سمعه، وفسر لهم الباعث على إعطاء زعماء قريش وغيرهم من أشراف العرب.

وسوف نعود إلى هذا الموضوع عندما نتكلم عن شرعية المعارضة السياسية للحاكم.

ولكن ما يعنينا الآن هو أن احد الأنصار قال له حينذاك: يا رسول الله، استعملت فلاناً ولم تستعملنى؟ يشكو من أن رسول الله (ﷺ) قد فضل (آثر) أحد الأشـــخاص بالإمارة وتجاوز الشاكى، ولسان حاله يقول لماذا آثرته على رغم أنه ليس أفضل منى، بل إننى أفضل منه، وإذا كنا – معشر الأنصار – قد رضينا بالحرمان مـــن الغنيمـــة، فلماذا نحرم من الإمارة أيضاً؟

فقال رسول الله (ﷺ) له مخاطباً جماعة الأنصار كلهم: "اصبروا، فـــإنكم ســـتلقون بعدى أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله. أصـــبروا حـــتى تلقـــونى علـــى الحوض... موعدكم الحوض"(٩٦).

لم ينكر رسول الله (ﷺ) على الأنصار طلبهم للإمارة، فهذا حق مشروع (مبـــاح) لهم، ولكنه طلب منهم الصبر على ألم الحرمان مما هو مشروع (مباح) حفاظـــاً علـــى

(٩٦) نص الحديث النبوى الذى تفرقت أجزاؤه فى الروايات التى أخرجها البخارى فى الأحاديث ٣٧٩٢، ٣٧٩٣، ٧٠٥٧.

وحدة الأمة ونـــزعاً لفتيل الفتن المشتعلة التى ستنجم عن الصراع على السلطة. وبـــين (ﷺ) — فى نبوءة باهرة — أن الأنصار سيتعرضون لاضطهاد شديد واغتصاب لحقوقهم واعتداء على حرماتهم على أيدى بنى أمية الذين هم غلمة قريش المفسدون لسنة رسول الله (ﷺ) كما سبق أن بينا.

ودعا رسول الله (ﷺ) الأنصار إلى الصبر حين يلقون من بعـــده **"أثـــرة شـــديدة"** فسمى استئثار ملوك بنى أمية بالحكم، وإساءة استعمالهم للسلطة وجشعهم فى طلـــب حظوظ الدنيا أثرة شديدة، مما يبرهن على بطلان عمل أولئك الحكام ومخالفته لأحكام الشريعة.

وأحس رسول الله (ﷺ) بالخطر الكامن فى تطلع الأنصار للإمارة أو الخلافـــة مـــن بعده فقال لهم: "يا معشر الأنصار، أتبايعونى؟"

فأجابوه: يا رسول الله، علام نبايعك؟

قال (ﷺ): "على السمع والطاعة فى المنشط والمكره والعسر واليسر وأثرة عليكم".

"وألا تنازعوا الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان".

"وأن تقولوا بالحق حيثما كنتم، لا تخافون فى الله لومة لائم".

فبايعوه على ذلك(٩٧).

فى هذه البيعة يطلب رسول الله (ﷺ) من الأنصار التنازل عن حقهـــم الإنســـانى المشروع فى الإمارة (الخلافة) مراعاة لصالح الأمة، الذى يقتضى أن تكون الخلافـــة فى قريش، ويوصيهم بالسمع والطاعة للحاكم فى جميع الأحوال: المنشط والمكره والعسر واليسر، ورغم وجود "أثرة" عليهم. ومن غير المقبول ولا المعقول شـــرعاً أن تكـــون الأثرة على عهده (ﷺ) ومن ثم فهو (ﷺ) يتحدث عن المستقبل الذى يأتى بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

---

(٩٧) هذه هى البيعة الثالثة بين رسول الله (ﷺ) والأنصار. وقد عقدت هذه البيعة فى ذى القعدة من العام الثـــامن بعد الهجرة عند قسم غنائم حنين.

وينهاهم عن منازعة الحكام "وألا تنازعوا الأمر أهله". وهو ما يعنى الامتناع عن محاولة الاستيلاء على السلطة بالقوة، بقتال الحاكم وانتزاع السلطة منه باستثناء الأحوال التى يكون فيها الحاكم آمراً بالخروج على أحكام الشريعة الإسلامية داعياً إلى الكفر بما أنزل الله "إلا أن تروا" - من الحكام – كفراً بواحاً صريحاً واضحاً لا لبس فيه "**عندكم من الله فيه برهان**"، أى لديكم من القرآن الكريم الدليل الدامغ على هذا الكفر الصريح. فى هذه الحالة يباح الخروج على الحاكم ومحاولة انتزاع السلطة من يده بالقوة.

أما ما دون ذلك "الكفر البواح"، فالواجب الشرعى الذى لا مناص من القيام به - إذا أريد بقاء الإسلام - فى جميع الأحوال فهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باللسان. هذا هو مضمون قوله (ﷺ): "وأن تقولوا بالحق حيثما كنتم لا تخافون فى الله لومة لائم".

وسأل عبد الرحمن بن سمرة (رضي الله عنه) رسول الله (ﷺ) أن يجعله أميراً فقال (ﷺ): "**يا عبد الرحمن بن سمرة**، لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة، أعنت عليها"(٩٨).

لا ينهى رسول الله (ﷺ) – هنا – عن طلب الإمارة بمعنى منع الإنسان من التطلع إلى الإمارة باعتباره أمراً محرماً أو مكروهاً، ولكنه (ﷺ) يبين أن الحرص على الإمارة (= الحكم) إنما ينبئ عن طمع الإنسان المتجاوز لحدود الشرع والعقل فى متع الدنيا، وأنه ينظر إلى الحكم باعتباره مغنماً لا أمانة ثقيلة سيسأل عن أدائها ويحاسب عليها حساباً عسيراً.

ولذلك فإن الحرص على الحكم (السلطة السياسية) يعبر عن رغبة محرمة فى تحصيل الشهوات وتحقيق الأهواء المخالفة للشريعة. ومن ثم فإن هذا الحريص على الإمارة لن يظفر بتوفيق الله (ﷻ) الذى يعينه على اداء أمانة الحكم الثقيلة وسيتركه الله (ﷻ)

---

(٩٨) صحيح مسلم – كتاب الإمارة.

لقوته البشرية المحدودة ووسائل سلطته. وهذا هو معنى قوله (ﷺ): "وكلت إليها". وتكون النتيجة النهائية لهذا الحرص على الإمارة الخسران المبين فى الدنيا والآخرة.

وقد أوضح رسول الله (ﷺ) هذا المعنى فى الحديث الذى رواه أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس (رضي الله عنه) قال: أقبلت إلى النبى (ﷺ) ومعى رجلان من الأشعريين من بنى عمى، أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى.

فقال أحد الرجلين: "يا رسول الله، أمرنى على بعض ما ولاك الله". وقال الآخر مثل ذلك.

فقال (ﷺ): ما تقول يا أبا موسى؟

قال أبو موسى: والذى بعثك بالحق ما أبلغانى على ما فى أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل (= الإمارة).

فقال رسول الله (ﷺ): "إنا والله لا نولى على هذا العمل أحداً سأله ولا نستعمل على عملنا أحداً حرص عليه. ولكن أذهب أنت يا عبد الله بن قيس"[٩٩]، فبعثه أميراً على اليمن، ثم أتبعه معاذ بن جبل (رضي الله عنه)

وتكليفه (ﷺ) لأبى موسى الأشعرى (رضي الله عنه) ثم لمعاذ بن جبل (رضي الله عنه) دليل على أن تولى الكفء للإمارة واجب شرعى، إذ لابد للناس من أمير أو حاكم يدير شئون جماعتهم، والشريعة تفرض اختيار الكفء القادر على أداء الأمانة، وهو القوى الأمين.

وطلب أبو ذر الغفارى الإمارة فقال: يا رسول الله ألا تستعملنى؟

فضرب رسول الله (ﷺ) على منكب أبى ذر (رضي الله عنه) برفق وقال له:

"يا أبا ذر إنى أراك ضعيفاً، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم. يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها"[١٠٠].

---

(٩٩) نفس المصدر.

(١٠٠) نفس المصدر.

لقد مدح رسول الله (ﷺ) أبا ذر الغفارى فى أكثر من حديث مثل قوله (ﷺ): **"ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء، من ذى لهجة أصدق من أبى ذر، شبه عيسى ابن مريم"**(١٠١).

"الخضراء": السماء .

"الغبراء": الأرض .

يقول رسول الله (ﷺ) أن أبا ذر الغفارى (رضي الله عنه) من أكثر الناس صدقاً – والصدق آية الإيمان– فهو (رضي الله عنه) من أعظم الناس إيماناً، بل يشبهه بنبى الله عيسى بن مريم، ورغم ذلك رفض (ﷺ) أن يمنحه الإمارة لأنه "**ضعيف**" لا يقدر على حمل تكاليف الحكم، بينما كلف رسول الله (ﷺ) أبا موسى الأشعرى (رضي الله عنه) ومعاذ بن جبل (رضي الله عنه) بالإمارة (الحكم).

والنتيجة النهائية التى نخلص إليها من التأمل فى تلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة هى أن طلب الحكم أمر مشروع (مباح) لا يخالف مبادئ وأحكام الشريعة الإسلامية؛ لأنه يستند إلى باعث فطرى خلقه الله (سبحانه وتعالى) فى نفس الإنسان، عندما حمل الأمانة (الخلافة) ورضى أن يكون سيداً على الأرض.

ولما كانت الأحزاب السياسية فى الدولة المعاصرة تنشأ من أجل الحصول على الحكم، فمن ثم يتبين لنا أن تكوين الأحزاب السياسية أمر مشروع (مباح) لا يخالف مبادئ وأحكام الشريعة الإسلامية، كما جاءت فى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.

وتتجسم لنا هذه الحقيقة الإنسانية عند مطالعتنا مشهد احتضار النبى (ﷺ).

دخل على بن أبى طالب (رضي الله عنه) على رسول الله (ﷺ) وهو فى وجع الموت، ثم خرج من عنده إلى المسجد فابتدره الناس الذين كانوا ينتظرون فى لهفة أى خبر يطمئنهم على قائدهم وإمامهم رسول الله (ﷺ).

---

(١٠١) نص الحديثين رقم ٥٥٣٧، ٥٥٣٨ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير). للألبانى.

فسألوه: كيف أصبح رسول الله؟

فأراد علىّ (ﷺ) أن يبث الطمأنينة فى قلوبهم، وقد رأى الجزع يفيض من وجوههم، فقال: أصبح بحمد الله بارئاً.

وهَمّ بالخروج من المسجد، فقابله عمه العباس بن عبد المطلب، وانتحى به جانباً وهمس إليه – كأنه يلومه على محاولته طمأنة الناس – قائلاً: ألا تراه؟!

"إنى والله لأرى رسول الله يتوفاه الله فى وجعه هذا. وإنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت. وأنت والله بعد ثلاث عبد العصا".

يؤكد له أن رسول الله (ﷺ) سيموت بعد ثلاث ليال، وأنه أي علي سوف يصبح مجرد فرد عادى يخضع لسلطان من يخلف رسول الله (ﷺ) فى الحكم. وقد عبر عن هذا المعنى بكناية جارحة لشعور علي بن أبى طالب (ﷺ) بالسيادة، ليستفزه إلى طلب الخلافة (الإمارة).

ثم قال له: "فاذهب بنا إلى رسول الله، فلنسأله فيمن يكون هذا الأمر من بعده؟ فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان فى غيرنا كلمناه فأوصى بنا".

فقال على (ﷺ) مندهشاً وقد بدأت تتسرب الحيرة إلى قلبه: "وهل يطمع فى هذا الأمر غيرنا؟".

وهو قول يدل على اقتناع علي بن أبى طالب (ﷺ) بأنه الجدير بخلافة رسول الله (ﷺ) باعتباره أحق بنى عبد المطلب – الذى كان سيد العرب بلا منازع – بالحكم، لقرابته من رسول الله (ﷺ) فهو ابن عمه، وزوج ابنته فاطمة التى كانت أحب بنات رسول الله (ﷺ) إلى قلبه ولسبقه فى الإسلام، ولجهاده مع رسول الله (ﷺ) فى القتال من أجل الإسلام ولاستناده إلى بعض الأحاديث النبوية التى نوهت بفضله وبينت علو مكانته،.....

ولكن العباس بن عبد المطلب (ﷺ) كان أكثر خبرة بتوهج شهوة الحكم فى قلوب القادة ذوى الطموح، فأجاب عن سؤال على (ﷺ) بقوله: أظن والله سيكون.....

يعنى سيطلب الخلافة غيرنا، فلم يعد الحكم أو السيادة حكراً على بنى عبد المطلب.

وتأمل على بن أبى طالب (ﷺ) فى الأمر.

ثم قال: إنا والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها، لا يعطيناها الناس بعده أبداً ويحتجون بذلك علينا.

وإنى والله لا أسألها رسول الله أبداً[١٠٢].

لقد زال يقين علي ابن أبى طالب (ﷺ) فى أحقيته بخلافة رسول الله (ﷺ) وأحس أن الأمر سيصبح مثار خلاف ونزاع، فمن ثم فضل أن يترك الباب – أمام طلبه الخلافة – مواربا، فإن سأل رسول الله (ﷺ) الخلافة صراحة، و لم يقبل (ﷺ) أن يمنحها له فقد أغلق الباب أمامه إلى الأبد.

وبعد ما قبض رسول الله (ﷺ) وارتفع إلى الملأ الأعلى، وبينا كان علي بن أبى طالب مع بعض أقارب النبى (ﷺ) يجهزون الجثمان الشريف للدفن، اجتمع الأنصار خاصة من قبيلة الخزرج – التى كانت أكثر أهل يثرب عدداً – فى سقيفة بنى ساعدة[١٠٣]، وقد مالوا إلى اختيار سعد بن عبادة (ﷺ) – زعيم الخزرج – خليفة حاكماً بعد رسول الله (ﷺ) فأحضروه إلى السقيفة، وكان مريضاً فحضر وهو مزمل[١٠٤] يرتجف وشرعوا فى الحديث عن مبايعته خليفة لرسول الله (ﷺ) أميراً على المؤمنين.

وكان أبو بكر الصديق (ﷺ) وعمر بن الخطاب (ﷺ) وأبو عبيدة بن الجراح (ﷺ) وكبار رجال المهاجرين مجتمعين لبحث الأمر. وفى نفس الوقت كان علي أبن أبى طالب (ﷺ) وطلحة بن عبيد الله (ﷺ) وغيرهما من رجال بنى هاشم مجتمعين ينتظرون إتمام دفن الرسول (ﷺ) ويتباحثون فى أمر خلافته.

---

(١٠٢) انظر شرح الحديثين ٤٤٤٧، ٦٢٦٦ فى "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" لابن حجر.

(١٠٣) بنو ساعدة بطن من الأنصار، وسقيفتهم هى النادى الذى كانوا يجتمعون فيه للتشاور فى الأمور العامة التى تهمهم أو للسمر. ولفظ "سقيفة" يعنى مكاناً مسقوفاً، له سقف يستظلون به.

(١٠٤) مزمل: مدثر (ملفوف) فى ثوب يغطى جسمه.

وجاء رجل بعثه أسيد بن حضير الذى صار زعيماً للأوس بعد وفاة سعد بن معـــاذ (ﷺ) إلى أبى بكر (ﷺ) والمجتمعين معه فقال لهم: "إن هذا الحى (يقصد الخزرج) من الأنصار مع سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة، وقد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر (= بحكم) الناس حاجة، فأدركوا الناس (يقصد المجتمعين فى السقيفة) قبل أن يتفـــاقم أمرهم".

فقال عمر بن الخطاب (ﷺ) لأبى بكر (ﷺ): "انطلق بنا إلى إخواننا هـــؤلاء مـــن الأنصار، فانطلق أبو بكر (ﷺ) وعمر بن الخطاب (ﷺ) وأبو عبيدة بن الجراح (ﷺ) ومن معهم من المهاجرين إلى سقيفة بنى ساعدة.

ودخل وفد المهاجرين إلى السقيفة فوجدوا الأنصار من الخزرج مجتمعين حول سعد ابن عبادة (ﷺ). فقام خطيب الأنصار يقول: "الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أما بعد. فنحن أنصار الله، وكتيبة [١٠٥] الإسلام".

"وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا" وقد دفت إلينا دافة من قومكم[١٠٦] وإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويغصبونا الأمر".

يريد أن يقول للمهاجرين إن الأنصار – أهل المدينة المنورة - هم الأصل وأنـــتم – معشر المهاجرين – مجرد فرع منا، وقد جئتمونا مطرودين من مكة، فدخلتم يثـــرب كما يقتحم قوم من البادية قرية من القرى، ثم ها أنتم تريدون أن تغتصـــبوا الحكـــم فتصبح لكم السيادة علينا وعلى المدينة المنورة (يثرب) ونحن أصحابها.

وبلغ الغضب بعمر بن الخطاب (ﷺ) مداه – وكان طوال الطريق يعد فى صـــدره كلمة يقولها تمهيداً لاستمالة الأنصار وإقناعهم بمبايعة أبى بكر الصديق (ﷺ) – فهـــمّ أن يرد على خطيب الأنصار. ولكن أبو بكر الصديق (ﷺ) نهاه قائلاً: على رسلك يا عمر فسيكثر الكلام- إن شاء الله- تعالى ثم سوف تقول بعدي ما بدا لك.

---

(١٠٥) الكتيبة: الجيش أو الفرقة العظيمة من الجيش.

(١٠٦) دفت إلينا دافة من قومكم: أتت إلينا طائفة من قومكم واقتحمت ديارنا.

لقد خشى أبو بكر الصديق (ﷺ) غضب عمر، وما سوف يفضى إليه كلامه – فى حال الغضب والسخط – من إثارة الخلاف والتنازع فى هذه اللحظة الحرجة من تاريخ الأمة. وكان عمر (ﷺ) يخشى أن يقصر أبو بكر عن بعض الكلام فلا يبسط القضية كما ينبغى، ولا ينفس عما فى صدره من الغضب على من يخالف أمر رسول الله (ﷺ) وينازع قريشاً فى الإمامة، ولكنه كره أن يغضب أبا بكر فأذعن وسكت.

وقام أبو بكر الصديق (ﷺ) خطيباً فقال:

"أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله"

"إن الله بعث محمداً بالهدى، ودين الحق، فدعا رسول الله (ﷺ) إلى الإسلام، فأخذ الله بقلوبنا ونواصينا إلى ما دعانا إليه، فكنا- معشر المهاجرين- أول الناس إسلاماً، ونحن عشيرته وأقاربه، وذوو رحمه، فنحن أهل النبوة، وأهل الخلافة، وأوسط الناس أنساباً فى العرب، فليس منا قبيلة إلا لقريش فيها ولادة(١٠٧).

"ولن تعرف العرب، ولا تصلح إلا على رجل من قريش. هم أصبح الناس وجوهاً، وأبسطهم لساناً، وأفضلهم قولاً، فالناس لقريش تبع(١٠٨)، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. وهذا الأمر بيننا وبينكم قسمة إلا بثلمة(١٠٩).

"وأنتم يا معشر الأنصار إخواننا فى كتاب الله، وشركاؤنا فى الدين، وأحب الناس إلينا، وأنتم الذين آووا ونصروا، وأنتم أحق الناس بالرضا بقضاء الله، والتسليم لفضيلة ما أعطى الله إخوانكم من المهاجرين، وأحق الناس ألاّ تحسدوهم على خير آتاهم الله

---

(١٠٧) فى هذا الجزء فى الخطبة يبين أبو بكر الصديق (ﷺ) جدارة قريش بإمامة العرب، فيقول إن أحقيتهم بالقيادة أو الإمارة تستند إلى أنهم القبيلة التى جاء منها رسول الله (ﷺ) والإسلام هو الأساس الذى ستبنى عليه الدولة الجديدة، وقريش هى القبيلة التى تشعبت فى كل القبائل العربية بالمصاهرة، ومن ثم فإنها تستند إلى قاعدة شعبية عريضة فى كافة أنحاء الجزيرة العربية؛ لأن كل العرب يرتبطون بقريش بصلات النسب والولادة.

(١٠٨) يبين (ﷺ) هنا أفضلية قريش لتميزهم بالسمات الجسمية والعقلية التى تؤهلهم للقيادة: جمال الصورة وفصاحة اللسان والفقه الذى يعبر عنه حسن القول.

(١٠٩) يبين (ﷺ) أن قريشاً لن تستبد وتستأثر بالحكم لنفسها فقط، فإذا كان الأمراء (الخلفاء) من قريش فإن الوزراء يكونون من الأنصار. إذن هو (ﷺ) يعرض المشاركة فى السلطة، ومن ثم سيكون الأنصار مساوين لقريش فى الحكم باستثناء شيء صغير عبر عنه بأنه "ثلمة" أى أنه بمثابة شرخ صغير أو شق فى جدار أو كسر فى حافة إناء.

إياه. وأما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل. ولكن لن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً"[١١٠] .

ثم انتهى إلى ما يريد فقال: "وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح". وكان قائماً بينهما، فوضع يديه عليهما، ثم أخذ بيد كل منهما، وهو يقول: (فكلاهما قد رضيته للقيام بهذا الأمر ورأيته أهلاً لذلك).

وكان عمر بن الخطاب (ﷺ) قد أدرك بعد استماعه لخطبة أبى بكر الصديق (ﷺ) أنه قد أجاد عرض القضية بما لا مزيد عليه، و لم يترك كلمة مما كان عمر (ﷺ) يريد أن يقولها إلا جاء بأفضل منها.

ولكنه لم يكره شيئاً مما قاله أبو بكر (ﷺ) إلا العرض الذى تقدم به فى آخر الخطبة باختياره أو أبى عبيدة للخلافة. فكان (ﷺ) كما يقول عن نفسه أنه يفضل أن تضرب عنقه ولا يتأمر على قوم فيهم أبو بكر". فقال: "ما ينبغى لأحد بعد رسول الله (ﷺ) أن يكون فوقك يا أبا بكر. أنت صاحب الغار مع رسول الله (ﷺ) وثانى اثنين، وأمرك رسول الله (ﷺ) حين اشتكى فصليت بالناس، فأنت أحق بهذا الأمر".

فقال رجل من الأنصار: "والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم، وما خلق الله قوماً أحب إلينا، ولا أعز علينا منكم، ولا أرضى عندنا هدياً منكم. ولكنا نشقق بعد اليوم"[١١١] .

"فلو جعلتم اليوم أصلاً منكم، فإذا مات أخذتم رجلاً من الأنصار فجعلناه، فإذا مات أخذنا رجلاً من المهاجرين فجعلناه، فكنا كذلك أبداً ما بقيت هذه الأمة،

---

(١١٠) يستميل (ﷺ) قلوب الأنصار، فذكرهم باخوة الإيمان التى تربطهم بالمهاجرين وتمنع القتال بينهما، واعترف بفضل الأنصار على دين الإسلام، ومدح خلقهم العالى الذى يحول بينهم وبين حسد أخوهم المهاجرين على الفضل الذى اختصهم الله به. وإذا لم يكن لأحد أن ينكر فضل الأنصار على حماية الدعوة الإسلامية فإن ذلك لا يعنى وجوب أن يكون خليفة رسول الله وأمير المؤمنين منهم؛ لأن قبائل العرب لا تعترف إلا بقيادة قريش، بمعنى أن العرب بموجب حقائق التاريخ أميل أو أقل رفضاً لإمامة قريش دون سائر القبائل، ومن ثم ينبغى أن يكون الخليفة (الأمير) من قريش.

(١١١) المعنى: أننا لا نعارض الآن أن يكون الخليفة من قريش ولكن التسليم بهذا اليوم سوف يحرم الأنصار من الإمامة فى المستقبل؛ لأن قريش سوف تحرص على الإستئثار بهذا الفضل لنفسها.

بايعناكم ورضينا بذلك من أمركم، وكان ذلك أجدر أن يشفق القرشى إن زاغ أن ينتفض عليه الأنصارى".

يعرض أن يتبادل المهاجرون والأنصار منصب الخلافة، فإذا رضينا أن يكون الخليفة اليوم من المهاجرين، فمن حقنا أن نختار رجلاً من الأنصار ليكون خليفة بعد أن يموت المهاجرى. وهكذا يستمر الأمر.

فإذا وافق المهاجرون على هذا الرأى تتم المبايعة. وأهم ما يجب أن يلفت نظرنا فى هذا الاقتراح اعتقاده أن وجود منافس يتطلع إلى الحكم سوف يدفع الخليفة القائم إلى أن يحسن وأن يشفق على نفسه من الزيغ؛ لأن فساده سوف يدفع منافسه إلى الانقضاض على السلطة.

وانطلق الحباب بن المنذر (رضي الله عنه)[١١٢] يقول: "أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش"[١١٣].

يقترح تقاسم السلطة فتكون الخلافة فى أميرين: واحد من الأنصار والثانى من قريش.

فلم يملك عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) نفسه من الغضب، فقال مهدداً الأنصار: "لا ينبغى هذا الأمر ولا يصلح إلا لرجل من قريش، ولن ترضى العرب إلا به، ولن تعرف العرب الإمارة إلا له، ولن يصلح إلا عليه، والله لا يخالفنا أحد إلا قتلناه".

فهاج الأنصار وكثرت الأقوال وأوعد بعضهم بعضاً حتى كادت الحرب أن تقع بينهم.

---

(١١٢) هو الذى اقترح على رسول الله (ﷺ) أن يعسكر جيش المسلمين أمام بئر بدر ليتمكن المسلمون من الحصول على الماء أثناء القتال بينما يحرم المشركون. وذلك يوم معركة بدر الكبرى فى رمضان من العام الثانى بعد الهجرة.

(١١٣) جذيلها: جذيل تصغير جذل، وهو أصل الشجرة الذى ينصب للجرباء من الإبل فتحتك به للاستشفاء من الجرب. والتصغير هنا للتعظيم كما جرت أحياناً عادة بلغاء العرب.

والمعنى إننى الحكيم الذى يستشفى برأيه وتحل به المعضلات من المسائل.

وعذيقها: عذيق تصغير عذق وهو النخلة. والتصغير للتعظيم أيضاً.

المرجب: المسور، أى الذى يحاط بسور أو جدار حتى لا يسقط من ثقل ما يحمل من التمر. فالتعبير كناية عن كثرة الجنود والاتباع، أو كناية عن كثرة الآراء لخصوبة الذهن وسعة العلم.

فارتفع صوت أبى بكر الصديق (ﷺ) موجهاً خطابه لسعد بن عبادة (ﷺ): "لقد علمت يا سعد أن رسول الله قال وأنت قاعد: "قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم" يذكر (ﷺ) بحديث رسول الله (ﷺ) يوم فتح فتذكر سعد بن عبادة (ﷺ) وقال: "صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء".

هكذا أقر (ﷺ) بالخلافة لقريش على مضض.

وقام رجل من الأنصار، فقال: تعلمون أن رسول الله (ﷺ) كان من المهاجرين، وخليفته من المهاجرين، ونحن كنا أنصار رسول الله (ﷺ) ونحن أنصار خليفته، كما كنا أنصاره".

يعلن موافقة الأنصار على أن يكون الخليفة من المهاجرين.

وانتهز عمر بن الخطاب الفرصة قبل أن تعود الفتنة لتطل برأسها من جديد، فقال: "صدق قائلكم، أما لو قلتم غير هذا لم نبايعكم". وتوجه إلى أبى بكر الصديق (ﷺ) قائلاً: أبسط يدك يا أبا بكر أبايعك، فبسط أبو بكر يده فبايعه. وأسرع أسيد بن حضير (ﷺ) وهو زعيم الأوس فبايع أبا بكر، وتسابق الأنصار والمهاجرون الحاضرون فى السقيفة على مبايعة أبى بكر (ﷺ).

وكان سعد بن عبادة مضطجعاً مدثراً بثوبه يتوجع. فقال رجل من الأنصار وقد رأى تسابقهم على بيعة أبى بكر الصديق (ﷺ): "اتقوا سعداً لا تطؤوه فثقتلوه".

فقال عمر – ولم يزل فى قلبه بعض الغضب: "قتل الله سعداً فإنه صاحب فتنه"!!

ثم توجه أبو بكر الصديق (ﷺ) إلى المسجد ليحصل على البيعة العامة من المسلمين[١١٤] .

ونكتفى هنا بهذا القدر من تفاصيل مشهد نقل السلطة بعد وفاة رسول الله (ﷺ) وهو القدر الذى يساعدنا على اكتشاف وإقرار الحقائق الإنسانية والدينية الآتية:

---

(١١٤) تراجع تفاصيل خبر سقيفة بنى ساعدة وبيعة أبى بكر الصديق (ﷺ) فى كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" – الجزء الثالث عشر – صـ ٥٠٣ – ٥١٧ .

**الحقيقة الأولى**: إن وجود الدولة (السلطة السياسية) هو الأساس لبقاء المجتمع البشرى الذى تجاوز طور القبيلة، والشرط الجوهرى لاستمراره واستقراره، ولذلك كان سؤال الصحابة (رضوان الله عليهم جميعاً) الأول عند وفاة الرسول (ﷺ) هو من يكون الحاكم (الخليفة) من بعده؟ فلا يوجد مجتمع بشرى يملك ترف الاستغناء عن الإجابة عن سؤال السلطة.

ومن ثم فإن طلب الحكم لا يصبح مجرد حق مشروع مباح لكل من يرى فى نفسه الجدارة بحمل هذه الأمانة، بل إنه- فى الحقيقة – واجب شرعى يفرض نفسه أى تفرضه الشريعة على كل الأكفاء المنوط بهم قيادة وإدارة الأمة؛ ولذلك رأينا كبار صحابة رسول الله (ﷺ) الذين لا يشك عاقل فى إيمانهم وإخلاصهم لرسالة الإسلام مثل أبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبى طالب، والزبير بن العوام، طلحة بن عبيد الله، وسعد بن عبادة، وأبى عبيدة بن الجراح وغيرهم يطلبون الحصول على الحكم؛ لأن القاعدة العقلية والشرعية (الدينية) تقول بوجوب ما لا يقوم الواجب إلا به، فإذا كانت رسالة الشريعة حفظ حرمات وحقوق الناس، ولا تحفظ تلك الحرمات والحقوق إلا بوجود الدولة (السلطة السياسية)، فإن طلب الحكم يصبح واجباً شرعياً لا مناص من القيام به.

ولما كان الناس لا يجتمعون على شيء فى مثل تلك القضية الخلافية بدليل اختلاف كبار الصحابة (رضوان الله عليهم) فيمن يكون الأصلح والأجدر بخلافة رسول الله (ﷺ) فى الحكم، ومن المحال عقلاً أو شرعاً صبهم جميعاً فى قالب واحد أو على رأى واحد، بموجب حقيقة اختلافهم التى عدها الله (ﷻ) إحدى الآيات الكونية الكبرى الدالة على قدرته (ﷻ)[١١٥]، فمن ثم يصبح تعدد الأحزاب السياسية حقيقة إنسانية

---

(١١٥) انظر إلى قوله (ﷻ): (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) سورة الروم الآية ٢٢ .

"واختلاف الألسنة": دليل على اختلاف العقول، لأن اللسان ترجمان العقل. واختلاف العقول يفضى إلى تعدد وجهات النظر، أى تعدد الآراء ومن ثم فلا سبيل إلى صب الناس فى قالب رأى واحد فى أى قضية تحتمل تعدد وجهات النظر مثل قضية الحكم.

وانظر إلى قوله (ﷻ): (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ) سورة الأنعام الاية ٣٥ .

وقوله (ﷻ): (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) سورة يونس الآية ٩٩ .=

فطرية وهذه هى **الحقيقة الثانية** التى يكون من الخطأ عقلياً ودينياً تجاهلها أو الاستهانة بها. كما يكون من الخطر البالغ على بنيان الأمة ووحدتها قهر الناس بمنعهم من التعبير عن اختياراتهم وتفضيلاتهم وإجبارهم على إظهار ما لا يرضون من الأقوال والأفعال. والقهر والإجبار يشكلان خطيئة الإكراه التى حرمها القرآن الكريم والسنة النبوية(١١٦).

ولقد رأينا أن حرية اصحاب النبى (ﷺ) فى التعبير عن اختيارهم (رأيهم) لمن يعتقدون أحقيته وجدارته بالحكم، وإجراء الحوار (الجدال) الصريح بين الآراء (الاختيارات) المختلفة كان السبيل إلى حسن الاختيار الذى أرضى الغالبية(١١٧) ومن ثم وفّر للحاكم القاعدة الشعبية التى تقوم عليها شرعية السلطة السياسية المعبرّ عنها بالبيعة. وهكذا كان التنافس على السلطة سبيلاً للوصول إلى الاختيار الأفضل، أى كان وسيلة إلى إصلاح الأرض إذعاناً واتفاقاً مع سنة التدافع البشرى التى أودعها الله (ﷻ) فى حركة التاريخ وبينها فى قوله (ﷻ): **(وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)**(١١٨).

وقوله (ﷻ): **(وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)**(١١٩).

"دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ": حث الله (ﷻ) الناس وتحفيزهم ليزيح بعضهم بعضاً من مناطق السيادة ودوائر النفوذ. فالدفع يعنى لغة الإزاحة بالقوة، ويعنى واقعاً

---

=والمقصود بيان أنه إذا كان الله (ﷻ) لم يشأ أن يجمع الناس على الإيمان به (جل فى علاه) وترك لهم الاختيار، فتعددت معتقداتهم (= آراءهم) بين الإيمان والتوحيد – على طرف – والكفر والوثيبة على الطرف الآخر، وما بين الطرفين من تنوعات ودرجات، فهل من المعقول أو المقبول دينياً جمعهم على حاكم واحد مهما بلغت عظمته؟!!

(١١٦) انظر كتاب "الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة" – دار القلم للنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠١١م فصل تحريم الإكراه – صـ ٢٠٣- ٢١٤.

(١١٧) من المؤكد أن بعض كبار صحابة النبى (ﷺ) لم يرضوا بخلافة أبى بكر الصديق على الأقل فى بداية الأمر، ولم يقبلوا بما أسفرت عنه سقيفة بنى ساعدة. ومن هؤلاء الزبير بن العوام (ﷺ) وعلي بن أبى طالب (ﷺ) الذى عبر أكثر من مرة عن أن حجج المهاجرين فى جدال سقيفة بنى ساعدة كان ينبغى أن تعطيه هو الحق فى الخلافة.

(١١٨) سورة البقرة: من الآية ٢٥١.

(١١٩) سورة الحج: الآية ١٤٠.

الصراع بين الجماعات والأفراد على متع الحياة الدنيا والعلو فيها.

فإذا كان الصراع عنيفاً بالقوة أو السلاح، فهو القتال بين الأعداء، أما إذا كان سلمياً بغير عنف أوسلاح، فهو التنافس بين الخصوم والمخالفين من أجل الحصول على ما يرغب فيه "الآخرون". ولما كانت السلطة السياسية أو الحكم أحد أهم وأعنف مجالات الصراع بين الناس فى هذه الحياة الدنيا، فمن ثم فإن تحويل هذا الصراع إلى تنافس سلمى غير عنيف لا تستخدم فيه القوة يعد واجباً شرعياً لحفظ الحرمات والحقوق (= الحريات) الإنسانية والحفاظ على وحدة الأمة.

ومن هنا تتجلى أهمية قيام الأحزاب السياسية كوسيلة إنسانية مشروعة ومتفق عليها من أجل الحصول على الحكم باعتبارها الوسيلة التى تحول الصراع على السلطة السياسية إلى تنافس سلمى لا تستخدم فيه القوة فيتحقق الحفاظ على وحدة الأمة، وحفظ الحرمات والحقوق (الحريات) الإنسانية، والحصول على أفضل الاختيارات؛ لأن التنافس بين الناس يؤدى – فى الغالب– إلى أحسن النتائج، فقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله: (**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ**).

فكان دفع بعضهم ببعض سبباً فى الإصلاح، رغم ظاهره المؤلم المفعم بالمتاعب. ولذلك عقب فى نهاية الآية (**وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**) رغم أن أكثر الناس لا يدركون ذلك، لأنهم ينخدعون بالفساد الظاهر أو العذاب المحسوس فى الصراع (الدفع) الواقع بينهم، وتعمى أبصارهم عن رؤية الغاية النهائية التى يهدف إليها هذا الدفع الإلهى، وهى إصلاح الأرض التى جعلها الله (ﷻ) بيتاً للبشر فى هذه الحياة الدنيا.

إذن فإن إصلاح أحوال الناس باختيار الحاكم الأفضل هو **الحقيقة الثالثة** التى يمكننا أن نراها من خلال تنافس الأحزاب السياسية على السلطة كما تبدى لنا من مطالعة مشهد اختلاف كبار صحابة النبى (ﷺ) وخلافهم على من يخلف رسول الله (ﷺ) فى سقيفة بنى ساعدة، وعلينا أن نتذكر – هنا — ما قاله خطيب الأنصار، وهو يعرض

فكرة تناوب المهاجرين والأنصار على منصب الخلافة.

قال: كان ذلك (= الأمر بالتناوب) أجدر أن يشفق القرشى إن زاغ أن ينتقض عليه الأنصارى".

إذن، فهذا بيان واضح بأن الإقرار بتداول السلطة والتنافس عليها سوف يفضى إلى الإحسان فى استعمالها لصالح الناس.

ويمكننا أن نرى – أيضاً – صورة حملات الدعاية السياسية للأحزاب الباحثة عن السلطة فى الخطب التى ألقاها صحابة رسول الله (ﷺ) فى سقيفة بنى ساعدة، حيث تباروا فى بيان فضائل الأحزاب (القبائل) التى ينتمون إليها.

هكذا يتبين لنا أن شرعية تعدد الأحزاب فى الدولة الإسلامية تستند فى ضوء ما قدمناه فى هذا الفصل إلى:

(١) تعبيرها على المستوى السياسى عن حقيقة اختلاف (تنوع) البشر باعتبار أن ذلك آية إلهية تدل على قدرة الله (ﷻ) ومن الضلالة محاولة طمس هذه الآية الإلهية ومنعها من التعبير عن نفسها. ومن ثم يجب النظر إلى الأحزاب السياسية باعتبارها أوعية تحمل وتحتوى آية الله (ﷻ) فى اختلاف الناس على المستوى السياسى.

(٢) اتفاقها مع شريعة الله فى تحريم خطيئة الإكراه (القهر والإجبار) الذى يتحقق فى الحياة السياسية بمنع الناس من اختيار من يحكمهم وإجبارهم على الخضوع لحاكم لا يرضونه.

(٣) كونها وسيلة إلى حفظ الحقوق والحرمات الإنسانية والحفاظ على وحدة الأمة بتحويل التدافع على السلطة من صراع عنيف تستخدم فيه القوة إلى تنافس سلمى يستعمل فيه الجدال (الحوار) وحشد الناس فى فعاليات غير عنيفة.

(٤) كونها وسيلة إلى حسن اختيار الحاكم؛ لأن التنافس يكشف محاسن ومساوئ المتنافسين.

**(٤) شرعية الحكم فى الشريعة الإسلامية:**

ينبغى – فى رأيى – على أى "نظرية" سياسية أن تجيب على ثلاثة أسئلة أساسية:

**(أ) السؤال الأول: ما هو مصدر شرعية السلطة؟**

أى من يحق له الجلوس على كرسى الحكم؟

وإجابة الشريعة الإسلامية كما تتبدى لنا من السنة النبوية هى: البيعة.

وكانت تعنى أن يأتى الأفراد، الذين كانوا فى الغالب ممثلين أو مندوبين عن قبائلهم إلى المدينة المنورة، ويلتقوا رسول الله (ﷺ) ليعلنوا له بين يديه عن رضائهم بالدخول تحت سلطته ويصافحوه إظهارا وتأكيداً لهذا الرضى. ومن ثم فقد كان هذا العمل (= البيعة) تعبيراً عن اختياره (ﷺ) حاكماً عليهم. وغنى عن البيان أن البيعة لم تكن تعنى اختياره نبياً رسولاً؛ لأن النبوة والرسالة اصطفاء إلهى لا يؤخذ رأى الناس فيه، ولكنها كانت تعنى قبولهم الدخول فى السلطة السياسية الدنيوية لهذا النبى الرسول (ﷺ)، سواء آمنوا به نبياً رسولاً أم لا، بدليل أن الأعراب الذين ذكرهم الله فى سورة الحجرات جاءوا وبايعوا الرسول (ﷺ) فى بداية العام التاسع الهجرى "وأعلنوا إيمانهم" بالرسول (ﷺ)، ولكن الله (ﷻ) أعلن على الملأ عدم إيمانهم، فقال: **(قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)**[١٢٠] .

فقد أنكر (ﷻ) إيمانهم بقوله: **(قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا)** ولكنه (ﷻ) أقر لهم بالإسلام بقوله: **(وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)** فما معنى الإسلام هنا؟ ما معنى إسلامهم؟

معناه قبولهم الخضوع لأحكام الشريعة الإسلامية التى جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية والتى تعد قوانين الدولة (السلطة السياسية) التى يحكمها رسول الله (ﷺ) ومن ثم فإن معنى إسلامهم – هنا – قبولهم الخضوع لسلطة رسول الله (ﷺ) الدنيوية كرئيس للدولة التى ارتضوا أن يكونوا مواطنين فيها، دون أن يؤمنوا به (ﷺ) – فى الحقيقة –

---

(١٢٠) سورة الحجرات: الآية ١٤.

نبياً بعثه الله (ﷻ) رسولاً إلى الناس.

وكذلك جاء وفد نصارى نجران، فى نهاية العام التاسع من الهجرة وجادلوا رسول الله (ﷺ) و لم يؤمنوا به، ونزل صدر سورة آل عمران عليه (ﷺ) وهو يجادلهم ومع ذلك بايعوه حاكماً وطلبوا منه أن يعين من صحابته رجلاً صالحاً يكون أميراً عليهم(١٢١).

وعلينا أن نلاحظ أن لفظ "البيعة" لم يبدأ ظهوره فى السيرة النبوية إلا عند قدوم بعض الأفراد من يثرب (المدينة المنورة) إلى مكة قبل الهجرة بحوالى عامين – والتقوا رسول الله (ﷺ) وآمنوا به، ثم "بايعوه" على أن يضمنوا له حمايته عندما يهاجر من بلده مكة ويقيم فى يثرب، أى عندما شرع (ﷺ) فى إنشاء الدولة التى يتمكن فيها من إقامة شريعة الله.

وعلينا ان نلاحظ أيضاً أن لفظ "البيعة" هو الذى استخدم للتعبير عن تأييد الرجل الذى يختاره الناس خليفة لرسول الله (ﷺ) فى الحكم، مما يزيل أى التباس يحوم حول المغزى السياسى الذى يشير إليه هذا اللفظ(١٢٢) .

والبيعة لفظ يدل – فى الأصل – على عقد البيع الذى تنتقل فيه ملكية شيء من إنسان إلى آخر، مقابل ثمن يدفعه الطرف الثانى للأول. ونفهم – إذن – من استعماله فى ميدان السياسة أن ثمة عقداً يبرم بين المحكومين (الشعب أو الرعية) والحاكم (الأمير أو الرئيس) عندما يقومون باختياره، ويترتب على هذا العقد حقوق لكل طرف على الآخر. ويمكن تلخيص مضمون هذا العقد بأن للحاكم (الأمير أو الرئيس) حق الطاعة على المحكومين نظير أن يقوم الحاكم بتحقيق العدل، الذى يثمر الأمن ويوفر شروط الحياة الطيبة.

إذن، فالبيعة تتضمن مفهوم "العقد الاجتماعى" الذى نادى به فلاسفة الغرب فى

---

(١٢١) تراجع تفاصيل وفد نصارى نجران فى كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" – الجزء السادس – صـ ٦٤٠.

(١٢٢) انظر باب البيعة فى كتابنا "الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة" – صـ ٥٢٩ – ٥٤٠.

العصر الحديث كأساس لقيام الدولة[١٢٣].

وغنى عن البيان أن البيعة تقتضى أن الناس هم الذين يختارون من يحكمهم، ومن ثم فالشعب هو مصدر شرعية السلطة الحاكمة، ولا يحق لأحد أن يدعى أنه الحاكم الشرعى الذى ينبغى أن يدين له الناس بالطاعة إلا إذا حصل على رضائهم به حاكماً عليهم، أى أنهم قد "بايعوه".

وإذا كان من المحال – عقلاً وواقعاً – أن ينال إنسان إجماع الناس كلهم فى أى شعب من الشعوب على قبوله واختياره حاكماً عليهم، فإن من يظفر برضى أو "بيعة" أغلب الناس هو من تتحقق له شرعية السلطة.

وعلينا أن نتذكر – هنا – أن رسول الله (ﷺ) نفسه، والخلفاء الراشدين المهديين من بعده واجهوا معارضة فى عهود حكمهم، ولم يحصلوا على إجماع تام لا تشوبه شائبة، وهذا هو جوهر الديموقراطية وخلاصتها.

والأحزاب السياسية فى الدولة المعاصرة تعد – فى الحقيقة – المدارس التى يتعلم فيها الناس السياسة ويمارسونها، وتتشكل فيها آراءهم فى شئون الحكم.

ولذلك يجب النظر إلى الأحزاب السياسية باعتبارها وسيلة تتحقق بها "البيعة الشرعية"، فعندما يعلن حزب من الأحزاب عن تأييده لأحد المرشحين لرئاسة الدولة

---

(١٢٣) يراجع مفهوم نظرية العقد الاجتماعى وغيرها من النظريات التى حاولت تفسير نشأة الدولة فى مراجع العلوم السياسية مثل:

- النظم السياسية والقانون الدستورى – تأليف الدكتور/ فؤاد العطار – دار النهضة العربية – القاهرة ١٩٧٤.
- فى النظام السياسى للدولة الإسلامية – تأليف الدكتور/ محمد سليم العوا – المكتب المصرى الحديث – القاهرة – طبعة ثانية ١٩٧٩م.
- نظرية الدولة والمبادئ العامة للأنظمة السياسية ونظم الحكم – تأليف دكتور/ طعيمة الحرف – مكتبة القاهرة الحديثة – القاهرة ١٩٧٣.
- الأنظمة السياسية المعاصرة – تأليف الدكتور/ يحيى الجمل – دار الشروق.
- النظم السياسية – الدولة والحكومة – تأليف الدكتور/ محمد كامل ليلة – دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٦٧.
- السلطات الثلاث فى الدساتير العربية المعاصرة وفى الفكر السياسى الإسلامى – تأليف الدكتور / سليمان الطماوى – دار الفكر العربى – طبعة رابعة ١٩٧٩م.
- القانون الدستورى والأنظمة السياسية – تأليف الدكتور/ عبد الحميد متولى – دار المعارف – القاهرة ١٩٦٦.

أو رئاسة الحكومة فإننا – فى الحقيقة – نكون بإزاء صورة معاصرة لما كان يحدث فى عهد النبوة والخلافة الراشدة عندما تعلن قبيلة من القبائل على لسان وفدها عن مبايعتها للرسول (ﷺ) أو من اختير لخلافته.

**(ب) السؤال الثانى: ما هى الوظيفة الأساسية للدولة؟**

أى ما هى المهمة الجوهرية التى ينبغى أن يقوم بها الحاكم؟

وإجابة الشريعة الإسلامية: العدل(١٢٤).

لقد جعل القرآن الكريم "العدل" شعاراً للأمة الإسلامية ورسالتها فى التاريخ الإنسانى.

قال الله (ﷻ) مخاطباً الأمة الإسلامية:

**(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)**(١٢٥).

" أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ": أمرناها بالخروج للناس. فهذا أمر للأمة الإسلامية بالخروج – من حدود أوطانها – إلى بقية الأرض لتدعو الناس إلى رسالة الإسلام.

هذا – إذن – أمر تكليف الأمة الإسلامية بدعوة سائر الأمم. فما هو مضمون هذه الرسالة المطلوب نشرها فى الناس؟

والإجابة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وجاء التكليف الإلهى للأمة الإسلامية واضحاً فى قوله (ﷻ): **(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)**(١٢٦).

"الْخَيْرِ": نفع الغير، وأساس ذلك الإيمان بالله فهو أصل كل خير (= نفع)، يمكن

---

(١٢٤) انظر باب العدل فى كتابنا "الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة". صـ ٥٥٣ – ٥٧١ دار القلم – ٣٦ شارع القصر العينى – القاهرة ٢٠١١م.

(١٢٥) سورة آل عمران: من الآية (١١٠).

(١٢٦) سورة آل عمران: الآية (١٠٤).

أن يحصل عليه الإنسان.

والسؤال: ما هو المعروف الذى يجب الأمر به؟ وماهو المنكر الذى يجب النهى عنه؟

والإجابة يمنحها لنا رسول الله (ﷺ) عندما سئل عن تفسير قول الله (ﷻ): (**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**)[١٢٧] .

فقال (ﷺ): "إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك أن يعمهم الله بعقابه"[١٢٨].

فسئل عن معنى المنكر ومعنى تغييره فقال (ﷺ): "إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم الله بعقاب منه"[١٢٩].

هكذا فسر رسول الله (ﷺ) المنكر بأنه الظلم، ومن ثم فإن المعروف – نقيض المنكر – هو العدل. ورسالة الأمة الإسلامية – بناءً على هذا التفسير النبوى – هى الدعوة إلى تحقيق العدل (= الأمر بالمعروف) ومقاومة الظلم (= النهى عن المنكر).

ولذلك أمر رسول الله (ﷺ) كل فرد من الأمة الإسلامية بمقاومة الظلم قدر استطاعته إذ (**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**)[١٣٠] فقال: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"[١٣١].

"بيده": بعمله فيما يملك التصرف فيه من أشياء، أى فيما يقع تحت سلطانه.

"بلسانه": بكلامه سواء اتخذ صورة خطبة، أو مقالة فى جريدة، أو حديثاً فى وسيلة إعلامية مسموعة أو مرئية، أو بحثاً فى كتاب، أو.....

"بقلبه": بنفور القلب من الظلم المفضى إلى اعتزال الظالم والامتناع عن مخالطته

---

(١٢٧) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

(١٢٨) الحديث رقم ١٩٧٤ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادة" (الفتح الكبير) للألبانى – عن أبى بكر الصديق (رضي الله عنه).

(١٢٩) الحديث رقم ١٩٧٣ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) للألبانى – عن أبى بكر الصديق أيضاً مما يدل على أن هذا الحديث كان تفسيراً للحديث السابق.

(١٣٠) سورة البقرة: من الآية ٢٨٦

(١٣١) الحديث رقم ٦٢٥٠ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

ومشاركته فضلاً عن تملقه أو التودد إليه.

والسؤال: أنىّ يأتى الظلم (المنكر)؟

والإجابة: من كل ذى سلطة، أى من الحاكم الذى تضع السلطة بين يديه القدرة على البطش وتحقيق الأهواء وإشباع النزوات.

ولذلك قال (ﷺ): "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"[١٣٢].

**حق = عدل**

وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تتأسس شرعية تعدد الأحزاب السياسية، لأن تعدد الأحزاب لا يعنى - بكل بساطة ووضوح – إلا وجود حزب حاكم فى مقابل أحزاب معارضة. ومن بيده الحكم يكون عرضة دائماً لارتكاب الظلم بغواية السلطة، ومن ثم ينبغى شرعاً نهيه عن الظلم. والأحزاب السياسية المعارضة تكون من أقدر الهيئات الاجتماعية للقيام بهذا العمل الذى يعد تكليفاً دينياً تفرضه الشريعة الإسلامية كما جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.

إذن، يجب النظر إلى تعدد الأحزاب السياسية فى الدولة المعاصرة باعتباره وسيلة قوية لتحقيق العدل ومقاومة الظلم.

**(جـ) السؤال الثالث: كيف يدير الحاكم شئون البلاد؟**

كيف يدير الأمور العامة التى تهم الأمة؟

وإجابة الشريعة الإسلامية: بالشورى[١٣٣].

ومعناها إجراء حوار ومناقشة وتبادل للآراء بين الحاكم (الأمير) والمحكومين (الرعية أو الشعب) فى الأمور العامة التى تهمهم، والتى من أجلها قد وكلوه أو أنابوه لإدارتها على النحو الذى يحقق مصالحهم، ويمنع الأضرار عنهم قدر المستطاع، فلا يصح أن ينفرد الحاكم باتخاذ القرار فى أى شأن عام يهم الشعب الذى يحكمه.

---

(١٣٢) الحديث رقم ١١٠٠ فى المصدر نفسه.

(١٣٣) انظر باب الشورى فى كتابنا "الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة". صـ ٥٧٢ – ٥٨٢.

الشورى – إذن – هى نقيض الاستبداد، الذى يعنى انفراد الحاكم وحده باتخاذ القرار فى الأمور العامة دون أن يرجع إلى الشعب الذى منحه السلطة بالبيعة.

وقد جاء الأمر بالشورى صريحاً فى القرآن الكريم وهو يخاطب رسول الله (ﷺ) باعتباره حاكماً للمسلمين أو أميراً للمؤمنين: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)**(١٣٤).

علينا ان ننتبه – أولاً – إلى ان القرآن الكريم يقدم فى هذه الآية الصفة الخلقية الجوهرية التى ينبغى على الحاكم الرشيد أن يتحلى بها ألا وهى التواضع الذى يمنعه من الشعور بأنه أعلى من الرعية الذين يحمكهم، ويثمر فى قلبه الإحساس بأنهم إخوته الذين وضعهم الله (ﷻ) تحت سلطانه بموجب الابتلاء الذى أدخلتهم فيه – هو والرعية – الإرادة الإلهية. ومن ثم فهو يتعبد إلى الله (جل فى علاه) بخدمة الرعية والتودد إليهم بتوفير منافعهم وتجنيبهم الأضرار. وخلاصة كل ذلك تكمن فى صفة "لين الجانب".

ومن ثم فإن الصفة المذمومة التى ينبغى أن يتخلى عنها الحاكم هى "الكبر" الذى يوهمه أنه فوق رعيته، فيكتسب قلبه الغلظة وسلوكه الفظاظة.

"فظاً": متكبراً متعالياً على الاخرين يسئ معاملتهم.

"غليظ القلب": جامد القلب، لا يتأثر بما يصيب الآخرين من أحوال، فلا يشاركهم أحزانهم وأخراجهم. واللين نقيض الغلظة، فلين القلب يتأثر باحوال الآخرين ويشاركهم أحزانهم وأفراحهم. وغلظة القلب والفظاظة ثمرتان خبيثتان من ثمار الكبر، وتفضيان إلى نفور الآخرين من الإنسان المتكبر. وهكذا ينفض الناس من حول الحاكم المتعالى ويتبادلون معه البغض. أما الحاكم الرشيد فهو أحرص الناس على التفاف الرعية حوله برباط الألفة، لأن ذلك ييسر عليهم طاعته، فيسير دولاب العمل فى الدولة على أحسن وجه.

---

(١٣٤) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

ولين القلب المؤدى إلى رقة المشاعر وحسن الخلق (= إحسان معاملة الآخرين) هو ثمرة رحمة الله التى نـــزلت فى القلب، فولا رحمة من الله نـــزلت وأودعت قلب نبيـــه ورسوله (ﷺ) ما كان يمكنه أن يكون لين القلب. فرحمة الله هى الينبوع الوحيد لرقـــة الشعور وحسن الخلق. وأشار إلى هذا المعنى بحرف **"ما"** – فى قوله: **(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِـــنْ اللَّهِ)** – الذى قال عنه المفسرون والنحويون أنه زائد لأن المعنى المقصود – بزعمهم-: "فبرحمة من الله لنت لهم" وهذا – فى رأيى – من إساءة الأدب فى التعامل مع الـــنص القرآنى المعجز.

ثم أمر الله (ﷻ) نبيه (ﷺ) بإعتباره حاكماً أو أميراً للمؤمنين بعدة أمور:

١- العفو – فى قوله (ﷻ): **(فَاعْفُ عَنْهُمْ)**.

والعفو هو التنازل طوعاً عن حقك فى عقوبة من اعتدى عليك أو أساء إليك، فلا تعاقب من أخطأ فى حقك رغبةً فى إبقاء المودة بينكما. وهذا الخلق هو أول ثمار لـــين القلب وأشد ما يحتاج الحاكم إليه ليحفظ الألفة بينه وبين الرعية. وقد كان رسول الله (ﷺ) لا يغضب لنفسه أبداً، ولكن كان يشتد غضبه إذا انتهكت محارم الله التى هى – فى الحقيقة – حرمات الإنسان وحقوقه.

٢- الاستغفار لرعيته المؤمنين فى قوله (ﷻ): **(وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ)**.

والاستغفار هو الدعاء إلى الله أن يمحو أثر الذنوب، فلا يصيب العبد منها شيء من الأذى، فتصبح كأنها لم تكن، فلا يبقى فى نفس الله (ﷻ) بسببها شيء من الغضـــب على العبد، وتستر أو تحجب يوم القيامة فى كتاب (صحيفة) الأعمال، فلا تـــرى. ولا يمكن أن يكون الدعاء مقبولاً مثمراً إجابة الله (ﷻ) إلا إذا كان صادراً عـــن قلـــب مخلص فى طلب الرحمة.

ومعنى هذا الأمر الإلهى وجوب أن يرتبط الحاكم مع رعيته برباط الحب الصـــادق. وهو المعنى الذى وضحه رسول الله (ﷺ) بقوله: "خيـــار أئمـــتكم الـــذين تحبـــونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون علـــيهم. وشـــرار أئمـــتكم الـــذين تبغضـــونهم

ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم"[١٣٥].

يصلون عليكم: يدعون لكم برحمة الله (ﷻ).

وتصلون عليهم: تدعون لهم برحمة الله (ﷻ).

تلعنونهم: تطلبون نـــزول غضب الله عليهم.

يلعنونكم: يطلبون نـــزول غضب الله عليكم.

٣- التشاور مع الرعية فى قوله (ﷻ): (**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**).

يأمره بإجراء حوار مع الرعية فى الأمر العام الذى يهمهم جميعاً. إذن، فـــلا يجـــب على الرسول (ﷺ) وكل حاكم من بعده اتخاذ قرار فى أى شأن يهم الأمـــة إلا بعـــد مناقشة الأمر مع من يمثل الأمة، أعنى مع الأفراد الذين يمثلون الجماعات المختلفة الـــتى تكون جسد الأمة، إذ من المحال – عقلاً – أن يقوم الحاكم بتبادل الرأى مـــع جميـــع أفراد الشعب فى أى قضية تهم الناس وتؤثر على حاضرهم ومستقبلهم.

وهدف هذا الحوار (الجدال) المنشود البحث عن أفضل الوسائل لمواجهـــة الأمـــر المعروض على النقاش، من أجل تحقيق أكبر المنافع وتجنب أكثر الأضرار التى يمكـــن أن تصيب الأمة.

وعلينا الآن الانتباه إلى ثلاث حقائق:

**الأولى**: أن الله (ﷻ) قد ربط بين الشورى (التشاور فى الأمر) وبين اتخاذ القـــرار فقال: (**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَـــوَكِّلِينَ**) فربط بين التشاور والعزم بحرف الفاء الذى يدل على التعاقب الزمنى والمنطقى (العقلى) بمعنى أن العزم يعد نتيجة أو ثمرة للتشاور فهو – إذن – يقع بعد الشورى ويتأســـس عليها.

"والعزم": استجماع الإرادة للقيام بالأمر الواجب بمقاومة اغـــراءات التقـــاعس أو

---

(١٣٥) جزء من حديث رسول الله (ﷺ) الذى رواه عوف بن مالك الأشجعى – انظر صحيح مسلم – كتـــاب الإمارة.

كف (= كبح) بواعث القعود. إذن فهو مرحلة تسبق وتمهد للقيام بالعمل عند جمع الإرادة لتنفيذه [١٣٥].

**الثانية:** أن الأمر بالشورى جاء فى سياق مجموعة من الأوامر الإلهية التى من المحال توهم أنها مجرد مندوبات (مستحبات)، خاصة عند توجيهها إلى رسول الله (ﷺ). فهل يمكن لأحد من أصحاب العقول أن يزعم أن أمر الله (ﷻ) إلى رسوله بالعفو والإستغفار والتوكل على الله[١٣٦] كان على سبيل الندب (الاستحباب)، الذى يملك الرسول (ﷺ) تركه وعدم الأخذ به دون أن يأثم، إذ أن المندوب (= المستحب) هو الأمر الذى إن أخذ به الإنسان أثيب عليه. وإن لم يأخذ به لم يأثم. وهكذا يتبين لنا أن الأمر بالشورى المخاطب به رسول الله (ﷺ) كان على سبيل الفرض (الوجوب).

**الثالثة:** أن الظرف التاريخى الذى نزلت فيه هذه الآية يؤكد وجوب (فرض) الشورى. وبيان ذلك أن قريشاً جمعت قوتها، وخرجت فى شوال من العام الثالث من الهجرة للإنتقام من المسلمين والثأر لهزيمتها يوم بدر. وعسكر جيش قريش عند جبل أحد مقابل المدينة المنورة واجتمع رسول الله (ﷺ) مع الناس لبحث هذا الخطر الداهم على دولتهم (= مدينتهم) والتشاور فيما يجب عمله لصد هذا الهجوم الوشيك.

واختلف رأى المسلمين فى كيفية مواجهة غزو قريش، فرأى زعماء القبائل والشيوخ أن أفضل وسيلة للدفاع عن المدينة الإنتظار داخل حدودها أو الامتناع عن ملاقاة العدو خارجها، للاستفادة من التحصين الطبيعى للمدينة، حيث أنها محاطة بجبال وعرة من جميع الجهات، فما عليهم إلا أن يتربصوا بعدوهم حتى يدخل مدينتهم، ثم

---

(١٣٥) جمع الإرادة يكون بضم الهّم – بمعنى الهمة من قولك هم بالشيء كما قال الله (ﷻ): (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا) (من الآية ٢٤ فى سورة يوسف)– إلى العزم، فالإرادة هى حاصل جمع الهم مع العزم. والهم هو احتشاد البواعث الدافعة للقيام بالعمل، أى جمع المحفزات فى مقابل العزم الذى يعنى كبح أو طرح المثبطات وبالاثنين معاً (الهم + العزم) تتحقق الإرادة فيكون القيام بالعمل – حينئذ – حتماً مقضياً.

(١٣٦) التوكل: عدم الاستغناء عن طلب المعونة من الله بعد الاجتهاد فى الأخذ بالأسباب، بموجب الإيمان بعدم كفاية الأسباب – التى يظن أنها الواقعة تحت قدرة الإنسان – للوصول إلى النتائج المرجوه، إذ إن الإنسان لا يملك جميع الأسباب المؤثرة أو التى يمكن أن تؤثر على النتائج التى يطلبها لأن الإنسان لا يحيط بكل شيء علماً.

يقاتلوه فى عقر دارهم فيتمكنوا من إلحاق الهزيمة بقريش مرة أخرى.

ورأى الشباب – وكانوا الأكثرية – أن أفضل وسيلة لدحر الأعداء هى الخروج لمقابلتهم عند أحد. وظل الحوار دائراً بين الفريقين دون الوصول إلى رأى حاسم.

وفى ليلة الجمعة، رأى رسول الله (ﷺ) فى منامه رؤيا أزعجته، فلما صلى الفجر جلس – كعادته – مع الناس وقص عليهم ما رآه. قال: "رأيت البارحة فى منامى بقراً تذبح، ورأيت سيفى به فلول[١٣٧] فكرهته، وهما مصيبتان، ورأيت أنى فى درع حصينة"، "فأولت البقر التى تذبح نفراً من أصحابى يقتلون، والثلم الذى فى سيفى رجلاً من أهل بيتى يقتل[١٣٨] والدرع الحصينة المدينة".

ثم أعلن رسول الله (ﷺ) رأيه فى كيفية مواجهة جيش الأعداء بقوله: "فامكثوا فى داخل المدينة، فإن دخل علينا القوم فى الأزقة قاتلناهم، وارموا من فوق البيوت".

هكذا عبر رسول الله (ﷺ) عن رأيه فى أسلوب مواجهة جيش قريش وأيد رأيه برؤيا واضحة الدلالة، تعد وحياً من الله؛ لأن رؤيا الأنبياء حق، إذ هى كلام من الله (ﷻ) ينزل على قلب النبى فى هيئة صور.

ولكن رأى الشباب – الذين غلبهم الحماس، وكانوا يريدون أن ينالوا مجداً مثل الذى ظفر به من حضروا معركة بدر الكبرى – كان قد غلب على أكثر الناس.

وقام قائلهم يعبر عن وجهة نظرهم المخالفة لرأى رسول الله (ﷺ): "كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير، فمتى نقاتلهم إذا لم نقاتلهم عند شعبنا".

وانضم أكثر الناس إلى هذا الرأي، فلم يجد الرسول (ﷺ) بداً من الإذعان لرأي الأغلبية، فصلى بالناس الجمعة وخطبهم آمراً بالجهاد ووعظم بالصبر عند القتال. ثم

---

(١٣٧) فلول: كسر أو شرخ.

(١٣٨) وقد قتل بالفعل حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله (ﷺ) فى معركة أحد، مثل الكفار بجثته وبقرت هند بنت عتبه امرأة أبى سفيان بن حرب – قائد جيش قريش – بطنه وأكلت كبده.

انصرف إلى بيته ولبس ملابس الحرب ووضع اللأمة [١٣٩] على رأسه، وأمر أن يؤذن فى الناس بالخروج للقتال.

ورأى بعض الحكماء كراهة الأمر بادية على وجه رسول الله (ﷺ) فقالوا لأنفسهم: "أكرهنا رسول الله، وهو أعلم بالله وما يريد ويأتيه الوحى من السماء" فعزموا الرجوع عن الخروج بعد الآذان به وتوجهوا إلى رسول الله (ﷺ) فقالوا له: "يا رسول الله، امكث كما أمرتنا".

فقال (ﷺ): "**ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمة الحرب أن يضعها حتى يقاتل، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث (بقصد الرأى القائل بالمكوث فى المدينة وانتظار الأعداء لقتالهم عندما يدخلونها) فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو**".

وأمر رسول الله (ﷺ) الرماة أن يبقوا فى مواقعهم فوق الجبل ولا يتركوها أبداً مهما كانت نتائج القتال فى أرض المعركة عند سفح أحد. وابتدأ القتال بفوز كاسح للمسلمين على جيش المشركين من قريش، الذين أخذوا يفرون مرعوبين تاركين غنائم كثيرة فى ساحة القتال.

ورأى رماة المسلمين من فوق الجبل كثرة الغنائم، فتحركت شهوتهم للاستيلاء عليها، فنزلوا مسرعين وتركوا مواقعهم.

وراى خالد بن الوليد – الذى كان يومئذ قائد الفرسان فى جيش قريش – مواقع الرماة، وقد خلت من أصحابها، فأسرع بالصعود إلى قمة الجبل.

ومن هناك.... من أعلى الجبل، أمطر المسلمين بالسهام، وانقض عليهم، فقتل وجرح الكثير. وانتهت المعركة بفوز المشركين على المسلمين وتحققت نبوءة رسول الله (ﷺ) التى حملتها الرؤيا.

فى هذه اللحظة التاريخية المفعمة بالكثير من المعانى والعظمات، والتى ثبت فيها خطأ

---

(١٣٩) اللأمة: درع من حديد يوضع على الرأس عند القتال لحماية الرأس من ضربات السيوف أو قذائف السهام.

رأى الأغلبية والتى خالف فيها الناس رأى القائد الحاكم، وكانت تلك المخالفة سبباً فى إنـــزال الهزيمة.... فى هذه اللحظة نـــزل أمر الله (ﷻ) إلى رســـوله (ﷺ) بوجـــوب التشاور مع الناس قبل القيام بأى عمل يهم الأمة كلها. (**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَـــاعْفُ عَـــنْهُمْ وَاسْـــتَغْفِرْ لَهُـــمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**).

فقطع بهذه الآية الطريق على أى حاكم حتى لا يســـتبد برأيـــه، وينفـــرد باتخـــاذ القرارات دون مشورة من الناس. فنـــزول هذه الآية – ضمن فوج الـــوحى الـــذى أعقب غزوة أحد – أكبر دليل على وجـــوب (فـــرض) الأمـــر بالشـــورى علـــى الحاكم(١٤٠).

والمتأمل فى سيرة النبى (ﷺ) يتيقن من التزامه (ﷺ) بمبدأ الشـــورى طـــوال مـــدة حكمه.

ففى رمضان من العام الثانى بعد الهجرة، خرج رســـول الله (ﷺ) فى جمـــع مـــن أصحابه ليتعرض لقافلة قريش العائدة من الشام بقيادة أبى سفيان بن حرب. ثم ساقت الأقدار الأحداث إلى موقعة بدر الكبرى، حيث صار القتال حتماً مقضياً.

هنالك اجتمع رسول الله (ﷺ) مع جموع أصحابه الذين خرجوا معه. وقام فـــيهم خطيباً يقول بأعلى صوته: "أشيروا علىّ أيها الناس". يطلب منهم أن يبدوا رأيهم فيما يجب عمله، وقد علموا أن قريشاً قد جمعت قوتها وخرجت للحرب تطلب استئصـــال شأفة الإسلام.

فقام أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فأعلن عن استعدادهم للقتال وطاعتهم لكل ما يأمر به رسول الله (ﷺ) ثم فعل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مثلما فعل أبو بكر الصديق (رضي الله عنه).

ولكن الرسول (ﷺ) ظل يردد " أشيروا على أيها الناس"، فقام المقداد بن عمـــرو

---

(١٤٠) تراجع تفاصيل غزوة أحد والأحاديث النبوية التى أوردناها فى هذا السياق فى كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" – الجزء الرابع صـــ ٢٧١ – ٤٣٧، و"السيرة النبوية" لابن هشام – الجزء الثالث صـــ ٣ – ١١٩، وفى كتاب البداية والنهاية لابن كثير – الجزء الرابع صـــ ١٠ – ٦٣ وصحيح البخارى – كتاب المغازى.

(ﷺ) فقال: "يا رسول الله امضى لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**)[١٤١] ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[١٤٢] لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه".

فدعا له رسول الله (ﷺ) ولكنه عاد مرة أخرى ليقول: "أشيروا علىّ أيها الناس".

وأدرك جماعة الأنصار (أهل المدينة المنورة) أن رسول الله (ﷺ) يقصدهم بحديثه، لأن كل الذين تكلموا – حتى هذه اللحظة – وأعلنوا استعدادهم لخوض الحرب كانوا من المهاجرين. وكان رسول الله (ﷺ) يخشى أن لا تكون جماعة الأنصار ترى واجباً عليهم أن ينصروا رسول الله (ﷺ) خارج المدينة، لأن بيعتهم معه (ﷺ) التى عقدها معهم قبيل الهجرة كانت تنص على أن ينصروه إذا دهم العدو المدينة، إذ قالوا له يوم بيعة العقبة: "يا رسول الله! إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا". فطبقاً لهذا العقد الاجتماعى ليس عليهم قتال خارج مدينتهم.

فقام سعد بن معاذ (ﷺ) – زعيم قبيلة الأوس، فقال (ﷺ): "والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟".

فقال (ﷺ): "أجل".

فقال سعد بن معاذ (ﷺ) متكلماً باسم الأنصار من قبيلة الأوس: "يا رسول الله، قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، فوالذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر (يقصد صحراء الجزيرة العربية) فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، وإنا لصبر عند الحرب،

---

(١٤١) سورة المائدة – من الآية (٢٤).

(١٤٢) برك الغماد: موضع باليمن أو قريباً من الحبشة، وكان يضرب به المثل فى البعد.

صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقربه عينك، فسربنا على بركة الله " وقام سعد بن عبادة (رضي الله عنه) – زعيم قبيلة الخزرج – فقال مثل ما قال زعيم قبيلة الأوس.

هكذا تكلم هؤلاء الرجال باسم القبائل التى كانوا ينتمون إليها، معبرين عن صوتها. وبهذا التشاور بين الحاكم ومجموع الشعب: يمثلهم زعماء القبائل أو نوابها تم عزم قرار الحرب يوم بدر. فقال رسول الله (ﷺ) بعد أن استمع إلى "صوت" الأمة يعلنه زعماء القبائل: "سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم"(١٤٣).

وواجهت المسلمين قضية التصرف فى أسرى معركة بدر، فاختلفت فيها الآراء بين رأى يقول قتلهم – وتبناه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) – واقترح عبد الله بن رواحة (رضي الله عنه) حرقهم، ورأى يقول بإطلاق سراحهم بعد أخذ الفداء منهم، وتبنى هذا الرأى أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ومال إليه أغلب المسلمين فأخذ به رسول الله (ﷺ).

وتناقش رسول الله (ﷺ) مع زعيمى الأنصار: سعد بن عبادة (رضي الله عنه) – زعيم الخزرج – وسعد بن معاذ (رضي الله عنه) – زعيم الأوس – فى الاتفاق الذى كان قد عقده (ﷺ) مع زعيمى غطفان على أن يرجعا بجنود غطفان عن حصار المدينة حيث كانت غطفان من بين القبائل التى تحالفت مع قريش فى معركة الأحزاب (يوم الخندق) فى العام الخامس بعد الهجرة.

لقد أراد النبى (ﷺ) أن يخفف الحصار على المدينة التى يحكمها، فاتفق مع زعيمى غطفان على إعطاء قبيلتهم ثلث ثمار المدينة مقابل أن تحل غطفان تحالفها مع قريش. وكتب الاتفاق واستدعى زعيمى الأنصار للتوقيع عليه؛ لأن الأنصار هم أهل المدينة وأصحاب المال (= النخل) الذى سيدفع لغطفان. ورفض السعدان هذا الاتفاق وأعلنا استعداد الأنصار لتحمل الحصار والقتال. فأعطاهما رسول الله (ﷺ) الكتاب

---

(١٤٣) تراجع تفاصيل غزوة بدر الكبرى فى كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" – الجزء الرابع صـ ٣٠ – ٢٥٤، وسيرة النبى لابن هشام – الجزء الثانى صـ ٢٤٣ – ٤٢٠، والبداية والنهاية لابن كثير – الجزء الثالث صـ ٢٥٥ – ٣١٥.

(الصحيفة) الذى دونت على صفحته بنود الاتفاق فقاما بتمزيقه[١٤٤].

والأمثلة على التزام رسول الله (ﷺ) بواجب الشورى مع مجموع الناس الذين كان يحكمهم أكثر من أن تحصى فى هذا المقام، حتى صح فيه (ﷺ) قول أبى هريرة (رضي الله عنه): "ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله (ﷺ)"[١٤٥].

وقال رسول الله (ﷺ): "لو كنت مؤمراً أحداً دون مشورة المؤمنين لأمرت ابن أم عبد" [١٤٦] يقصد (ﷺ) عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه). والمقصود أنه لا يجوز للخليفة أو الحاكم الأعلى للمسلمين أن يعين أميراً أو موظفاً عاماً دون مشورة الناس وأخذ رأيهم.

وعلى النقيض من الحاكم الرشيد الملتزم بالشورى – كما تجسم على أحسن وجه فى سيرة النبى (ﷺ) – وصف رسول الله (ﷺ) الأمراء الفاسدين المفسدين، الضالين المضلين بقوله: "تكون أمراء يقولون ولا يرد عليهم، يتهافتون فى النار يتبع بعضهم بعضاً"[١٤٧].

"يقولون ولا يرد عليهم": يتكلمون ويصدرون الأوامر دون أن يملك أحد من الشعب أن يناقشهم أو يراجعهم. وقد وصف الله (سبحانه وتعالى) المؤمنين الصادقين بقوله: **(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** (٣٦) **وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ** (٣٧) **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** (٣٨) **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)**[١٤٨].

---

(١٤٤) تراجع تفاصيل غزوة الخندق (الأحزاب) فى كتاب "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" – الجزء الرابع صـ ٥١٢ – ٥٩٠، وكتاب "سيرة النبى" لابن هشام – الجزء الثالث صـ ١٦٨ – ١٨٧، وكتاب "البداية والنهاية" لابن كثير – الجزء الرابع صـ ٩٤ – ١١٨.

(١٤٥) رواه الترمذى وابن ماجه وابن حنبل.

(١٤٦) الحديث رقم ٤٨٥١ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) للألبانى.

(١٤٧) الحديث رقم ٢٩٩٠ فى المصدر نفسه.

(١٤٨) سورة الشورى: الآيات ٣٦ –٣٩.

وتأمل كيف سميت سورة من القرآن باسم "الشورى" للدلالة على أهمية هذا المبدأ فى حياة المؤمنين.

"وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ": وحكمهم يجرى على التشاور بينهم، فلا ينفرد أحد حكامهم بإصدار الأوامر فيما يهم مجموع الناس ولا يستبد برأيه.

ويتضح لنا مما تقدم أن الشورى مبدأ مؤسس لشرعية الحكم فى الإسلام، وأنها أمر واجب، أى فرض شرعى على الحاكم، ومن ثم فإنها ملزمة له. ويفضى بنا الإقرار بهذه الحقيقة إلى إبطال دعوى الفقهاء الذين زعموا – دون سند من القرآن أو السنة النبوية – أن الشورى مجرد أمر مستحب أو مندوب، وأنها غير ملزمة للحاكم بادعاء أنه صاحب السلطة الأصلى، فمن حقه – بزعمهم – ترك ما يوصى به أهل الحل والعقد الذين هم – باصطلاح القدماء – أهل الشورى؛ لأن رأيهم طبقاً لهذا الوهم استشارى، أى مجرد توصية يمكن الأخذ بها أو تركها. وهذه كلها أوهام تدعى الفقة، فرضتها عصور الاستبداد التى اغتصبت فيها السلطة بالقوة، و لم يعبأ أحد بالبيعة التى تمنح الحكم أساس شرعيته.

كما يتضح لنا بجلاء أن رسول الله (ﷺ) كان يتشاور ويطلب المشورة من مجموع الناس، ولنتذكر قوله (ﷺ) يوم موقعة بدر الكبرى "أشيروا علىّ أيها الناس" فالزعم الشائع بين أهل الفقة بأن الحاكم يستشير من يراه هو أهلاً للشورى، ثم يكون للحاكم أن يأخذ برأى من استشاره أو يدعه.... هذا الزعم ليس – بكل بساطة ووضوح – إلا إهداراً تاماً لأمر القرآن بالشورى وإنكار جرئ فاجر لما تنطق به السنة (السيرة) النبوية.

ولكن – كما قلنا – فمن المحال عقلاً أن يتشاور الحاكم مع جميع أفراد الشعب، ولذلك فإن الشورى تتحقق بإجراء الحوار بين الحاكم وبين القادة والزعماء الذين يمثلون الجماعات المختلفة التى تكون مجموع الشعب.

ولما كان الحزب السياسى فى الدولة المعاصرة هو الكيان أو التنظيم الذى يضم فى إطاره جماعة من الناس تربطهم وتوحدهم أفكار ومصالح مشتركة، وتدفعهم إلى العمل سوياً من أجل الوصول إلى الحكم بغية تطبيق هذه الأفكار وتحقيق هذه المصالح؛ لذلك

يجب النظر إلى الأحزاب السياسية باعتبارها الهيئات المعبرة عن آراء مختلف الجماعـــات التى تكون مجموع الشعب، والمؤهلة بموجب تكوينها لإجراء الحوار مع الحاكم فى كل الأمور العامة التى تتعلق بحاضر ومستقبل الدولة.

وفى كلمات أخرى تعد الأحزاب السياسية فى الدولة المعاصرة هى الوسيلة المثلـــى لتحقيق الأمر الشرعى بالشورى.

**(٥) كشف شبهات وتفنيد أساطير:**

بينا فى الفصول السابقة شرعية، وليس مجرد مشروعية، تعدد الأحزاب السياسية فى الدولة الإسلامية. ولكن لابد من الاعتراف بوجود بعض الشبهات وبقاء بعض الأساطير التى تشوش على جلاء هذه الحقيقة. ولذلك نتناول فى هذا الفصل – بإذن الله – كشف هذه الشبهات وتفنيد تلك الأساطير.

ونقصد بالشبهات بعض المفاهيم المغلوطة القائمة على إساءة فهم النصوص الدينية الصحيحة، أما الأساطير فإنها – فى رأيي – الأقوال والشعارات الشائعة التى تخاطب الوجدان الشعبى، وتلقى رواجاً وحماساً لدى جمهور العوام، ولكنها عند التحقيق والفحص تحت مصباح العقل يثبت خلوها من المعنى الصحيح، فتصبح كما قال على ابن أبى طالب (ﷺ) عن شعار الخوارج: "لا حكم إلا لله": "كلمة حق يراد بها باطل".

**(أ) شبهة ذم الأحزاب فى القرآن الكريم والحديث النبوى:**

ارتبطت كلمة "الأحزاب" بصدى بالغ السوء فى وجدان عوام المؤمنين، لأنها أطلقت فى القرآن الكريم، وفى السيرة النبوية على القبائل التى حشدت جندها فى العام الخامس بعد الهجرة لغزو المدينة المنورة (يثرب)، واستئصال شأفة الإسلام ودولته، فيما عرف باسم غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق.

ويكفى أن نتذكر نشيد المسلمين صبيحة يومى عيد الفطر وعيد الأضحى، عندما يحتشدون فى الساحات الواسعة ويرددون بصوت عال "لا إله إلا الله وحده، صدق عهده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده" لنعرف إلى أى مدى يشعر وجدان عوام المسلمين بالنفور من "الأحزاب" باعتبارهم أعداء الله الذين حاربوا رسوله (ﷺ).

وللأسف، فقد كان هذا الانطباع "الوجدانى" السيئ – ضمن شبهات وأساطير أخرى – وراء الحكم أو الرأي القائل بتحريم تعدد الأحزاب السياسية فى الدولة

الإسلامية، الذى اتخذه الكثير من مشاهير الدعاة والمفكرين الإسلاميين(١٤٩).

ولذلك وجدنا لزاماً علينا لرفع هذه الشبهة أن نقوم برحلة فى سماء النص القرآنى الحكيم لنتبين فى نوره المعنى (المضمون) الصحيح للفظ "الأحزاب" النازل فى آياته.

يطالعنا هذا اللفظ أول مرة فى قوله (ﷻ): (**وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**)(١٥٠).

التولى: طلب الهداية والمعونة. فعندما يشعر الإنسان بالحيرة، إذ يقصر علمه عن أن يبين له الطريق الصحيح الذى ينبغى عليه أن يسير فيه للظفر بأكبر المنافع وتجنب أعظم الأضرار أو يشعر بالعجز إذ تقصر قدرته (= أسبابه) عن الوصول إلى ما يريد، حينئذ يحتاج الإنسان إلى ولى يرشده (= يهديه) وينصره (= يعينه)(١٥١).

والآية الكريمة تقول: ما معناه إن من يطلب الهداية والمعونة من الله (ﷻ) ورسوله (ﷺ) وجماعة المؤمنين فإنه يكون واحداً من "حزب الله" الذين يعدهم (ﷻ) بالغلبة على أعدائهم المحاربين (المقاتلين) لهم من أجل القضاء عليهم، أى إبادتهم من الأرض، أو القضاء على إيمانهم (= دينهم) الذى هو الإسلام بردهم إلى الكفر.

---

(١٤٩) مثل: (١) الأستاذ/ حسن البنا مؤسس حركة الإخوان المسلمين، وتعد أكبر حركة إسلامية فى العصر الحديث.

(٢) الأستاذ/ أبو الأعلى المودورى فى كتابه "نظرية الإسلام السياسية".

(٣) الأستاذ/ سيد قطب.

(٤) الأستاذ/ صفى الرحمن المباركفورى فى كتابه "الأحزاب السياسية فى الإسلام".

(٥) الدكتور/ فتحى يكن فى كتابه "أبجديات التصورالحركى للعمل الإسلامى".

(٦) الأستاذ/ وحيد الدين خان فى كتابه "الإسلام والعصر الحديث" وغيرهم....

(١٥٠) سورة المائدة: الآية ٥٦.

(١٥١) وقد ربط القرآن الكريم بين "الولى الهادى" (المرشد) و"النصير" المعين فى العديد من الآيات.

انظر على سبيل المثال قوله (ﷻ): (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) فى الآية ١٠٧ سورة البقرة.

وانظر الآيات: رقم ١٢٠ فى سورة البقرة، والآية رقم ٤٠ فى سورة الآنفال، والآية رقم ٧٤ فى سورة التوبة، ورقم ١١٦ فى نفس السورة، والآيتين رقم ٧١، ورقم ١٨ فى سورة الحج، والآية رقم ٢٢ فى سورة العنكبوت، والآية رقم ٣٧ فى سورة فاطر، والآيتين ٨، ٣١ فى سورة الشورى، والآيات ٤٥، ٥٢، ٧٥، ٨٩، ١٢٣، ١٤٥، ١٧٣ فى سورة النساء، والآيتين ٧٥، ٨٠ فى سورة الإسراء، والآية رقم ٣١ فى سورة الفرقان، والآيتين ١٧، ٦٥ فى سورة الأحزاب، والآية ٢٢ فى سورة الفتح.

ويتبين لنا – إذن – أن لفظ "حزب" قد استعمله القرآن الكريم هنا للتعبير عن صراع عنيف (= حرب) بين جماعة المؤمنين الذين وصفهم بأنهم "حزب الله" وبين أعدائهم الذين يقاتلونهم.

ونفهم من هذا أن "حزب الله" هم الناس الذين ألف بين قلوبهم الإيمان بالله، ووحدهم الجهاد دفاعاً عن دين الله: الإسلام، ضد الكافرين الذين يقاتلونهم من أجل دينهم.

ولما كان الإسلام رسالة الله (ﷻ) إلى جميع الناس، والمؤمنون به والمدافعون عنه ينتمون إلى شعوب وقبائل شتى تنتشر فى كافة أنحاء كوكب الأرض، فحزب الله – إذن – يضم جماعات بشرية كثيرة تختلف (= تتنوع) أوطانها، وألسنتها وألوان جلودها وأساليب معيشتها.

وفى مواجهة ومصارعة "حزب الله" يقوم "حزب الشيطان" الذين وصفهم الله (ﷻ) بقوله: (**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ**)(١٥٢).

"اسْتَحْوَذَ": انتزع الشيء وأحكم قبضته عليه.

"اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ": أحكم الشيطان قبضته على إرادتهم فوجههم إلى ما يريد، وهو معصية الله التى تجلب عليهم سخط الله (ﷻ). فقد ألزم الشيطان نفسه بمهمة إضلال أبناء آدم بتزيين معصية الله لهم، وذلك فى حواره المتحدى لله (ﷻ) إذ أصر على رفض السجود لآدم: (**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً**)(١٥٣).

يشبه تحكمه فيمن ينجح فى أغوائه من ذرية آدم بالرجل يضع الحبل أو اللجام فى

---

(١٥٢) سورة المجادلة: الآية ١٩.

(١٥٣) سورة الإسراء: الآية ٦٢.

الحنك: باطن الفم.

احتنك الدابة: وضع فى حنكها حبلاً أو لجاماً يقودها به.

حنك (باطن فم) الدابة ليقودها به كيفما شاء.

وكانت نتيجة هذا الاستحواذ أن تمكن من إغفالهم عن رسالة الله (ﷻ) إليهم، التى تنبئهم بقيامهم بين يدى الله (ﷻ)، فى الدنيا إذ يراقبهم ويحصى أعمالهم، وفى الآخرة إذ يحاسبهم عليها. هذا هو مضمون قوله (ﷻ): (**فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ**)، أى فأغفلهم عن ذكر الله (ﷻ) لهم إذ بعث إليهم برسالة تنبه قلوبهم إلى وجوده معهم، وحضورهم بين يديه.

"أولئك" الذين نجح الشيطان فى الاستيلاء على إرادتهم، وإحكام قبضته عليهم فجعلهم من أتباعه وجنوده هم "حزب الشيطان".

ثم نبه (ﷻ) القلوب إلى هزيمتهم المؤكدة فى حربهم ضد المؤمنين الذين يكونون "حزب الله" بقوله: (**أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ**).

ها هو لفظ "حزب" يطالعنا مرة أخرى فى وصف الصراع والحرب بين المؤمنين والكافرين.

والمتأمل فى السياق الذى وردت فيه الآية الكريمة – فى آخر سورة المجادلة – يعرف بوضوح تام أن الموصوفين بلفظ "حزب الشيطان" هم المنافقون الذين تظاهروا بالإسلام، وادعوا الإيمان وأقسموا كاذبين على ذلك، بغية التغلغل فى صفوف المؤمنين ليسهل عليهم العمل على تشكيك الناس فى حقائق الإيمان، وصدهم عن طاعة الله، فهم كما قال الله (ﷻ): (**اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**)(١٥٤).

يقول الله (ﷻ): (**لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي**

---

(١٥٤) سورة المجادلة: الآية ١٦ انظر الآيات ١٤– ٢٢ فى سورة المجادلة.
"جنة": ساتراً يخفى حقيقة الكفر فى قلوبهم والإفساد فى أعمالهم، انظر الآيات ١٤– ٢٢ من سورة المجادلة.

**قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)**(١٥٥).

"حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ": أظهر العداوة لله ورسوله، بإعلان الحرب على رسالته (ﷺ) وعلى المؤمنين بها.

مرة أخرى يظهر لفظ "حزب" عندما يكون الحديث عن "حرب" بين جماعتين مختلفتين دينياً: المؤمنين و الذين يعادونهم من الكافرين.

ويقول (ﷻ): **(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ)**(١٥٦).

تعد هذه الآية الكريمة واحدة من الآيات المتشابهة: التى تحتمل عدة معان متضاربة، والتى تخبط المفسرون فى تآويلها وقد اعتمدوا جميعاً على ثلاثة أقوال خاطئة ذكرها الطبرى فى تفسيره وأخذوا – كعادتهم – يتناقلوها عبر الأجيال(١٥٧).

---

(١٥٥) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ: سجل فى بواطنهم كلمات القرآن، فالإيمان – هنا – هو القرآن الكريم الذى أودعه الله قلوب المؤمنين بالغيب قبل أن ينزلوا إلى حياة الابتلاء فى هذه الأجساد.

وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ: وأمدهم برسول منه بعثه إليهم ليحيى كلمات القرآن القديم المودعة فى قلوبهم كما يحيى الماء البذور المدفونة فى الأرض. وروح الله المذكور – هنا – هو رسول الله (ﷺ) الذى أحيا القلوب بإخراج كلمات القرآن المودعة فيها من الغيب إلى الشهادة.

(١٥٦) سورة هود: الآية ١٧.

(١٥٧) انظر تفسير الآية ١٧ من سورة هود فى تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل آيات القرآن) – الجزء الثانى عشر صـ ١٤-٢٠.

وتفسير الزمخشرى (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل) – المجلد الثانى صـ ٢١٠، ٢١١.

وتفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) – صـ ٣٢٤٤ – ٣٢٤٦.

وصفوة التفاسير للأستاذ/ محمد على الصابونى – المجلد الثالث صـ ٩ – ١٠، ومختصر تفسير ابن كثير – المجلد الثانى – صـ ٢١٤ – ٢١٥.

والتفسير الوسيط للقرآن الكريم – تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر المجلد الرابع صـ ١٧٥ – ١٧٦.

وكشفاً لغموض هذه الآية المتشابهة المشكلة نقول بفضل الله (ﷻ) علينا وعلى الناس:

(-) الذى على بينة من ربه هو نبى الله ورسوله محمد (ﷺ).

(-) والبينة النازلة من الله (ﷻ) هى القرآن الكريم.

(-) وسؤال الله (ﷻ): **(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ)؟**

يعنى: هل يستوى النبى (ﷺ) الذى يستند فى سعيه فى هذه الحياة الدنيا على "وحى مبين" جاءه من ربه الرحيم الذى أسبغ عليه من واسع فضله العظيم مع من لا يجد ولياً مرشداً؟

هل يستوى من أنار وحى الله (ﷻ) له طريقه مع من يتخبط فى الظلمات وليس بخارج منها؟

فالسؤال فى صدر الآية متروك بلا إجابة دعوة للتفكير، وتقدير الجواب: لا يستوى من يسير على هدى من ربه مع من تغرقه الحيرة فى الظلمات لفقده من يهديه وينصره؟

(-) ويتضح مما تقدم أن القرآن الكريم – الذى هو وحى الله (ﷻ) إلى نبيه محمد (ﷺ) – هو المقصود من قوله (ﷻ): **(بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ)**، فالقرآن الكريم هو بينة النبى (ﷺ) التى جاءته من ربه لتنير له طريقه فى الدنيا والآخرة.

"وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ": ويأتى بعده مبعوث من الله (ﷻ) يكون دليلاً على صدقه وصحة رسالته. وهذا الشاهد المذكور منسوب إليه (ﷺ).

والمقصود عيسى ابن مريم (عليه السلام) فى بعثته الثانية قبيل الساعة إذ يرسله الله (ﷻ) نزلة أخرى، ليؤكد صدق النبى الأمى (ﷺ) وصحة القرآن الكريم.

ولفظ "شَاهِدٌ" يعنى: دليلاً يؤكد بكلامه صحة القضية.

وقوله (ﷻ): "مِنْهُ" يعنى أنه منسوب إليه، وتعد بعثته الثانية جزءاً من رسالة النبى الأمى (ﷺ).

قال رسول الله (ﷺ): "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة، ليس بينى

وبينه نبى، والأنبياء أولاد علات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد"[١٥٨].

قوله (ﷺ): "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم" يعنى: إن صح أن ينسب عيسى ابن مريم إلى أحد من الناس، فأنا أجدر الناس بهذه النسبة!

"فى الدنيا والآخرة": فى ظهوره وبعثته فى الدنيا، وفى بعثة يوم القيامة باعتبار أن مهمة عيسى ابن مريم (عليه السلام) الأساسية كانت التبشير برسالة النبى الخاتم للنبوة (ﷺ)، فقد جاء عيسى ابن مريم (عليه السلام) إلى هذه الدنيا ليبشر بمحمد (ﷺ) ويمهد له الطريق، فيكون محمد (ﷺ) أجدر الناس بأن ينسب إليه المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام)؛ لأن محمداً (ﷺ) كان سبباً فى إرسال المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) إلى الدنيا.

وباعتبار أن محمداً (ﷺ) هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، فيكون خروجه (ﷺ) من الأرض سبباً فى خروج جميع الناس من بعده، فهو (ﷺ) سبب منح المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) نفخة الروح أو سر الحياة الذى يظهر به فى الآخرة، فهو (ﷺ) – إذن – أجدر الناس بأن ينسب إليه عيسى ابن مريم (عليه السلام) فى الآخرة[١٥٩].

قال الله (سبحانه وتعالى) مبيناً أهداف رسالة المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) فى بعثته الأولى بهذه الدنيا: **(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)**[١٦٠].

ولا يجادل أحد فى أن المقصود بأحمد هو محمد (ﷺ).

وقال رسول الله (ﷺ) عن نفسه: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع"[١٦١].

---

(١٥٨) الحديث رقم ١٤٥٢ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) للألبانى – وقد أخرجه البخارى ومسلم وابن حنبل وأبو داود، عن أبى هريرة (رضي الله عنه).

(١٥٩) وللحديث معان أخرى لا يسمح المقام – هنا – بالإفاضة فيها.

(١٦٠) سورة الصف: الآية ٦

(١٦١) الحديث رقم ١٤٦٧ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) للألبانى. وقد أخرجه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة (رضي الله عنه).

وقد أنار (ﷺ) جانباً من الرابطة الوثيقة الحميمة التى تجمعه مع عيسى ابن مريم (عليه السلام) بقوله: "ليس بينى وبينه نبى" مشبهاً النبوة بسراج منير تسلمه عيسى ابن مريم (عليه السلام) وأدى رسالته، ثم سلمه إلى النبى محمد (ﷺ) ثم يتسلمه عيسى ابن مريم (عليه السلام) من محمد (ﷺ) مرة أخرى عند نزوله قبل يوم القيامة ضمن أشراط الساعة الكبرى.

"والأنبياء أولاد علات": أبناء ضرائر، فهم بمثابة ثمرة زواج عدة لنساء من رجل واحد. كناية عن وحدة أصل النبوة وتصبح العلات (= الضرائر) – فى هذا التعبير المجازى – كناية عن تعدد الظروف التاريخية والملابسات الدنيوية (الجسدية) التى يبعث فيها الأنبياء ويخرجون (= يظهرون) للناس، مع أن أباهم الذى ولدهم واحد. وفسر الأمر بقوله (ﷺ): "أمهاتهم شتى ودينهم واحد" فجعل الدين – الذى هو العقيدة والعبادة – مكان الأب الوالد.

(–) ولا يتبقى ظل من شك فى صحة تأويلنا بأن المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) هو المقصود من قول الله (سبحانه وتعالى): "ويتلوه شاهد منه" عندما نستمع إلى وصف القرآن الكريم لهذا الشاهد إذ يقول: (**وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً**) يعنى: ومن قبل هذا الشاهد الذى هو عيسى ابن مريم (عليه السلام) – نزل كتاب موسى – الذى هو التوراة ليكون – إماماً لعيسى ابن مريم (عليه السلام) وسائر بنى إسرائيل ورحمة من الله (سبحانه وتعالى) لكل من يؤمن به[١٦٢].

"أولئك": الذين اتخذوا كتاب موسى إماماً لهم، وكان رحمة من الله بهم من بنى إسرائيل: "يؤمنون به" أى بالقرآن.

والمعنى المقصود أن المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) يؤمنون بالقرآن؛ لأن فى التوراة وكتب الأنبياء والإنجيل بشارات واضحة ببعثة النبى الأمى

---

(١٦٢) يتبين الآن – سخافة الأقوال التى ادعت – دون سند من القرآن أو السنة النبوية أو حتى قواعد اللغة العربية وحقائق التاريخ – أن المقصود بالشاهد فى الآية الكريمة هو: إما لسان النبى محمد (ﷺ)! أو جبريل (عليه السلام)!! أو علي بن أبى طالب (رضي الله عنه)!! وتلك هى الأقوال التى ظل يرددها مفسروا القرآن الكريم على مر العصور!!!

الذى يبعثه الله (ﷻ) فى العرب ويختم به دائرة النبوة[١٦٣].

**(وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ).**

"الأَحْزَاب": الفرق (الطوائف) الدينية التى افترق إليها اليهود المنسوبين إلى موسى (عليه السلام) والمسيحيين - أو النصارى - المنسوبين إلى عيسى بن مريم (عليه السلام) - والتى ضل أكثرها عن سبيل الله، وسقطوا فى هاوية الكفر والشرك رغم احتفاظهم وتمسكهم الظاهرى الكاذب بالانتساب إلى هذين النبيين العظيمين.

قال رسول الله (ﷺ): "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة فى الجنة وسبعون فى النار. واقترفت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة. والذى نفس محمد بيده، لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة فى الجنة واثنتان وسبعون فى النار"[١٦٤].

هذه الفرق الدينية هى المقصودة بلفظ "الأحزاب" النازل فى الآية وهى جماعات تمثل مذاهب "دينية" مختلفة، تعبر عن معتقدات ومواقف فكرية متضاربة من رسالة الله (ﷻ) وقد شهد التاريخ بالفعل تناحرها وتقاتلها فى مذابح بشرية بشعة؛ لأن كل فرقة منها ادعت أنها تنفرد بامتلاك الحقيقة المطلقة التى لا يأتيها الباطل أبداً، وأن كل من اختلف معها أو خالفها فهو على باطل. كما عبر القرآن الكريم عن هذه النزعة الاستكبارية الإقصائية التى تستعلى على الغير، وتقصيه من حق الوجود واستحقاق الرحمة فى قوله (ﷻ): **(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ**

---

(١٦٣) تناولت عدة كتب التبشير بمحمد (ﷺ) فى كتب الأنبياء السابقين، ونقترح على القارئ كتاب "محمد (ﷺ) فى التوراة والإنجيل والقرآن" – للأستاذ/ إبراهيم خليل أحمد، وهو رجل دين مسيحي اعتنق الإسلام – دار المنار للنشر والتوزيع – القاهرة ١٩٨٩.

(١٦٤) الحديث رقم ١٠٢٨ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) للألبانى – وقد أخرجه ابن ماجه عن عوف بن مالك الأشجعى (رضي الله عنه). ورواه الأربعة: أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه، عن أبى هريرة (رضي الله عنه) بصيغة مختصرة ليس فيها بيان مصير الفرق فى الآخرة.

"افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة" – انظر الحديث رقم ١٠٨٣ فى نفس المصدر.

**أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**(١٦٥) يعنى فى دعواكم.

هُوداً: يهوداً.

أَمَانِيُّهُمْ: أقوالهم التى تعبر عن آمالهم وأهوائهم.

والمقصود لقد زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن رحمة الله المتجسمة فى الجنة حكر عليه وحده، فهو ينفرد بها ولا يشاركه فيها الآخرون.

وقوله (ﷻ): **(وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**(١٦٦).

إذن لفظ "الأَحْزَاب" النازل فى هذه الآية الكريمة (رقم ١٧ من سورة هود) يعنى جماعات قامت على أساس دينى، يؤلف ويوحد بين أفرادها الاتفاق على عقيدة دينية وعبادات تحظى بالتقديس والتعظيم. والقضية الأولى فى تكوين هذه الجماعات هى الإيمان أو الكفر.

والأحزاب (= الفرق) التى تكفر بالقرآن الكريم – الذى هو بينة الله (ﷻ) إلى نبيه محمد (ﷺ) – سيكون مصيرها النار **(وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ)**.

ومن الواضح الجلى الذى لا يحتاج إلى بيان أن هذا المعنى لا علاقة له بمعنى الأحزاب السياسية فى الدولة المعاصرة. إذ لا خلاف على أن الأحزاب السياسية هى هيئات تضم جماعات من الناس يؤلف بينهم الاتفاق على برنامج سياسى – وليس على عقيدة دينية – ويوحدهم السعى للوصول إلى الحكم (= السلطة السياسية) من أجل تطبيق هذا البرنامج السياسى على أرض الواقع لتحقيق رؤيتهم للمجتمع الأفضل الذى ينشدونه.

وسبيلهم إلى ذلك إقناع الناس بالبرنامج السياسى الذى يعرضونه، ودعوتهم إلى

---

(١٦٥) سورة البقرة: الآية ١١١.

(١٦٦) سورة البقرة: الآية ١١٣.

تأييده عبر التصويت لصالحه فى انتخابات تجرى للتنافس بين الأحزاب السياسية المختلفة ليعلم أى حزب يحظى بتأييد أغلب الناس فيستحق عن جدارة الجلوس على كرسى الحكم.

وبمعنى الفرق الدينية المختلفة التى انقسم إليها أهل الكتاب: اليهود والنصارى جاء لفظ "الأَحْزَاب" فى الآيات التالية:

**(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزلَ إِلَيْكَ وَمِنْ الأَحْزَابِ مَنْ يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ)**(١٦٧).

فالمؤمنون الصادقون من أهل الكتاب يفرحون بالقرآن الكريم، ولكن "الأَحْزَاب" (الفرق) الكافرة منهم ترفض بعض ما جاء فيه.

**(فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ)**(١٦٨).

**(فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ)**(١٦٩).

ويبين الله (ﷻ) السبب فى نشوب الحروب الدينية واحتدام الصراع بين البشر الذى تغذيه الخلافات المذهبية بقوله: **(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)**(١٧٠).

هذه هى رسالة الله (ﷻ) التى حملها جميع رسله، وأمرهم بإبلاغها إلى الناس.

** الأكل من الطيبات والمقصود التمتع بالحلال.

** العمل الصالح والمقصود طاعة الله.

** مراقبة الله والاستعداد للحساب فى الآخرة؛ لأن هذا هو ثمرة الإيمان بقوله (ﷻ): **(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)**.

---

(١٦٧) سورة الرعد: الآية ٣٦.

"وَإِلَيْهِ مَآبِ": إلى الله (ﷻ) وحده ينتهى سير عودتى، أى رحلة رجوعى إلى حقيقتى.

(١٦٨) سورة مريم: الآية ٣٧.

(١٦٩) سورة الزخرف: الآية ٦٥.

(١٧٠) سورة المؤمنون: الآية ٥١.

** التآلف والتعاون على الخير والتوحد فى طريق طاعة الله.

فإذا كان الله (ﷻ) قد بعث رسله إلى كثير من الأمم، فإن رسالته (ﷻ) واحدة لا تتغير على مر العصور، تدعو كل أمة إلى التوحد وتحذرهم من التفرق والتنازع، إيماناً بأن الناس جميعاً أبناء رجل واحد – حقيقة لا مجازاً – هو آدم (عليه السلام)، وهو الإيمان الذى – إن صدق – يحث الناس على العمل من أجل توحيد كل البشر فى نطاق أسرة عالمية واحدة تتخذ من الكوكب الأرضى بيتاً آمناً تستقر فيه إلى حين.

هذا هو مضمون رسالة الله (ﷻ) إلى جميع رسله الذى جاء فى قوله: **(وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)**[171].

"هذه": اسم إشارة إلى الجماعات البشرية التى أرسل إليها (ﷻ) رسله، والمقصود: ينبغى أن تنظروا – يا أيها المؤمنون المخاطبون بهذا القرآن – إلى جميع تلك الأمم باعتبارها أمتكم التى تنتسبون إليها، أن رسالة الله واحدة إلى جميع الأمم التى تكون – فى الحقيقة – "أمة واحدة" ومن ثم يجب عليكم أن تسعوا إلى أن يصبح جميع الناس "أمة واحدة"، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتوحيد الله، وأفراده بالطاعة، ولذلك ختم الآية بقوله: **(وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)**.

وينبغى – هنا – أن نلفت الأنظار وننبه القلوب إلى أن لفظ "الأمة" لا يعنى الملك أو الدولة أو الحكم أو السلطة السياسية بل يعنى الثقافة، أى رؤية متفردة للكون وطريقة خاصة مميزة لتناول الحياة كما يتضح من قوله (ﷻ):

**(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)**[172].

فإذا كانت رسالة الله تدعو إلى الوحدة فلماذا تفرق الناس؟ وصاروا شيعاً متناحرة؟

---

(١٧١) سورة المؤمنون: الآية ٥٢.

(١٧٢) سورة الزخرف: الآيتين ٢٢، ٢٣.

والإجابة: لأنهم فقدوا الإيمان الحقيقى. وأساءوا التعامل مع رسالة الله فقطعوها إلى أجزاء أو أشلاء متناثرة وتشبث كل فريق بالقطعة التى انتزعها من رسالة (= كتاب) الله والتى تعبر عن فهمه (تأويله) الضيق الخاطئ واتخذ منها وسيلة للعلو على "الآخرين" وفرض إرادته عليهم عبر انتزاعه للسلطة السياسية أو كرسى الحكم بالقوة.

يقول الله (ﷻ): (**فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**)(١٧٣).

"أَمْرَهُمْ": كتابهم، أى مجموع ما أمرهم الله به. وهو ما يمكن إيجازه بتوحيد الأمة بالتآلف والتعاون على البر وتقوى الله كما أعلن فى الآية السابقة – رقم ٥٢ من سورة المؤمنون – بقوله: (**وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**). والآية التى تقول فى بيان واضح: (**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**)(١٧٤).

"زُبُراً": قطعاً منفصلة متناثرة كأنها قطع من الحديد منثورة.

"كُلُّ حِزْبٍ": كل فرقة من تلك الفرق الضآلة التى أساءت تآويل رسالة الله، بغية العلو فى الأرض وإخضاع الآخرين لأهوائها.

"بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ": بما اقتطعوه من كتاب (وحى) الله مستكبرون على غيرهم.

فكان ذلك الاستكبار بغير الحق سبباً للتنازع والتقاتل من أجل السلطة.

وقد نهى الله (ﷻ) المؤمنين بأن يسيروا إلى ذلك المصير فأوصاهم قائلاً: (**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** (٣٠) **مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ** (٣١) **مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**)(١٧٥).

"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ": فارفع وجهك من الأرض وانظر لدين الله الآتى إليك من

---

(١٧٣) سورة المؤمنون: الآية ٥٣.

(١٧٤) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

(١٧٥) سورة الروم: الآيتان ٣٠ – ٣٢.

السماء. والوجه كناية عن "القصد والإرادة" فعندما نقول توجه لشئ، فنحن نعنى أنه: "قصد إليه وجعل الوصول إليه غايته".

والآية الكريمة تأمر النبى (ﷺ) وكل مؤمن من بعده بالصعود بإرادته من مجرد طلب إشباع شهوات الجسد وتحصيل منافع الحياة الدنيا، إلى طلب تحقيق دين الله. وعندما يريد الإنسان ذلك فسيكون لزاماً عليه أن يترك معصية الله ويهجر الباطل سائراً بقلبه إلى الحق.

وهذا هو مضمون قوله (ﷻ): "حَنِيفاً"، أى مائلاً متجنباً. والمقصود منصرفاً عن الباطل مقبلاً على الحق، فإن أصل لفظ "الحنف" يعنى الميل[١٧٦]. والحنيف هو الذى يعتزل (= يهجر) قومه، وما هم عليه من باطل طلباً للوصول إلى الحق الذى هو توحيد الله (ﷻ)، كما فعل النبى (ﷺ) عندما كان يعتزل قومه معرضاً عما هم عليه من عبادة الأصنام ويآوى إلى غار حراء طلباً لسكينة القلب وصفاء العقل. وكما فعل خليل الله إبراهيم (عليه السلام) الذى قضى أكثر عمره مهاجراً فى الأرض، تاركاً الوثنية والإشراك طالباً الواحدانية، فوصفه الله (ﷻ) بانه كان "حَنِيفاً"[١٧٧] يعنى أنه كان موحداً لله

---

(١٧٦) انظر لسان العرب – مادة "حنف" صـ ١٠٢٥ – ١٠٢٦.

(١٧٧) انظر إلى قول الله (ﷻ):

** (وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ) الآية ١٣٥ من سورة البقرة.

** (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ) الآية ٦٧ من سورة آل عمران.

** (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ) الآية ٩٥ من سورة آل عمران.

** (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) الآية ١٢٥ من سورة النساء.

** (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ) الآية ٧٩ من سورة الأنعام على لسان إبراهيم (عليه السلام).

** (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ) الآية ١٦١ من سورة الأنعام.

** (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) الآية ١٢٠ من سورة النحل.

** (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ) الآية ١٢٢ من سورة النحل.

(ﷻ) مسلماً له وجهه (إرادته)، و لم يكن من المشركين.

وإقامة الوجه طلباً لتوحيد الله (ﷻ) (= توجيه القصد بغية الوصول إلى وحدانية الإله عبر عبادته) هى (**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**): بذرة المعرفة التى أودعها الله (ﷻ) فى قلوب (= يواطن) الناس عندما ابتدأ قديماً خلقهم، فأخرجهم من الغيب وهم يحملون فى قلوبهم (بواطنهم) "أصل العلم" الذى يحثهم على طلب الوصول إلى الله (ﷻ) ويحفزهم على البحث عنه. فتلك المعرفة الأولية القديمة التى غرسها الله (ﷻ) بيده فى قلوب الناس، هى التى تحمل الناس فى سفر خروجهم من الغيب إلى الشهادة، فهم عليها سائرون فى رحلة الوجود تحملهم قطرة[١٧٨] الله (ﷻ).

إذن، ففى باطن (قلب) كل نفس إنسانية قد أودع الله (ﷻ) رسالته التى تحث الناس على البحث عنه، وتدعوهم إلى توحيده (ﷻ) وهى رسالة واحدة تلقاها جميع الناس فلا تتغير من إنسان لآخر، ولا من مكان لآخر، ولا من زمان لآخر. وكل البشر متساوون فى الحصول عليها وفى الحساب عليها يوم القيامة.

"لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ": لا تغيير يطرأ على كلمات الله التى أودعها فى كتاب علمه وفى قلوب عباده، كما قال (ﷻ): (**وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ**)[١٧٩].

---

(١٧٨) أصل لفظ "فطر" يدور معناه حول الشق والانشقاق. انظر مادة "فطر" فى لسان العرب صـ ٣٤٣٢ – ٤٤٣٣. وانظر إلى قوله (ﷻ): (إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ) (سورة الانفطار – الآية الأولى) بمعنى انشقت أو تشققت، أى ظهرت فيها ثقوب ثم تجزأت وتفتت.

واستعمال القرآن الكريم لهذا اللفظ بمعنى "الخلق" أى الظهور والتكوين والتركيب للإشارة إلى أن الإنسان كان قديماً – منذ الأزل – كامناً مستوراً فى الغيب، وأن خلقه، أى ظهوره فى هذه الصورة المشهودة التى يعرف فيها نفسه إنما كان بمثابة شق أو حفر فى الغيب (= الملكوت).

عندما يخرج ناب البعير من اللثة يقول الإعرابى: فطر ناب البعير أى شق اللثة فظهر.

وعندما يحفر الأرض لتظهر البئر يقول: فطرها. والضمير يعود إلى الأرض بنفس القدر الذى يعود به إلى البئر؛ لأن البئر ليست إلا حفرة ظهرت على وجه (سطح) الأرض، وقد كانت جزءاً كامناً مخفياً فى باطنها قبل الفطر (= الحفر أو الشق).

(١٧٩) سورة الأنعام: من الآية ٣٤.

وقال (ﷻ): **(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)**(١٨٠).

وقد عبر الله (ﷻ) عن كلمات رسالته بلفظ "الخلق" لينبه الناس إلى أنهم كانوا – قبل أن يظهروا فى هذه الحياة الدنيا – كلمات مودعة فى اللوح المحفوظ، ضمن العلم الإلهى الذى سجل فى "ذلك الكتاب".

فإن للخلق قبل ظهورهم فى هذه الحياة الدنيا – التى تبدأ بالولادة من الأرحام – وجود قديم، بل موغل فى القدم.

"ذلك": اسم إشارة إلى رسالة (= وحى) الله المودعه فى القلوب. ولأن الرسالة قديمة وبعيدة عن تناول الحواس استخدم إسم الإشارة ذلك.

"الدين القيم": العقيدة الصحيحة والعبادة السليمة التى تعد بمثابة طريق مستقيم يساعد السائرين فيه على الوصول إلى الحقيقة والدخول فى رحمة الله والخلود فيها.

**(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)** ما تحويه قلوبهم من كلام الله (ﷻ) القديم.

ثم أمرنا (ﷻ) بالإنابة إليه، واتقاء عذابه، وإقامة الصلاة ونهانا عن أن نكون من المشركين بقوله: **(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ)**(١٨١).

---

(١٨٠) سورة الأنعام: من الآية ١١٥.

(١٨١) الإنابة – لغة – هى الرجوع، والمقصود هنا الرجوع إلى الحق وهى تحقيق التوبة.

فإذا كانت التوبة هى نية (= قصد) العبد أن يرجع إلى معنى العبودية لله، فإن الإنابة هى تحقيق هذا المعنى، أى الرجوع إلى العبودية حقاً. وبيان ذلك أن شروط التوبة ثلاثة:

-١- الندم على الوقوع فى المعصية، لأن هذا يخالف معنى العبودية، ويعنى أسف العبد لحدوث المعصية منه ولومه لنفسه على ذلك.

-٢- الإقلاع وهو الكف عن اقتراف المعصية والتعهد بالامتناع عنها مستقبلاً.

-٣- الاعتذار ويعنى التنصل من إرادة المعصية، وإرجاع الوقوع فيها إلى ضعف النفس الإنسانية الأمارة بالسوء. وهذا من الأدب الممدوح فى هذا المقام، وإلا فإن البديل هو الإقرار الصريح بإرادة المعصية وهو من الفحش الذى لا يليق بعبد، وجرأة لا تغتفر وتناقض مع معنى الندم. =

ثم بين مقصوده من لفظ المشركين هنا، فقال (ﷻ) على سبيل البدل: **(مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)**.

"فَرَّقُوا دِينَهُمْ": قطعوا رسالة الله إليهم وجزأوها فآمنوا ببعضها وعظموا ما أخذوه منها بعد أن أساءوا فهمه. واستهانوا ببعضها وأهملوه. وهكذا حولوا كتاب الله إلى قطع متناثرة متنافرة يضرب بعضه بعضاً فكانوا مثل: **(الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ)**[١٨٢].

"وَكَانُوا شِيَعاً": وأصروا على ذلك وظلوا أحزاباً متنافرة متنازعة، يجمع أفراد كل حزب منهم ويوحدهم تأييد وتقديس "الرأى" الذى مالوا إليه بهواهم، وعظموه حتى رفعوه إلى منزلة الدين المنزل من الله (ﷻ) واتخذوا منه ذريعة للبغى على الأحزاب

---

=وفى مقام الإنابة يجتهد العبد فى إصلاح نفسه وعمله وحاله ليصبح حقاً عبداً لله.

فيحاول الإكثار من الطاعات لتعويض ما فاته فى أيام غفلته وعصيانه، ويتألم لاستمرار وقوعه فى الذنوب والأخطاء رغم حرصه الشديد على تجنب ذلك، ويتخلص من كل ما يعوقه عن طاعة ربه.

وهذا ما سماه الإمام الهروى صاحب كتاب "منازل السائرين إلى رب العالمين" (الحق المبين) الرجوع إلى الحق إصلاحاً كما رجع إليه اعتذاراً فى مقام التوبة. وقال: إنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحاً بالخروج من التبعات، والتوجع للعثرات، واستدراك الفائتات".

ثم يكره العبد المعصية، ويجتهد فى نقد طاعته (عبادته)، ومحاسبة نفسه، ويشفق على أهل الغفلة الذين كان واحداً منهم قبل يقظته وتوبته، ويرجو النجاة لنفسه. وبهذا يحقق الإقلاع عن المعصية. وهو الرجوع إلى الحق وفاءً كما رجع إليه عهداً فى مقام التوبة، لأن الإقلاع عن الذنب ليس إلا عهداً يأمل العبد فى الوفاء به.

قال صاحب المنازل (رحمة الله): "وإنما يستقيم الرجوع إليه وفاءً بثلاثة أشياء: بالخلاص من لذة الذنب، وترك الاستهانة بأهل الغفلة تخوفاً عليهم مع الرجاء لنفسك، وبالإستقصاء فى رؤية علة الخدمة (= العبادة).

ثم يدرك العبد المنيب إلى ربه أن عبادته مهما كثرت لا تكفيه للنجاة، وأن العبد مضطر لا اختيار له تسوقه الأقدار التى خطتها يد المشيئة الإلهية قبل وجود العبد، وأن لا أمل له فى النجاة إلا بنظرة عطف من ربه الرؤوف الرحيم.

وهذه هى الحال التى يتحقق بها الرجوع (الإنابة) إلى الحق، والتى وصفها صاحب المنازل (قدس الله سره) بأنها: "الرجوع إلى الحق حالاً كما رجع إليه إجابة" بالندم فى مقام التوبة؛ لأن الندم هو إجابة قلب العبد لنداء الحق عليه بالرجوع إلى العبودية. وقال (رحمه الله): "وإنما يستقيم الرجوع إليه حالاً بثلاثة أشياء: بالإياس من عملك، ومعاينة إضطرارك، وشيم برق لطفه بك".

انظر منزل الإنابة فى كتاب "مدارج السالكين" لابن القيم، شرح "منازل السائرين إلى الحق المبين" للإمام أبى إسماعيل عبد الله بن محمد بن على الانصارى الهروى – صـ ٣٢٩ – ٣٣٥ – الجزء الأول – دار التقوى للنشر والتوزيع.

(١٨٢) سورة الحجر: من الآيتين ٩٠، ٩١.

"عِضِينَ": أجزاء أو أشلاء منفصلة.

الأخرى الذين لا يشاركونهم "الرأى" بدعوى أنهم كافرون ينكرون بعض ما جـــاء فى كتاب الله أو "ما علم من الدين بالضرورة" ويستحقون الإبادة.

وكان (**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**).

ويتبين لنا – الآن – أن لفظ "حزب" فى الآية الكريمة يعنى كل فرقة "دينية" ضـــالة اتخذت من رأيها البشرى الخاطئ "ديناً مقدساً"، وجعلته بديلاً عن دين الله الحقيقـــى الذى أودعه القلوب قديماً، وذكر الناس به برسالته إلى أنبيائه.

وعندما يتكلم القرآن الكريم عن "الأحزاب" فى قوله: (**يَحْسَبُونَ الأَحْـــزَابَ لَـــمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَـــائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً**)[١٨٣] واصفاً حال المنافقين.

وفى قوله: (**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَـــدَنَا اللَّـــهُ وَرَسُـــولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً**)[١٨٤] واصفاً حال المؤمنين.

فلا يجادل أحد فى أن المقصود بلفظ "الأحزاب" فى هذا المقام هو القبائـــل العربيـــة الجاهلية: قريش وكنانة وعظفان ومن انضم إليهم من العرب المشركين الوثنيين الـــذين تحالفوا وحشدوا جنودهم لغزو المدينة المنورة (يثرب) من أجل القضاء على الإسلام.

ويقول الله (ﷻ) محذراً المؤمنين: (**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَـــدُوّاً إِنَّمَـــا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**)[١٨٥].

"حزبه": مجموع الناس الذين يتبعون الشيطان ويخضعون لسلطانه فيستحوذ علـــى إرادتهم ويقودهم إلى جهنم فيكونوا (**مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**).

وتوعد الله (ﷻ) كفار قريش والقبائل العربية بالهزيمة فى حربهم الظالمة ضد رسول الله (ﷺ) والمؤمنين وأنذرهم بأنهم سيلقون مصير الكفار من الأمم السابقة فى الدنيا –

---

(١٨٣) سورة الأحزاب: الآية ٢٠

(١٨٤) سورة الأحزاب: الآية ٢٢.

(١٨٥) سورة فاطر: الآية ٦.

بالإبادة أو تدمير مقومات حضارتهم – وفى الآخرة بالعذاب الأبدى الشديد فى الجحيم فقال: (**جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنْ الأَحْزَابِ** (١١) **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ** (١٢) **وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ**)[١٨٦].

لقد بين الله (ﷻ) فى بداية السورة أن كفار العرب من قريش وغيرهم قد تعجبوا من مجئ النبى محمد (ﷺ) رسولاً إليهم لينذرهم العذاب الشديد – إن أصروا على الكفر – ووصموا النبى (ﷺ) بالسحر والكذب ووصفوا القرآن الكريم بأنه مجرد اختلاق، أى كلام مصطنع نظمه ورتبه محمد ثم نسبه زوراً إلى الله، وتساءلوا منكرين ومستهزئين لماذا اختار الله من بينهم هذا الرجل لينزل عليه وحيه[١٨٧].

ورد على تكذيبهم وتعجبهم وتسائلهم بسؤال يستنكر كفرهم واستهزاءهم فقال (ﷻ): (**أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ**)[١٨٨].

هل يستحوذون فى أيديهم على مستودعات الرحمة الإلهية؟! فيكون لهم الحق فى إنزال الرحمة على من يشاءون من الناس وحرمان من يبغضون؟!

وهو سؤال يستنكر كفرهم وطغيانهم. وعبر (ﷻ) عن نفسه فى هذا المقام وهو يخاطب نبيه ورسوله محمد (ﷺ) باسم (**رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ**) فهو – يا محمد – "ربك" الذى رباك على عينه واعتنى بك أبلغ عناية، وأسبغ عليك الفضل العظيم. فمن يملك منع رحمة ربك عنك؟! من تبلغ به الجرأة على الحق أن يظن فى نفسه القدرة على حرمانك من رحمة ربك وهو (ﷻ) "الْعَزِيزِ" الذى لايغلب ولا يكره على ما يكره، "الْوَهَّابِ" الذى يفيض برحمته على من يشاء من عباده بلا سبب ولا حساب عليه من أحد غيره (ﷻ).

---

(١٨٦) سورة ص: الآيات ١١-١٣.

(١٨٧) انظر الآيات ١-٨ من سورة ص.

(١٨٨) سورة ص: الآية ٩.

**(أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ)**[١٨٩].

هل لهم حق التصرف فى السموات والأرض وما يتنقل بينهما من مخلوقات، حتى يتمكنوا من منع الملائكة من تنزيل الوحى عليك؟!

سؤال يستنكر طغيانهم وجرأتهم مع حقيقة ضعفهم الذى يعجزهم دون أدنى شك عن منع نزول رسالة ربك إليك وإلى من يشاء من عباده؟

فإن ادعوا ذلك الملك **(فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ)**[١٩٠] التى ترفعهم إلى السماوات ليصدوا الملائكة ويحولوا دون نزولهم بالوحى عليك؟

دعوة إلهية على سبيل التحدى والاستهزاء.

فكأنه (ﷻ) قال متهكماً عليهم: ما يظن هؤلاء فى أنفسهم؟ أيتوهمون أنهم آلهة؟ فمن هم؟ أو ما هم؟ وأتى بالإجابة فى الآية التالية مباشرة: **(جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنْ الأَحْزَابِ)**.

عندما تسأل عن رجل تراه فتقول: ما هذا الرجل؟ فإنك تسأل عن حقيقته أو مكانته أو وظيفته؟

فيقول لك من يجيبك: "رجل ما"، يعنى: إنه مجرد رجل عادى لا يتفضل على غيره من أمثاله بشيء فلا تشغل نفسك به، ولا تهتم بشأنه فلا خطر منه ولا أهمية له.

فقوله (ﷻ) عن كفار قريش والعرب الذين شاقوا الرسول (ﷺ): "جند ما"، يعنى إنهم مجرد جنود، أى ما هم إلا مجرد جند.

فالحرف "ما" يفيد الاستهانة بشأنهم، والاستهزاء بهم، والاستثناء أو الحصر بمعنى أنهم ليسوا إلا جند.

---

(١٨٩) سورة ص: الآية ١٠.

(١٩٠) الأسباب: الطرق والوسائل التى يتمكن بها الإنسان من العروج فى السماوات. ولنتذكر قول فرعون لهامان عندما أراد أن يعلن تحديه لله (ﷻ) (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ) (سورة غافر: الآيتان ٣٦، ٣٧).

وتتوالى الأسئلة فى الفؤاد المتحفز لالتقاط الحقيقة. أى جند؟ أو جند من؟ يعنى لمن ينتمى هؤلاء الجند؟

والإجابة فى ختام الآية: "مِنْ الأَحْزَابِ".

والمعنى إنهم (**جُندٌ مِنْ الأَحْزَابِ**) الذين تجمعوا على حرب رسل الله أى ما هم إلا جنود من الأحزاب المحاربين لرسل الله.

فهل ينتصرون فى حربهم؟ هل يغلبون رسل الله؟

والإجابة: إنهم "جند مهزوم" أى مجرد جنود مهزومين فلن يغلبوا أبداً رسل الله ولن يفوزوا فى حربهم الظالمة ضدهم؛ لأن الله (ﷻ) أعلن هذه الحقيقة فى قوله: (**كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**)(١٩١).

وقد عبر الله (ﷻ) بصيغة المفرد (= مهزوم) مع أن الحديث عن جمع (= جند) لبيان وحدة المصير البائس الذى ينتظر جميع المحاربين لرسالة الله (ﷻ).

وقد قال الله (ﷻ) على لسان الكافرين المحاربين لرسوله (ﷺ): (**أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ**)(١٩٢).

وأين ومتى تتحقق تلك الهزيمة؟

والإجابة: "هنالك". وهى كلمة تشير إلى مقام بعيد عن التوقع، (= تنبؤ العقل البشري) مثل هزيمة الكفار على أيدى المسلمين يوم معركة بدر الكبرى، ويوم معركة "الأحزاب" حيث بدا للعقول أن الهزيمة واقعة لا محالة على المسلمين المحاصرين فى المدينة المنورة ثم جاءت الريح والملائكة فوقعت الهزيمة بجند "الأحزاب".

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً**)(١٩٣).

---

(١٩١) سورة المجادلة: الآية ٢١

(١٩٢) سورة القمر: الآية ٤٤.

(١٩٣) سورة الأحزاب: الآية ٩.

لقد أنار الله (ﷻ) لنبيه (ﷺ) بهذه الكلمة "هنالك" المستقبل القريب وكشف لـه عن المخبوء الذى تحقق فى العام الخامس بعد الهجرة.

وأما البعيد بكل تأكيد عن العقل البشرى فهو يوم القيامة، الذى يبدأ بالموت حيث تعجز أرواح الكافرين عن الصعود فى السماء فيتردون إلى الأرض مهزومين (**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**)(١٩٤).

ثم تأتى الساعة، التى تنتهى فيها هذه الحياة، (**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**)(١٩٥) حيث تصبح هزيمتهم محققة.

(**حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً**)(١٩٦).

(**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ**).

"أُوْلَئِكَ": إسم إشارة إلى الأمم التى كفرت برسالة الله (ﷻ) وحاربت رسله والمؤمنين. وهم المقصودون بلفظ "الأحزاب" النازل فى هذا المقام، وبذلك يمكننا إيجاز تفسيرنا للآية الكريمة فى عبارة نقول: ليس أولئك المحاربون لك إلا مجرد جنود من الأحزاب الذين سيلقون الهزيمة فى يوم قريب، يرونه - بعقولهم – بعيداً فلا يخطر لهم على بال.

وقد أكد (ﷻ) هذا المعنى فى قوله: (**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**)(١٩٧).

---

(١٩٤) سورة الأعراف: الآية ٤٠.
(١٩٥) سورة إبراهيم: الآية ٤٨.
(١٩٦) سورة الجن: الآية ٢٤.
(١٩٧) سورة غافر: الآية ٥.

"لِيَأْخُذُوهُ": ليقتلوه عقاباً له على جهره برسالة الله ودعوتهم إلى الإيمان بها والإذعان لأحكامها.

ولقد حذر الرجل الذى آمن من آل فرعون قومه من المصير البائس البشع الذى انتهت إليه الأقوام الكافرة التى حاربت رسل الله كما أخبرنا القرآن.

**(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ)**(١٩٨).

لفظ "الأحزاب" – هنا – يعنى مرة أخرى قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، الذين كفروا برسالة الله وحاربوا رسله.

ولا أعتقد – بعد هذه الرحلة الاستكشافية فى سماء النص القرآنى – أن ثمة ظلاً من شك يمكن أن يقع على الحقيقة الناصعة التى تقول: إن لفظ "الأحزاب" فى القرآن الكريم والسنة النبوية يختلف فى معناه تماماً عن مفهوم الأحزاب السياسية فى الدولة المعاصرة.

ويتبين لنا بوضوح تام تهافت رأى المفكرين والدعاه وقادة العمل الإسلامى الذين كان ذم الأحزاب فى القرآن الكريم والسنة النبوية وراء تحريمهم لتعدد الأحزاب السياسية فى الدولة الإسلامية المعاصرة.

**(ب) شبهة تفرق الأمة وتمزيق وحدتها:**

استند القائلون بتحريم تعدد الأحزاب السياسية فى الدولة الإسلامية على عدة نصوص دينية مقدسة توهموا – بفهمهم المخطئ – إنها أدلة على حظر قيام أحزاب سياسية متعددة فى إطار دولة تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية؛ لأن تنافس الأحزاب السياسية على الحكم يؤدى – بزعمهم – إلى تفرق الأمة وتمزيق وحدتها. وسنقوم فى هذا الفصل بذكر أهم آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة التى أوردوها وسنبين – بإذن الله – خطأهم لرفع هذه الشبهة.

---

(١٩٨) سورة غافر: الآية ٣٠.

وأول تلك الآيات القرآنية الكريمة قوله (ﷻ): (**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**)(١٩٩).

وقوله (ﷻ): (**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**)(٢٠٠).

وأول ما يلفت نظرنا أن أولئك القائلين بتحريم تعدد الأحزاب السياسية لا يأتون بالآيات القرآنية التى يستشهدون بها كاملة النص، بل إنهم فى أغلب الأحيان لا يوردون إلا جزءً من الآية التى يستدلون بها.

وفوق ذلك فإنهم ينتزعون الآية القرآنية من سياقها النصى والتاريخى. وهذه الرؤية الجزئية ضيقة الأفق هى التى تفضى دائماً إلى أفدح الأخطاء. والآيتان الكريمتان المذكورتان هنا نزلتا ضمن فوج من الوحى جاء إلى النبى (ﷺ) ليكشف حقيقة ما صنعه شاس بن قيس، وهو رجل يهودى بلغ من العمر عتياً، ومن مقت الإسلام حد أنه لم يعد يطيق أن يرى المسلمين يعيشون فى أمن وسلام بيثرب (= المدينة المنورة) التى كان اليهود يرون أنفسهم أصحابها الأصلاء، وأن الأوس والخزرج ما هم إلا ضيوف دخلاء عليها، قدموا من اليمن (جنوب الجزيرة العربية) فاستوطنوها وشاركوا اليهود فيها ثم غلبوا اليهود على أمرها، عندما صاروا أغلبية واليهود أقلية.

ومر ذلك الشيخ اليهودى ذات يوم على جماعة من الأوس والخزرج فى مجلس لهم بأحد أنديتهم، يتحدثون ويتضاحكون بادية على وجوههم السعادة والسرور.

فاشتعل الغيظ فى قلبه لما يرى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بأخوة الإسلام، التى جمعتهم ووحدتهم وقال فى نفسه: "لا والله ما لنا من قرار معهم إذا اجتمعوا بها". فعمد

---

(١٩٩) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(٢٠٠) سورة آل عمران: الآية ١٠٥.

إلى شاب يهودى من أتباعه، ووسوس إليه أن يذهب إلى جماعة المسلمين من الأوس والخزرج ويجلس معهم ثم يذكرهم بيوم بعاث[٢٠١] وما كان فيه بين القبيلتين العربيتين من اقتتال شديد وما تبادله الفريقان من أشعار الفخر والهجاء.

وما زال الشيطان اليهودى يذكر الفريقين بما كان فى قتال، وما قيل من أشعار، حتى تنازعوا وتفاخروا، وتواثب رجلان، يريد كل واحد منهما أن يفتك بأخيه المسلم: أوس بن قيظى أحد بنى حارثة من الأوس، وجابر بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج، وذلك بعد أن تباريا فى إنشاد شعر الفخر والحماسة، واندفع كل منهما نحو صاحبه يريد أن يقتله، وتنادى الفريقان بنداء العصبية القبلية: "يا للأوس....."، "يا للخزرج.....".

واشتعل الغضب فى قلوب الجميع وقيل للرجلين المتقاتلين:

"ارجعا.....ارجعا".

"السلاح..... السلاح".

وامتشق جميع الرجال سيوفهم، وقال أحد الفريقين للآخر: "إن شئتم رددناها جذعة"[٢٠٢].

وكانت الإجابة: مرحباً بالقتال وموعدكم الظاهرة[٢٠٣].

واستعد الفريقان للحرب، وأخذ كل منهما يحشد جنده للذهاب إلى ساحة القتال[٢٠٤].

---

(٢٠١) يوم بعاث حرب شديدة الوطأة وقعت بين الأوس والخزج، وقد تركت فى كل بيت من بيوت يثرب (= المدينة المنورة) مصيبة عظيمة وجرحاً أليماً، حيث لم يخل بيت من قتيل أو مصاب. وكانت الغلبة فى هذه الحرب للأوس على قلتهم. وذهب وفد من الخزرج إلى مكة فى موسم الحج التالى ليطلبوا المدد والحلف مع قريش ليساندوهم فى حربهم ضد الأوس. وهنالك قابلوا رسول الله (ﷺ) فعرض عليهم الإسلام وعقدوا معه بيعة الإيمان – التى ذكرناها سابقاً – فى نهاية العام الثانى عشر من نزول القرآن الكريم.

(٢٠٢) "وإن شئتم رددناها جذعة": إن رغبتم أعدنا الحرب شابة مشتعلة مرة أخرى.

(٢٠٣) الظاهره: حرة وهى منطقة جبلية مكونة من صخور بركانية قريبة من بيوت يثرب.

(٢٠٤) انظر كتاب "أسباب النزول" للإمام أبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسايورى – صـ ٨٥ – ٨٧ – مكتبة المتنبى – القاهرة. "وصفوة التفاسير" – المجلد الأول صـ ٢١٧.

وفى هذه الأثناء نـــزل فوج الوحى[٢٠٥] الذى كان ضـــمن آياتـــه قولـــه (ﷻ): **(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْـــدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)**.

الاعتصام: الاحتماء، أى طلب الحماية، ولذلك يقال لقوة الحراسة التى تسير مـــع القافلة لتحميها من اللصوص قطاع الطريق "عصمة".

والعبد المؤمن يطلب لنفسه – فى طريقه إلى الله (ﷻ) – الحماية من الضلال، وهو الانسياق وراء الأهواء والأوهام والعجز عن القيام بواجبات العبودية.

ومن ثم فهو يطلب لنفسه الهداية والتقوية (المعونة) حتى ينجـــو مـــن عـــذاب الله وسخطه.

وقوله (ﷻ) مخاطباً المؤمنين: **(وَاعْتَصِمُوا)** يعنى: واطلبو الحماية لأنفســـكم مـــن الضلال والضعف (= العجز) المفضيان بكم إلى الخروج عن صراط الله المستقيم، الذى له وحده أن يؤدى بكم إلى رحمة الله (ﷻ).

ولذلك ربط الله (ﷻ) فى القرآن الكريم بين الاعتصام بالله وبين الظفـــر بالهـــدى والنصر والنجاة من الهلاك الذى يعنى فى الدنيا: الموت، وفى الآخرة الوقوع فى عـــذاب الله[٢٠٦].

---

(٢٠٥) تضمن هذا الفوج الآيات ٩٨-١٠٩ من سورة آل عمران.

وخرج رسول الله (ﷺ) إلى الطائفتين، وقد استعدوا للقتال فقال لهم يعلو صوته بالغضب: "الله... الله.... أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألّف بينكم فترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً". فعرف القوم أنها نـــزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيـــديهم، وبكـــوا وعانق بعضهم بعضاً. ثم انصرفوا مع رسول الله (ﷺ) بعد أن ألقى عليهم ما أوحى إليه.

(٢٠٦) انظر إلى قوله (ﷻ): (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَـــدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) سورة آل عمران: الآية ١٠١.

وقوله (ﷻ): (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً) سورة النساء: الآية ١٧٥.

يعتصم بالله: يطلب الحماية من الله.=

والسؤال: ما هو السبيل إلى العصمة (= الحماية من الضلال) أو بم يكون الاعتصام؟

والاجابة: "بِحَبْلِ اللَّهِ"

والحبل: اسم للسبب المؤدى إلى الغاية، كما أنه يطلق على "العهد" الذى يتحقق بالمحافظة عليه الأمن وضمان الحقوق. قال الله (ﷻ) واصفاً اليهود: **(ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)**[٢٠٧].

"وَحَبْلٍ اللَّهِ": هو القرآن الكريم، وهو العهد الذى بين الله (ﷻ) والمؤمنين به.

قال رسول الله (ﷺ): "إن هذا القرآن هو حبل الله المتين الممدود من السماء إلى الأرض وصراطه المستقيم، وهو النور المبين، وهو الشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه"[٢٠٨].

---

=وَاعْتَصَمُوا بِهِ: طلبوا الحماية منه (ﷻ).

وقوله (ﷻ): (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) سورة المائدة الآية ٦٧.

"يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ": يحميك من الناس فلا يستطيعون إضلالك ولا قتلك. فالعصمة حماية من الضلال والخطر المسبب للهلاك.

وقوله (ﷻ) على لسان الابن الكافر الضال المنسوب لنوح (عليه السلام): (قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ) سورة هود الآية ٤٣.

"يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ": يحيمنى من الغرق فى الماء.

"لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ": لا حامى (واقى) اليوم من عذاب الله. وانظر إلى الآية رقم ٢٧ من سورة يونس، والآية رقم ٨٧ من سورة الحج، والآية ١٧ من سورة الأحزاب، والآيتين ٣٢، ٣٣ من سورة غافر.

(٢٠٧) سورة آل عمران: الآية ١١٢.

"حَبْلٍ مِنْ اللَّهِ": عهد من الله (ﷻ) يضمن لهم النجاة من الذلة التى ضربت عليهم، أى أحاطت بهم فى مكان أمكن إحكام القبضة عليهم.

"وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ": وعهد من الناس معهم.

(٢٠٨) انظر تفسير القرطبى للآية ١٠٣ من سورة آل عمران صـ ١٤٠١ و مختصر تفسير ابن كثير – المجلد الأول صـ ٣٠٥، وتفسير الطبرى – الجزء الرابع صـ ٣١. وقد جمعنا فى سياق واحد الروايات المسندة إلى عبد الله بن مسعود وعلى بن أبى طالب وأبى سعيد الخدرى (رضى الله عنهم أجمعين).

"شافع مشفع وماحل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار"(٢٠٩).

والأمر بالاعتصام بحبل الله هو – إذن – أمر بالتمسك بالقرآن باعتباره العاصم من الضلال، وهو ما يعنى الوفاء بعهد العبودية والخلافة (=الأمانة) المبرم قديماً مع الله (ﷻ) والذى جاء هذا القرآن ليذكرنا به.

قال الإمام الهروى (قدس الله سره):

"الاعتصام بحبل الله هو المحافظة على طاعته مراقباً لأمره"(٢١٠).

فالعبد فى منـــزلة الاعتصام بحبل الله يبحث ويرصد كل ما أمر به الله (ﷻ) ليبادر بطاعته حفاظاً على عهده مع الله (ﷻ).

قوله (ﷻ): (**جَمِيعاً**) يعنى: مجتمعين كلكم على هذا الأمر بالاعتصام، والمقصـــود: ليكن اعتصامكم بحبل الله سبباً فى تجمعكم واجتماعكم بموجب الأخـــوة فى الإيمـــان، وحائلاً مانعاً دون تفرقكم. ولذلك قال (ﷻ) بعدها مباشرة: (**وَلا تَفَرَّقُـــوا**) أى: ولا تتفرقوا إلى جماعات متنافرة متناحرة بالتعصب إلى القبائل والشعوب التى تنتسبون إليها صراعاً (تقاتلاً) على متاع هذه الحياة الدنيا.

فهذا نهى عن رفع التعصب إلى الأنساب والأحساب (= الآباء والأوطان والمكانة الاجتماعية ومستوى الثراء.....) فوق أخوة الإيمان التى يجب شرعاً أن تحرم على المسلم أن يقتل "أخاه" المسلم أو يظلمه.

قال رسول الله (ﷺ):

"المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخونه ولا يخذله ولا يكذبـــه، كـــل

---

(٢٠٩) انظر الحديث رقم ٤٤٤٣ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) للألبـــانى عـــن ابـــن مسعود وجابر (رضى الله عنهما).

ماحل: لاعن.

(٢١٠) انظر منـــزلة الاعتصام فى كتاب "مدارج السالكين" لابن القيم. شرح "منازل السائرين إلى الحق المـــبين" للإمام الهروى صـــ ٣٥١ – ٣٥٧.

المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة ولا يحل لمسلم باع من أخيه بيعاً فيه عيب إلا بينه له. بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم".

ثم أخذ رسول الله (ﷺ) يدق بيده على صدره يريد الإشارة إلى قلبه وصوته يعلو قائلاً: "التقوى ها هنا، التقوى ها هنا..... التقوى ها هنا"(٢١١).

وقال رسول الله (ﷺ):

"ثلاثة من الجاهلية: الفخر بالأحساب، والطعن فى الأنساب، والنياحة(٢١٢)".

الفخر بالأحساب: التفاضل بالانتماءات العائلية والقبلية والمكانة الاجتماعية بمعنى الاعتزاز والتفاخر بالسلالة التى انحدر منها الإنسان أو الرتبة الإجتماعية التى يحتلها بين الناس.

وقال (ﷺ):

"أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد. كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب لينتهين قوم يفتخرون بأبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان".

"يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل برتقى كريم على الله، ورجل فاجر شقى هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب"(٢١٣).

---

(٢١١) رواية تجمع فى سياق واحد نص مختلف الروايات المسندة إلى عدد من الصحابة مثل أبى هريرة وابن عمر وعقبة بن عامر (رضوان الله على الجميع) والتى أوردها الألبانى فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) تحت الأرقام ٦٧٠٤، ٦٧٠٥، ٦٧٠٦، ٦٧٠٧ وقد أخرجها البخارى ومسلم وأحمد بن حنبل وأبو داود الترمذى والنسائى.

لا يسلمه: لا يتركه فريسة لأعدائه. وهذه الرواية التى سقناها هنا تعد جزءاً من حديث نبوى طويل.

(٢١٢) حديث رقم ٣٠٥٥ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) – للألبانى.

(٢١٣) رواية تجمع فى سياق واحد جزءاً من خطبة الوداع – كما رواها ابن هشام فى السيرة النبوية ونصوص الأحاديث رقم ٤٥٦٧ ورقم ٦٧٩٨ ورقم ٧٨٦٧ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) للألبانى.

الجعلان: جمع جعل، وهو الحرباء.

وقال (ﷺ):

"من قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبية، أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتلته جاهلية"(٢١٤).

وقال (ﷺ):

"مثل الذى يعين قومه على غير الحق مثل بعير تردى وهو يجر بذنبه"(٢١٥).

يشبه رسول الله (ﷺ) المتعصب لقومه الأعمى عن مقتضى الحق الذى يساعد أهله وعشيرته بغض النظر عن العدل بالجمل الذى يسقط من مكان عال وهو يشد من ذيله. وهو تصوير بليغ يوضح أن المتعصب الأعمى يفقد إنسانيته، لأن جوهر الإنسانية يكمن فى الاحتكام إلى العقل الذى يقضى بإقامة العدل(٢١٦).

والخلاصة أن قوله (ﷻ): (**وَلا تَفَرَّقُوا**) نهى عن التعصب الأعمى عن مقتضى الحق (=العدل) للقبيلة أو الوطن. وهذا التفسير يؤيده الظرف التاريخى الذى نزلت فيه الآية، أى ما كان يسميه القدامى "سبب النزول"؛ لأن هذه الآية نزلت ضمن فوج من الوحى عندما استعد الأوس والخزرج للقتال بدافع من العصبية القبلية الجاهلية، ويؤيده أيضاً على نحو قاطع نص الآية نفسها إذ يقول الله (ﷻ) بعدها مباشرة (**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً**).

يذكر قبيلتى الأوس والخزرج بما كان بينهما من عداء وقتال أيام الجاهلية قبل دخولهم فى الإسلام، وينبههم إلى فضل الله (ﷻ) عليهم إذ أزال العداوة التى كانت

---

(٢١٤) الحديث رقم ٦٢٢٧ فى نفس المصدر.

(٢١٥) الحديث رقم ٥٨٣٨ فى نفس المصدر.

(٢١٦) انظر كتابنا "الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة" صـ ١٩٠ – ١٩١، وصـ ٣٣١ – دار القلم – القاهرة ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م.

بينهم وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته عليهم إخواناً.

"نِعْمَةَ اللَّهِ": فضل الله الذي يفيض به على عباده، أى رحمته التى يجود بها على خلقه بمحض جوده. ولاشك فى أن أعظم فضل لله (ﷻ) على عباده، والذى يكمن فيه كل فضل هو وحيه (ﷻ) إلى نبيه الأمى (ﷺ) ومن ثم نفهم أن " نِعْمَةَ اللَّهِ " هى كلمته التى أنزلها على نبيه (ﷺ) والتى تتضمن شريعة الإسلام. وبذلك يصبح معنى قوله (ﷻ): (**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**) هو: انتبهوا إلى رسالة الله التى أنزلها عليكم عبر نبيه ورسوله (ﷺ) وهى دين الإسلام(٢١٧).

"فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً": فأصبحتم بفضل دينه الإسلام الذى آمنتم به متحابين كأنكم صرتم أبناء رجل واحد، بعد أن كنتم فى الجاهلية قبل الإسلام أعداءً يقتل بعضكم بعضاً، "وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ" بسبب كفركم وتقاتلكم، "فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا" بالإيمان الذى ألف بين قلوبكم.

"كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ": على هذا النحو التمثيلى (التصويرى) البليغ يوضح الله (ﷻ) لكم آياته راجياً لكم الاهتداء إلى الصراط المستقيم المفضى بالسالك فيه إلى الرحمة فى الدنيا والآخرة.

وأعتقد أننا بعد هذا البيان لا نحتاج إلى قول أن أمر الله (ﷻ) لكل المؤمنين بالاعتصام بحبل الله (**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً**) ونهيه لهم عن التفرق (= ولا تفرقوا)، لا علاقة له بقيام الأحزاب السياسية فى الدولة الإسلامية؛ لأن الأحزاب

---

(٢١٧) انظر إلى قوله (ﷻ): (أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) الآية ٢٨ من سورة إبراهيم.

"بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً ": غيروا رسالة (=كلمة) الله بباعث من كفرهم.

"وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ": وقادوا قومهم الذين اتبعوهم على طريق الضلال إلى جهنم التى تعد بيتاً للفساد والدمار.

وانظر إلى قوله (ﷻ): (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) الآية ١١ من سورة الضحى.

ومعناه: فبلغ (=فحدث) الناس برسالة الله إليك، فهذا واجبك. فى هذين الموضعين وغيرهما يكون معنى "نِعْمَةَ اللَّهِ": رسالة الله أو كلمته النازلة فى الوحى إلى أنبيائه.

السياسية فى الدولة المعاصرة لا تنشأ على أساس قبلى أو طائفى، ولا تقوم بالدعوة إلى العصبية القبلية، ولا تعمل على تفضيل سلالة أو فئة من الناس فوق غيرهم، وإذا فعلت هذا فينبغى تحريمها أو حظر نشاطها انطلاقاً من تأكيد الإسلام لمبدأ المساواة بين البشر وتكريم جميع بنى آدم (عليهم السلام).

فالذى يجمع الأفراد المنتمين للحزب السياسى هو الاتفاق على رؤية للدولة المنشودة التى يطلبون تحقيقها، والبرنامج (= المخطط) السياسى الذى يتعهدون أمام الشعب بتطبيقه حال وصولهم إلى السلطة عبر انتخابات حرة ونزيهة يحصلون بها على تأييد أغلبية الناس لبرنامجهم السياسى.

وقوله (سبحانه وتعالى): **(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ)** نهي للمؤمنين بالقرآن عن أن يحذوا حذو أهل الكتاب: اليهود والنصارى الذين افترقوا إلى جماعات أو طوائف دينية متنافرة ومتناحرة كما أخبرنا رسول الله (ﷺ) وكان ذلك – كما بينا من قبل – لأنهم فرقوا (=قطعوا) دين الله إلى أجزاء متضاربة بعد أن أساءوا التعامل مع رسالة الله كما جاء بها الأنبياء، ورفعت كل فرقة منهم رأيها إلى مكانة الدين المنزل من عند الله (سبحانه وتعالى) واتخذت منه وسيلة للبغى على الآخرين، فكان الدين سبباً للصراع والقتال بدلاً من أن يكون باعثاً على الألفة والوحدة.

والخلاصة أن قول الله (سبحانه وتعالى) فى الآية: **(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا)** إنما هو نهى عن التعصب الأعمى للرأى القائم على الاجتهاد البشرى القابل للخطأ فى فهم قضية دينية خلافية والتحذير من تحويل الآراء البشرية – التى تخالطها الأوهام وتحركها الأطماع الدنيوية – إلى أديان، وجعلها وسيلة للعلو فى الأرض والفساد.

قوله (سبحانه وتعالى): "وَاخْتَلَفُوا" يعنى – هنا – وخالفوا بعضهم بعضاً وتنازعوا.

"مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ": من بعد ما نزل إليهم – فى وحى الله إلى أنبيائه – الآيات الواضحات المبينات أن رسالة الله (سبحانه وتعالى) تدعو خلقه إلى التآلف والتعاون على البر والتقوى، والتوحد فى طريق طاعة الله (سبحانه وتعالى).

"وَأُوْلَئِكَ": اسم إشارة إلى الذين فرقوا دين الله.

"لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ": فى جهنم يوم القيامة.

وهذا الختام للآية يدل على أن الحديث عن فرق كافرة ضلت عن سبيل الله ولذلك استحقت دخول جهنم وليس عن أحزاب سياسية تتنافس بوسائل سلمية للظفر بثقة الناس من أجل الوصول إلى كرسى الحكم لتحقيق الأهداف السياسية التى نالت تأييد أغلب الشعب.

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى أساء القائلون بتحريم تعدد الأحزاب السياسية فهمها واعتبروها دليلاً على صحة رأيهم، قوله (ﷻ): **(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)**(٢١٨).

"يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً": يفرقكم إلى جماعات مختلفة. استعمل (ﷻ) لفظ "اللبس" للتعبير عن معنى التفرق للإشارة إلى أن تفرق الأمة الواحدة إلى عدة جماعات مختلفة ومتنازعة إنما يقع عندما يختلط أمر الدين على الناس ويساء فهمه؛ لأن لفظ "اللبس" يدل على الاختلاط واستتار (عدم ظهور) الحقيقة.

و لم ينتبه المحرمون لتعدد الأحزاب السياسية إلى الربط الذى قام به حرف العطف "الواو" بين اللبس إلى شيع وبين اندلاع القتال، لأن الآية تقول: **(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)** فعطف إذاقة البأس – الذى يعنى الحرب والقتال – على انقسام الناس إلى شيع، مما يدل على أننا بصدد الحديث عن طوائف متقاتلة وليس عن أحزاب سياسية يتفق الجميع على أنها تتنافس على السلطة بوسائل سلمية.

وعلى النقيض مما يرى المحرمون لتعدد الأحزاب السياسية نقول: إن عدم الاعتراف بأن التنافس على السلطة باعث قوى للسلوك البشرى ومحرك جوهرى لحركة التاريخ هو الذى يؤدى إلى اندلاع القتال واشتداد الفتن التى تنتهك فيها الحرمات والحقوق الإنسانية.

---

(٢١٨) سورة الأنعام: الآية ٦٥.

ومن ثم يصبح السماح بقيام الأحزاب السياسية هو الوسيلة الآمنة "للتنفيس" عن الرغبة الإنسانية فى السلطة بطرق سلمية تقى المجتمعات البشرية من شرور الصراع الدموى.

واستندوا كذلك على قول الله (ﷻ): **(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)**(٢١٩) .

ولا سند لهم فى هذه الآية؛ لأن اسم الإشارة "هذا" يشير إلى القرآن الكريم، وقد سبق أن ذكرنا أن رسول الله (ﷺ) وصف القرآن الكريم بانه صراط الله المستقيم. والآية تقول: إن هذا القرآن هو صراط الله الذى نزل إليكم مستقيماً ليسهل عليكم الصعود عليه والوصول إلى الله (ﷻ) فأطيعوا أمره واجتنبوا نهيه، ولا تسيروا فى الطرق الأخرى التى خطتها التعاليم، التى شوهتها الأهواء والأوهام البشرية فتتفرقوا إلى طوائف متنازعة وتبتعدوا عن السبيل الوحيد المفضى بالسالكين فيه إلى رحمة الله فى الدنيا والآخرة.

ذلك الأمر باتباع رسالة الله النازلة فى وحيه والسير فى السبيل الذى رسمته أوامره ونواهيه..... كان ضمن الوصايا التى أمركم الله بها راجياً أن تحتموا بها من عذاب النار.

واستندوا كذلك إلى قوله (ﷻ): **(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)**(٢٢٠) .

ولا سند لهم – كذلك – لأن الآية الكريمة تتحدث عن شيع نشأت من تفرقة الدين. إذن فالكلام فى الآية عن فرق ومذاهب دينية تتبادل الاتهام بالكفر وتدعى كل

---

(٢١٩) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٢٢٠) سورة الأنعام: الآية ١٥٩

"لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ": إنك لا تشاركهم ولاتشترك معهم فى أى شيء، فأنت برئ منهم تماماً فمحال أن تنتسب إليهم ومحال أن ينسبوا إليك.

"إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ": ليس لهم مصير سوى الرجوع إلى الله والقيام بين يديه (ﷻ) للحساب والحكم عليهم.

جماعة منها لنفسها الإيمان، وأنها على الحق وتستحق الرحمة والخلود فى الجنة وأن غيرها على الباطل ويستحقون العذاب والخلود فى النار. وهذا ليس شأن الأحزاب فى الدولة المعاصرة.

واستندوا كذلك على قول الله (ﷻ):

**(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)**(٢٢١).

ولا سند لهم، لأن التنازع – هنا – يعنى الخلاف العنيف المفضى إلى التقاتل، فهو الصراع الدموى المؤدى إلى تمزيق وحدة الأمة وتحويلها إلى طوائف متقاتلة فتفشل عند مواجهة أعدائها وتضيع قوتها.

"فَتَفْشَلُوا": فتعجزوا عن تحقيق هدفكم وتنهزموا أمام عدوكم.

"وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ": وتضيع قوتكم.

وكعادتهم انتزعوا الآية من سياقها النصى فى القرآن الكريم، وسياقها التاريخى الذى نزلت فيه. ولو أمعنوا النظر فى الظرف التاريخى الذى وردت فيه الآية، والسياق النصى الذى جاءت ضمنه، لعلموا أن الآية تحمل أمر الله (ﷻ) للمؤمنين بطاعته وطاعة رسوله (ﷺ) وتنهاهم عن التقاتل حتى لا يفشلوا وتضيع قوتهم وتوصيهم بالصبر. وذلك فى سياق الحديث عن غزوة بدر الكبرى التى كانت أول معركة حربية شديدة الوطأة وعظيمة الأثر فى حركة الصراع بين المسلمين وكفار قريش. فالآية السابقة تقول: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)**(٢٢٢).

والآية التالية تقول: **(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ**

---

(٢٢١) سورة الانفال: الآية ٤٦.

(٢٢٢) سورة الآنفال: الآية ٤٥.

**وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)**[٢٢٣].

يصف (ﷻ) حال قريش عند خروجها لقتال المسلمين يوم بدر فى رمضان من العام الثانى من الهجرة، فقد خرجوا كبراً واستعلاءً يريدون أن يظهروا لقبائل العرب قوتهم ويمنعون الناس من الدخول فى الإسلام.

والسياق كله يتحدث عن حرب بين المسلمين والكفار فما علاقة ذلك بتعدد الأحزاب فى دولة إسلامية؟!

واستند بعضهم إلى قول الله (ﷻ):

**(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)**[٢٢٤].

زاعماً أن تقسيم الناس إلى شيع إنما هو من صنيع المفسدين مثل فرعون، وأن تعدد الأحزاب ليس إلا نوعاً من تقسيم الناس إلى شيع وهو الأمر الذى يفضى – بزعمه – إلى استعبادهم !!

وغفل هذا الزاعم أن القرآن الكريم يبين أن غرض فرعون – وكل حاكم فاسد – من تقسيم الناس إلى شيع كان اضطهاد طائفة وتسخيرها لخدمة أهوائه.

فالآية الكريمة تقول: **(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ)** فقوله (ﷻ): **(يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ)**: بيان للباعث الذى حمل فرعون على جعل أهل مصر شيعاً. فما علاقة هذا بتعدد الأحزاب السياسية فى دولة إسلامية معاصرة؟!.

واستندوا كذلك إلى قول الله (ﷻ):

**(شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**

(٢٢٣) سورة الأنفال: الآية ٤٧.

(٢٢٤) سورة القصص: الآية ٤.

**لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)**[٢٢٥].

ولا حجة لهم فإن الحديث فى الآيتين عن تفرقة الدين والتفرق فيه.

وننتقل الآن إلى بعض الأحاديث النبوية التى استشهدوا بها للتدليل على صحة رأيهم القائل بتحريم تعدد الأحزاب السياسية.

استشهدوا بالحديث الذى رواه عرفجة (ﷺ) ونصه الكامل – كما يمكننا جمعه من مختلف الروايات التى أخرجها الإمام مسلم [٢٢٦].

يقول: "ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع فاقتلوه كائناً من كان" ثم شرح (ﷺ) ما يقصد فقال:

"من آتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه"[٢٢٧].

"ستكون هنات هنات": سيقع الحكام فى بعض الأخطاء والمخالفات لمبادئ أو أحكام الشريعة وستتوالى وتتكاثر هذه الأخطاء بمرور الزمن.

والواجب الشرعى إزاء هذه الهنات هو النهى عن المنكر بالقلب واللسان واليد على قدر الاستطاعة.

ولكن لا يجب أن ينتهز بعض الطامعين فى السلطة هذه الأخطاء والمخالفات ليتخذوا منها ذريعة لتأليب الناس، وإثارتهم ضد الحكام ويمهدوا بذلك لأنفسهم الطريق للانقضاض على كرسى الحكم.

كما فعل معاوية بن أبى سفيان عندما اتخذ من اتهام على بن أبى طالب (ﷺ) بالتخاذل عن طلب الثأر ممن قتل عثمان بن عفان (ﷺ) ذريعة لانتزاع الخلافة، فصار قميص عثمان الملطخ بدمه شعاراً ورمزاً للخداع السياسى الذى يمارسه الطامعون فى

---

(٢٢٥) سورة الشورى: الآيتان ١٣، ١٤.

(٢٢٦) انظر "صحيح مسلم بشرح النووى" – الجزء الثانى عشر كتاب الإمارة – باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع.

(٢٢٧) أخرجت هذه الفقرة من الحديث النبوى الشريف كحديث مستقل فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) تحت رقم ٥٩٤٤.

الحكم من أجل الوصول إلى السلطة بإثارة الفتن باسم مبادئ الشـــريعة أو دعـــاوى الإصلاح.

ففى مثل هذا الظرف ستنقسم الأمة إلى طائفتين متناحرتين. ولذلك حذر الرسول (ﷺ) من استغلال أخطاء الحكام باتخاذها وسيلة لانتزاع السلطة من أيديهم بـــالقوة؛ لأن ذلك سيفضى - لا محالة – إلى تفريق أمر الأمة إلى طوائف متقاتلـــة طمعـــاً فى الحكم، وليس سعياً وراء اصلاح الأخطاء كما يدعى كذباً فى مثل هذه الحال.

"فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان".

قوله (ﷺ): "وهى جميع": يعنى والأمة مجمعة على حاكم واحد، وشملها مجتمع دون فتن تهدد استقرارها ووحدتها.

وهو المعنى الذى أكده (ﷺ) فى الفقرة التالية الشارحة لمقصوده، فقال: "وأمـــركم جميع على رجل واحد".

العصا كناية أو رمز للسلطة وقوله (ﷺ):

"يشق عصاكم" يعنى يقسم السلطة التى تحكمكم وتحفظ وحدتكم بين متنافســـين متصارعين: مما يفضى إلى تفريق الأمة إلى طائفتين متقاتلين: كل طائفة تؤيد وتناصـــر أحد المتنافسين، ولذلك قال (ﷺ) تفسيراً لنتيجة شق العصا: "أو يفرق جماعتكم".

والمقصود أن الحديث النبوى الشريف تحذير من المكر السيئ والمكائد الخبيثة الـــتى يدبرها الطامعون فى السلطة للانقضاض على كرسى الحكم، وانتزاعه مـــن الحـــاكم الشرعى الذى أجمعت عليه الأمة، أى حظى بتأييد الأغلبية.

ومن ثم فالحديث النبوى الشريف يعد أمراً بتحصين سلطة الحاكم الشرعى – الذى بينا من قبل أنه يحصل على الحكم بالبيعة الصحيحة، ويقوم بتحقيق العدل ويدير امـــر البلاد بالشورى – ضد البغاة، وليس نهياً عن قيام الأحـــزاب السياســـية فى الدولـــة الإسلامية من أجل الحصول على السلطة بوسائل سلمية تجسم معنى البيعة الشرعية.

واستشهدوا بالحديث الذى رواه أبو هريرة (رضي الله عنه) والذى يقول: "من خـــرج مـــن

الطاعة، وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل فقتلة جاهلية ومن خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفى لذى عهد عهده فليس منى ولست منه"(٢٢٨).

"من خرج من الطاعة": من أعلن العصيان والتمرد على الحاكم الشرعى الذى يستحق الطاعة الواجبة على كل مسلم و"فارق الجماعة" بمحاولة انتزاع السلطة بالقوة من الحاكم الشرعى "فمات" على تلك الحال "مات ميتة جاهلية"؛ لأنه قد ترك دين الإسلام الذى يوجب الطاعة للحاكم الشرعى، وإلا ضربت الفوضى البلاد وانتهكت حرمات العباد.

والخروج على الحاكم الشرعى الذى يعنى منازعته السلطة بالقوة هو جريمة البغى. والباغى يماثل فى جريمته المتعصب لقبيلته، الأعمى عن مقتضى الحق الذى يقاتل من أجل نصر قومه بغير الحق، ويماثل المفسد فى الأرض المحارب لشريعة الله الذى يقطع الطريق على الناس وينتهك الحرمات، أى المرتكب لجريمة الحرابة ولذلك جمع رسول الله (ﷺ) بين الثلاثة فى حديثه الشريف وبين تبرؤه (ﷺ) منهم. والسؤال ما علاقة البغي والقتال دفاعاً عن القبيلة بغير الحق أو الحرابة بتعدد الأحزاب السياسية فى دولة معاصرة؟!

واستشهدوا بالحديث الذى رواه ابن عباس (رضي الله عنه) ويمكن جمع نصه على النحو الآتى:

"من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإنه ليس أحد من الناس يفارق

---

(٢٢٨) نفس المصدر.

وقد وردت روايات بلفظ "عصبية" بدلاً من "عصبة" انظر الحديث رقم ٦٢٢٧ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) وقد روى بعض هذا الحديث بلفظ "من قتل تحت راية عمية، ينصر العصبية ويغضب للعصبية فقتلته جاهلية" – أنظر الحديث رقم ٦٤٤٢ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

الجماعة شبراً فيموت، إلا مات ميتة جاهلية"[٢٢٩].

الضمير فى قوله (ﷺ): "عليه" يرجع إلى الأمير. والأمر بالصبر على الأمير رغم ما يفعله من أشياء تثير الكراهية معناه ألا تكون الكراهية سبباً فى انخلاع الإنسان من البيعة، وتقويض شرعية الحاكم، الذى من المفترض شرعاً أنه لم يحصل على الحكم إلا بالبيعة (= الاختيار الحر من أغلب الناس)؛ لأن فتح الباب واسعاً أمام الخروج من الطاعة (تقويض شرعية الحكم) فى كل مرة يقع فيها شيء مكروه، سيفضى – لا محالة – إلى تدمير استقرار المجتمع، وتمزيق وحدة الأمة بالصراع العنيف على السلطة وما ينتج عنه من فتن وانتهاك للحرمات.

والصبر على الأمير فى حال وقوع المكروه منه لا يعنى أبداً الرضى بالظلم، أو الكف عن الأمر بالمعروف (= العدل) والنهى عن المنكر (= الظلم)؛ لأن أحكام الشريعة لا تتناقض مع بعضها ولا يضرب بعضها بعضاً، بل يعنى ألا يبلغ حد الاعتراض الخروج على الحاكم الشرعى المستحق للطاعة.

فإن الرسول (ﷺ) الذى أمر بالصبر على المكروه الذى يقع من الأمير، هو نفسه (ﷺ) الذى أمر بمقاومة الظلم وإنكاره فقال (ﷺ):

"من قتل دون ماله مظلوماً فله الجنة، فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد"[٢٣٠].

وقد رأينا كيف بايع رسول الله (ﷺ) الأنصار – فى ذى القعدة من العام الثامن بعد

---

(٢٢٩) الحديث ٦٢٤٩ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير). وانظر صحيح مسلم بشرح النووى – الجزء ١٢ – كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفى كل حال وتحريم الخروج من الطاعة ومفارقة الجماعة. صـ ٢٣٩ – ٢٤٠.

(٢٣٠) رواية تجمع فى سياق واحد نص الأحاديث (الروايات) التى أوردها الألبانى فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) تحت الأرقام ٦٤٤٤، ٦٤٤٥، ٦٤٤٦، ٦٤٤٧. وقد أخرج تلك الروايات (الأحاديث) البخارى ومسلم وأحمد بن حنبل والترمذى والنسائى وابن حبان وأبو داود والضياء عن عبد الله بن عمرو وسعيد بن زيد، وبريدة وسويد بن مقرن وابن عباس (رضوان الله عليهم جميعاً).

الهجرة عند قسم غنائم معركة حنين "على السمع والطاعة فى المنشط والمكره والعسر واليسر وأثرة عليكم وألا تنازعوا الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان"، وبينا أن هذه البيعة كانت بمثابة عهد من الأنصار بالتنازل عن حقهم فى طلب الخلافة (= الحكم) والصبر على ما سوف يعانونه من أثره عليهم. وفى نفس هذه البيعة أمرهم بإعلان الحق ومقاومة الظلم "وأن تقولوا بالحق حيثما كنتم لا تخافون فى الله لومة لائم".

لقد أمرهم (ﷺ) بالصبر: "أصبروا فإنكم ستلقون بعدى أثرة شديدة"[٢٣١] وفى نفس الوقت أمرهم بالصدع بالحق، وهو ما يعنى إنكار الظلم ومقاومته بما تبيحه الشريعة وتتيحه الأقدار من وسائل.

والخلاصة أن أمر الرسول (ﷺ) بالصبر على المكروه الصادر عن الأمراء لا يعنى الرضى بالظلم والاستخذاء والتذلل للظالمين ولكن يعنى ألا يبلغ حد الانكار مبلغ إعلان العصيان والتمرد المقوض لشرعية الحاكم ما دام لم يزل مستحقاً للطاعة بالنظر إلى أسس الشرعية ومراعاة صالح الأمة.

ويؤيد تفسيرنا قوله (ﷺ) فى نفس الحديث: "فإنه ليس أحد من الناس يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية".

وقد بينا آنفاً أن مفارقة الجماعة تعنى منازعة الحاكم السلطة بالقوة، أى إعلان عدم الاعتراف بشرعيته، ومحاولة انتزاع الحكم منه. فالتحذير من مصير المفارق للجماعة بعد الأمر بالصبر على ما يقع من الأمير من مكاره، يعنى ألاّ يبلغ الاعتراض على ما يقع من مظالم حد تقويض شرعية الحاكم ومحاولة انتزاع السلطة منه.

فهذا الحديث النبوى الشريف تحذير من الصراع الدموى على السلطة بدعوى كاذبة تعلن مقاومة الظلم، ولكن ليس من المعقول ولا المقبول شرعاً أن يطلب الرسول (ﷺ) الرضى بالظلم، والخنوع والاستكانة للظالمين، فضلاً عن الركون إليهم، وقد

---

(٢٣١) راجع صـ ٦٣ – ٦٦ من هذا الكتاب.

جعل القرآن الكريم الأمر بالمعروف (=العدل) والنهي عن المنكر (= الظلم) السمة الجوهرية التى تمنح الأمة الإسلامية هويتها وقد قال رسول الله (ﷺ):

"والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم"(٢٣٢).

واستشهدوا بحديث: "من خلع يداً من طاعة، لقى الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية"(٢٣٣).

"خلع يداً من طاعة": أخرج نفسه من البيعة العامة للحاكم الشرعى التى توجب طاعته وأعلن منازعته له.

ولا نحتاج إلى قول أن الطاعة الواجبة شرعاً لا تكون فى معصية الله (ﷻ)؛ لأن رسول الله (ﷺ) قال: "لا طاعة لأحد (مخلوق) فى معصية الله (الخالق) إنما الطاعة فى المعروف"(٢٣٤).

ويتضح لنا أن هذه الأحاديث النبوية الشريفة التى ذكرناها هنا وغيرها مما استشهد به القائلون بتحريم تعدد الأحزاب السياسية فى الدولة الإسلامية، بدعوى تفرقة الأمة لا تؤيد رأيهم الخاطئ، الذى بنى على اساءة فهم النصوص الصحيحة، لأن كل تلك الأحاديث النبوية تدور حول معنى واحد هو تحصين السلطة الشرعية ضد البغى(٢٣٥) ولا تحظر قيام الأحزاب السياسية التى تعد تعبيراً عن الاختلاف البشرى الفطرى الذى جعله الله (ﷻ) آية على قدرته، ومنبراً للأمر المعروف والنهى عن المنكر، ووسيلة لحسن اختيار الحاكم.

---

(٢٣٢) الحديث رقم ٧٠٧٠ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٢٣٣) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه – كتاب الإمارة: باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفى كل حال وتحريم الخروج من الطاعة ومفارقة الجماعة.

(٢٣٤) رواية تجمع فى سياق واحد نص الأحاديث (الروايات) التى أوردها الألبانى فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) تحت الأرقام ٢٣٢٧، ٧٥١٩، ٧٥٢٠.

(٢٣٥) انظر كتابنا "الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة" – صـ ٣٣٨ – ٣٥٠، دار القلم – القاهرة (٣٦ شارع القصر العينى) – ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

وبعيداً عن النصوص الدينية المقدسة، فإن أولئك القائلون بتحريم تعدد الأحـــزاب السياسية، بدعوى تفرقة الأمة وتمزيق وحدتها يتغافلون عن حقائق العالم المعاصر، الـــتى تعلن بكل وضوح أن الدول الديموقراطية الحديثة التى تستمد شرعيتها من الشـــعوب تقوم فيها الأحزاب السياسية المتنافسة على السلطة دون أن تفقد تلك الدول ســـيادتها أو وحدتها أو استقرارها.

وعلى النقيض من رأى القائلين بالتحريم، فإن الدول التى تمنـــع تعـــدد الأحـــزاب السياسية، وتقهر المواطنين فى قالب سياسى واحد، وتحول بينهم وبين التعـــبير عـــن اختلافهم (= تنوعهم) الفكرى فى ميدان السياسة هى التى تعـــانى مـــن الاضـــطراب وتتعرض سيادتها ووحدتها للأخطار النابعة من الداخل أو الآتية من الخارج !!

**(ج) شبهة تزكية النفس والطعن فى الآخرين:**

لجأ المانعون لتعدد الأحزاب إلى حجة أن الدعاية الانتخابية التى تقوم بها الأحـــزاب السياسية لتأييد مرشحيها تتضمن خطيئة تزكية النفس وخطيئة الطعـــن (الســـب) فى الآخرين.

واستدلوا لحجتهم بقول الله (ﷻ):

**(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلْ اللَّهُ يُزَكِّـــي مَـــنْ يَشَـــاءُ وَلا يُظْلَمُـــونَ فَتِيلاً)**[٢٣٥].

وكعادة الدعاة والفقهاء انتزعوا الآية الكريمة من سياقها النصى والتـــاريخى. فقـــد نـــزلت هذه الآية ضمن فوج الوحى الذى ضم الآيات ٤٤- ٥٧ من سورة النســـاء ابتداءً من قوله (ﷻ): **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّـــلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ)**[٢٣٦] إلى قوله (ﷻ): **(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ**

---

(٢٣٥) سورة النساء: الآية ٤٩.

(٢٣٦) سورة النساء: الآية ٤٤.

وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً[٢٣٧] .

وكان ذلك للرد على بعض أكاذيب اليهود الذين زعموا أنهم أبناء الله (ﷻ) وأحباؤه، وأن الجنة حكر عليهم، وأن الله يغفر لهم ذنوبهم، فما فعلوه فى النهار من خطايا يغفرها الله لهم بالليل، وما فعلوه فى الليل يغفره الله بالنهار فلا يبقى عليهم شيء من الذنوب. كما حاولوا إضلال المشركين (الوثنيين) فزعموا لهم أن دينهم أفضل من دين محمد وأصحابه[٢٣٨].

والمقصود أن مجال التزكية المحرمة التى نهى الله (ﷻ) عنها هو التقوى والقرب من الله (ﷻ) فليس لأحد من الخلق أن يدعى لنفسه ولا لغيره شيئاً فى ذلك "الغيب" الذى احتفظ الله (ﷻ) بعلمه، فلا يعلم مصير العباد ولا درجاتهم عند الله (ﷻ) إلا الله وحده، ثم يفيض بشيء من ذلك العلم على من اصطفى من عباده.

قوله (ﷻ): "أَلَمْ تَرَ": سؤال يدعو إلى التفكر والتعجب ويستنكر جرأة أولئك اليهود على الحق.

"يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ": يرفعون مكانتهم عند الله فوق ما يستحقون بعدل الله (ﷻ) ورحمته، فيدعون لأنفسهم ما ليس لهم رجماً بالغيب.

"بَلْ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ": دعك من تلك الأكاذيب، ونزه نفسك عن الالتفات إليها، واعلم أن الله يرفع درجات من يشاء من عباده من فيض رحمته وبموجب عدله.

"وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً": ومحال فى حق الله (ﷻ) أن يظلم أحداً من خلقه مثقال ذرة، فما الباعث لهم على ادعاء علو درجاتهم عند الله؟! أيشكون فى عدله؟ أم سيكرهونه بكلامهم على منحهم ما لا يستحقون؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ!!

الفتيل: الخيط الدقيق الذى يكون فى شق التمرة بين فلقتيها. وقوله (ﷻ): "وَلا

---

(٢٣٧) سورة النساء: الآية ٥٧.

(٢٣٨) انظر على سبيل المثال كتاب "أسباب النزول" لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى – صـ ١١٤ – ١١٦، وصفوة التفاسير للأستاذ محمد على الصابونى – المجلد الأول ٢٧٩، وتفسير الكشاف للزمخشرى – المجلد الأول – صـ ٢٧٣.

يُظْلَمُونَ فَتِيلاً": يعنى ولا يظلمهم الله (ﷻ) مقدار فتيل، كنايةً عن عدله التام الذى لا يشوبه أى ظلم.

واستدل المانعون لتعدد الأحزاب السياسية فى الدولة الإسلامية أيضاً بقوله (ﷻ): **(فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى)**.

وإذا قرأنا الآية بكامل نصها الذى يقول: **(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى)**[٢٣٩] لأدركنا على الفور أن النهى الإلهى فى الآية متعلق بالتقوى، أى بالكرامة عند الله؛ لأن الله (ﷻ) يقول ما معناه: فلا تمدحوا أنفسكم ولا ترفعوا درجاتكم عند الله بظنكم؛ لأنه (ﷻ) أكثر علماً منكم بمن وقى نفسه من عذاب الله باجتناب ما نهى عنه والقيام بما أمر به، وهو (ﷻ) أعلم منكم بدرجات عباده عنده.

والنتيجة التى نخلص إليها تقول: إن تزكية النفس المنهى عنها فى القرآن هى ادعاء الإنسان أنه الأتقى لله أو الأقرب إلى الله من غيره، لأنه يبقى دائماً ادعاءً بغير دليل، فلا يعلم حقيقة التقوى أو القرب من الله إلا الله (ﷻ).

والأحزاب السياسية لا تقوم من أجل الوصول إلى تقوى الله، أو تقديم برامج (مخططات) لعبادة الله والتقرب إليه، فإنها ليست مؤسسات لتعليم الناس الدين أو تدريبهم على ممارسة الشعائر الدينية.

ولكنها – بموجب تعريفها ووظيفتها – مؤسسات شعبية تنشأ لممارسة السياسة (= إدارة الدولة)، وتسعى للوصول إلى الحكم بوسائل سلمية من أجل أن تتمكن من تنفيذ المخطط (البرنامج) "السياسى" الذى عرضته على الناس ودعتهم إلى تأييده عبر اعطائهم أصواتهم الموافقة على الأشخاص الذين ترشحهم للحصول على مقاعد السلطة.

---

(٢٣٩) سورة النجم: الآية ٣٢.

وفى هذا السياق فمما يوافق العقل ولا يتضارب مع الشرع أن يجتهد كل حـــزب سياسى فى "تزكية" مخططه (برنامجه) ومرشحه لنيل كرسى الحكـــم دون أن يقـــع فى التزكية المحرمة التى نهى القرآن عنها، لأن الأمر فى مجال السياسة لا يتعلق بالتقوى، ولا ينبغى أن يتضمن أية ادعاءات دينية أو مزاعم غيبية.

ولقد أنار القرآن الكريم لنا هذه الحقيقة على لسان النبى يوســـف (عليه السلام) حيـــث "زكّى" نفسه للملك من أجل أن يمنحه كرسى الوزارة. **(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَـــزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)**[٢٤٠].

فزكّى (عليه السلام) نفسه بالحفظ (= الأمانة) والعلم (= الكفاءة) واختار صيغة المبالغـــة "حَفِيظٌ عَلِيمٌ" على سبيل مدح الذات أو الثناء على النفس لكى يغرى ويشجع الملـــك على اختياره.

ولقد زكى رسول الله (ﷺ) نفسه كحاكم فى عدة مواقف نذكر منها.....

** عندما جاء (ﷺ) إلى الجعرانة[٢٤١] حيث كان قد حبس الغنائم الكثيرة التى ظفر بها المسلمون من معركة حنين (هوازن) فاندفع نحوه (ﷺ) كثير من الأعراب، وتعلقوا به وبناقته يسألونه فى غلظة أن يعطيهم من الغنائم الوفيرة التى أخذت بعيونهم وأسالت لعابهم. كانوا يصرخون "أعطنا من مال الله..... أعطنا".

تزاحموا عليه حتى عدلوا بناقته عن الطريق، واضطروها إلى السير رغماً عنها فى ممر به سمرات[٢٤٢] فانتهست واحدة منها ظهره وانتزعت (خطفت) رداءه، فاضطر (ﷺ) إلى التوقف وصاح فيهم وقد صار نصف جسمه الأعلى عارياً.

"أيها الناس، ردوا علىّ ردائى"

---

(٢٤٠) سورة يوسف: الآية ٥٥.

(٢٤١) الجعرانة: بلدة صغيرة على الطريق بين مكة والطائف. وكان مجيئه (ﷺ) إليها فى الخامس مـــن شـــهر ذى العقدة من العام الثامن بعد أن حاصر الطائف حوالى شهر، ثم لم يتم فتحها لمنعة حصنها فآثر النبى (ﷺ) أن يتركها ويعود إلى الجعرانة لتقسيم الغنائم التى كان قد حصل عليها من معركة حنين (هوازن).

(٢٤٢) سمرات: جمع سمرة، وهى شجرة طويلة متفرقة الرأس، ذات أوراق صغيرة وأشواك حادة صلبة.

"فوالله لو أن لى بعدد شجر تهامة أو كان لى عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً"(٢٤٣).

فنزه (ﷺ) نفسه فى مقام الدفاع عن سلوكه كحاكم عن البخل والجبن والكذب، وهو ما يعنى أنه وصف نفسه بالكرم والشجاعة والصدق.

** وعندما اتهمه عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى فى نفس المقام بالظلم فى القسمة قائلاً له: أعدل فإنك لم تعدل.

فقال رسول الله (ﷺ) له: "ويحك"!!

"ومن يعدل إذا لم أعدل؟ العدل؟! إذا لم يكن عندى فعند من يكون؟! والله لا تجدون بعدى رجلاً هو اعدل عليكم منى"(٢٤٤).

فزكى (ﷺ) نفسه بقوله إنه أعدل الرجال.

** وعندما اتهمه (ﷺ) بعض أصحابه بأنه لم يعدل فى القسمة إذ أعطى ذهيبة فى أديم مقروظ، بعث بها على بن أبى طالب (رضي الله عنه) من اليمن فى شوال من العام العاشر بعد الهجرة لأربعة نفر من المؤلفة قلوبهم، وهم: الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وعلقمة بن علاثة، و زيد الخيل الطائى (الذى سماه رسول الله زيد الخير) فتغيظ رجال من قريش والأنصار وقالوا: كنا أحق بهذا المال من هؤلاء.

فخرج إليهم رسول الله (ﷺ) وقال لهم مفسراً ما صنعه ومعاتباً لهم على إساءة الظن به: "إنما أتألفهم"

---

(٢٤٣) انظر الحديثين ٢٨٢١، ٣١٤٨ فى كتاب فتح البارى بشرح صحيح البخارى.
العضاة: جمع العضة، وهى شجرة الشوك، أى الشجرة التى يكثر فيها الشوك.
نعماً: إبلاً أو ماشية.

(٢٤٤) انظر شرح الأحاديث ٣١٣٨، ٣٦١٠، ٦١٦٣، ٥٠٥٨، ٦٩٣٣، ٦٩٣٢، ٦٩٣١ فى نفس المصدر. وقد ذكرنا – هنا – الجزء الذى يتعلق بموضوعنا من قصة من ابن ذى الخويصرة التميمى، وسقنا فى رواية واحدة مختلف الروايات التى أوردها ابن حجر فى شرحه لتلك الأحاديث.
ويحك: صيحة تحذير من سوء العاقبة يبعثها الخشية من المتكلم على المخاطب، فهى صادرة عن الرحمة تطلب النجاة لمن تتوجه إليه بالخطاب من الخطر الذى يتهدده.

"أفيأمنني الله على أهل الأرض ولا تأمنوني؟!"

"ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟! يأتيني خبرها صباحاً ومساءً!!".

وقال له عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي مرة أخرى – بعد عامين من المرة الأولى: "يا محمد اتق الله! فقال له رسول الله (ﷺ): "ويلك، أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله. ومن يطع الله إذا عصيته؟!"(٢٤٥).

في كل هذه المواقف وغيرها زكى رسول الله (ﷺ) نفسه، إذ مدح نفسه بأنه اتقى الناس، وأعدلهم وأنه أمين الله (ﷻ) في الأرض والسماء.

وبالقطع، فإنه (ﷺ) لم يرتكب خطأ، أو يقترف ذنباً في تزكيته لنفسه في تلك المواقف. ولنلاحظ أنها جميعاً كانت في مقام الدفاع عن نفسه (ﷺ) كحاكم للبلاد أو أمير للمؤمنين، أعني في نطاق العمل السياسي.

ولا نحتاج إلى ذكر الأحاديث النبوية الكثيرة التي زكّى فيها رسول الله (ﷺ) جميع أصحابه بصفة عامة، وبعض أصحابه على وجه الخصوص مثل: أبي بكر وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبي عبيدة بن الجراح، وزيد بن حارثة، وخالد بن الوليد، وغيرهم (رضوان الله على الجميع). وفيصل التفرقة بين تزكية النفس المحرمة التي نهى القرآن الكريم عنها وبين التزكية المباحة بل الواجبة شرعاً أن التزكية المطلوبة لا تتضمن كذباً، أو ادعاءً بغير دليل أو رجماً بالغيب، بالإضافة إلى أنها تهدف إلى تحقيق نفع للمسلمين مثل اختيار رجل كفء لمنصب هام أو تبرئة مظلوم.

---

(٢٤٥) انظر مختلف الروايات التي أوردها بن حجر في شرحه للأحاديث ٤٣٥١، ٤٦٦٧، ٦٩٣٤، ٧٤٣٢ والتي جمعنا هذه القصة منها.

"ذهيبة": قطعة ذهب صغيرة، أو بالأحرى قطع صغيرة من الذهب.

"أديم": جلد.

"مقروظ": مدبوغ.

وقد أرسل علي بن أبي طالب (ﷺ) تلك الذهيبة من اليمن ضمن خمس الغنائم المستحقة لرسول الله (ﷺ) باعتباره حاكماً للبلاد.

وعلينا أن نتذكر الجدال الذى دار فى سقيفة بنى ساعدة صبيحة انتقال رسول الله (ﷺ) إلى الملأ الأعلى. إذ تبارى كل من الأنصار والمهاجرين فى تزكية أنفسهم، وبيان استحقاق وجدارة كل فريق منهما بالخلافة فى مشهد يشبه الحملات الانتخابية التى تحدث فى حياتنا المعاصرة لنتبين بكل وضوح خطأ رأى الذين حرموا تعدد الأحزاب السياسية فى الدولة الإسلامية بدعوى أن الحملات الانتخابية تتضمن – بزعمهم – تزكية النفس التى نهى القرآن الكريم عنها.

أما فيما يتعلق بشبهة الطعن فى الآخرين والتى استشهدوا لها بنصوص دينية مثل قوله (ﷻ): (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ**"(٢٤٦).

فنقول لرفع هذه الشبهة: إن هذه الآية القرآنية الكريمة وغيرها من النصوص الدينية المقدسة، التى تأمر الإنسان بمجموعة من التعاليم الخلقية التى ينبغى أن تضبط سلوكه مع الآخرين، هى أوامر عامة تخاطب كل الناس: الأفراد والجماعات، والأحزاب السياسية وغيرها من مؤسسات المجتمع ليلتزم الجميع بتلك الحدود والضوابط التى تحفظ الحقوق وتصون الحرمات وتضمن الحياة الطيبة الجديرة بالإنسان.

ومن ثم فإن هذه النصوص لا تمنع قيام الأحزاب السياسية المتعددة فى الدولة الإسلامية: ولكنها ينبغى أن تحكم وتضبط سلوكها فى ممارستها لعملها السياسى، وتعبيرها عن رأيها. وهو أمر سنناقشه فى الباب الثانى الخاص بحقوق وواجبات الأحزاب السياسية.

---

(٢٤٦) سورة الحجرات: الآية ١١.

**(د) شبهة قيام أحزاب غير إسلامية كافرة:**

يقول أعداء التعدد المانعون لقيام أحزاب سياسية فى دولة إسلامية: إن فتح البـــاب أمام تعدد الأحزاب السياسية سيؤدى إلى قيام أحزاب سياسية كافرة لا تؤمن بعقيـــدة الإسلام ولا تحترم أحكام شريعته، ومن ثم فإن وصول هذه الأحزاب إلى سدة الحكم، واستحواذها على السلطة سوف يمنحها الفرصة لنشر عقائدها وأفكارها الهدامة لعقيدة وشريعة الإسلام ويمكنها من محو قوانين وأحكام الشريعة الإســـلامية، وبـــذلك يـــتم الخروج من دائرة الإسلام والارتداد إلى الكفر، فتكون – بزعمهم – الدولة الإسلامية هى التى هيأت ومهدت الطريق إلى هدم الإسلام!!

وهى شبهة بدت قوية كأنها حجة دامغة، حتى أن بعض الفقهاء الذين أجازوا تعدد الأحزاب السياسية رأوا أن يقصروا التعدد على الأحزاب التى تلتزم بما اسموه "ســـيادة" الشريعة الإسلامية، إذ ليس من المعقول ولا المقبول – بـــزعمهم – الســـماح بقيـــام أحزاب غير إسلامية فى دولة إسلامية، ومن هؤلاء الدكتور أحمد شوقى الفنجرى (فى كتابه الحرية السياسية فى الإسلام)، والدكتورصلاح الصـــاوى (فى كتابـــه التعدديـــة السياسية فى الإسلام)، والدكتور محمد أبو فارس، والشيخ مصطفى مشـــهور القائـــد البارز فى جماعة الإخوان المسلمين وغيرهم..... إلخ.

ويمكننا تلخيص أهم حجج هؤلاء فيما يلي:

١- قول الله (ﷻ): **(وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنـــزلَ اللَّـــهُ وَلا تَتَّبِـــعْ أَهْـــوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنـــزلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ)**(٢٤٧).

والآية صريحة الدلالة على وجوب التزام الحاكم - المتمثل هنا فى رســـول الله (ﷺ) - بكامل الشريعة التى أنـــزلها الله (ﷻ) فى وحيه، ونهيه عن اتباع أهواء الناس، وهى الأفكار الضالة التى تخالف ما جاء فى رسالة الله وتحذيره من محاولة أصحاب الأهواء أن

(٢٤٧) سورة المائدة: الآية ٤٩.

يضلوه عن طاعة كل ما جاء فى الوحى فيغرونه بمخالفة بعض أحكام الشريعة، فيكون مثل المنافقين الذين يخفون كفرهم بادعاء الإيمان ببعض ما جاء فى وحى الله.

فإن رفض الناس إعلان الالتزام بكل ما جاء فى رسالة الله، فعلى الرسول (ﷺ) أن يتبين أن هذا الضلال ليس إلا مظهراً من غضب الله (ﷻ) الذى تحققت مشيئته بإنزال العذاب على من يؤمن ببعض الكتاب (= الشريعة) ويكفر ببعض، لأن هؤلاء – فى الحقيقة – منافقون يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان على سبيل الخداع. ولتعلم أن كثيراً من الناس منافقون يدعون الإسلام لتحصيل المنافع الدنيوية وتحقيق الأهواء.

"وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ": وإن أكثر الناس لمنافقون.

(إِنَّ **الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ**)(٢٤٨).

والمقصود من الآية بيان أن رسالة الله (ﷻ) كل لا يتجزأ، والإيمان بها حقيقة كلية لا تقبل التجزئة أو التبعيض.

والآية القرآنية الكريمة تمنع بالفعل الحاكم فى أى دولة إسلامية جديرة بهذا الإسم من مخالفة حكم الشريعة التى أنزلها الله (ﷻ) فى وحيه ومن ثم فإنها لا تقبل - بكل صراحة ووضوح – بوجود حاكم يعارض شريعة الله.

ولكن السؤال الذى يبقى هو: كيف يتم تحقيق مقتضى الآية؟ أو ما هى الوسيلة الصحيحة لمنع وصول الكافر أو المنافق إلى سدة الحكم؟ وفى نفس الوقت وجوب احترام الحريات الإنسانية العامة التى كفلتها الشريعة الإسلامية لكل البشر ووجوب احترام قبول الإسلام للكافرين المخالفين له من أصحاب الأديان الأخرى فى إطار الدولة المحكومة بشريعة الإسلام؟ هذا هو السؤال الحقيقى الذى يحتاج إلى إجابة.

-٢- قول الله (ﷻ):

(**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**)(٢٤٩).

---

(٢٤٨) من الآية ٦٧ فى سورة التوبة.

(٢٤٩) سورة الجاثية: الآية (١٨).

"شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ": مجموعة من الأوامر والنواهى الظاهرة أو المعلنة المنظمة للعلاقات بين الناس وهى جزء من "الأَمْرِ" (=الوحى) الذى أنزله الله إليك.

"فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ": فامتثل لها بطاعة الأوامر واجتناب النواهى ولا تسر فى الطرق المعوجة التى تخطها الأفكار الضالة الصادرة عمن حرموا من العلم.

والآية صريحة فى الأمر بطاعة شريعة الله والنهى عن مخالفتها. ولكن يبقى السؤال كيف تتحقق سيادة الشريعة الإسلامية مع حفظ حرمات وحقوق (حريات) غير المسلمين ومن بينها الحرية الدينية (حرية الاعتقاد وممارسة العبادات) وحرية (= حق) التعبير عن الآراء السياسية وحق تكوين الهيئات أو الكيانات المعبرة عن مصالحهم الإنسانية.

ولا يمكن ديناً ولا عقلاً قبول رأى الفقهاء وقادة العمل السياسى الإسلامى المعاصرين القائل بإباحة قيام الأحزاب غير الإسلامية التى تقوم على أفكار ومناهج تخالف الشريعة الإسلامية فى مرحلة الاستضعاف باعتبارها مجرد حالة طارئة ينبغى التخلص منها سريعاً وبأى طريقة كالمرض الذى ينبغى الشفاء منه بأية وسيلة. حتى نصل إلى مرحلة التمكين لسيادة الشريعة الإسلامية – بزعمهم – وحينذاك يجب حظر قيام تلك الأحزاب الكافرة – التى سبق التعاون معها فى مرحلة الاستضعاف – حتى لا نعطيها الفرصة لمحاربة الإسلام: عقيدة وشريعة.

ويبرر أولئك الفقهاء والقادة الإسلاميون (؟!!) هذا التناقض الفكرى والخيانة للعهد والغدر بالأصحاب والأصدقاء الذين تعاونوا معنا – نحن الإسلاميين – من أجل تحرير البلاد، والخروج من حالة الاستضعاف بما يسمونه – بزعمهم – "السياسة الشرعية": التى تقوم على فقه الموازنة بين المصالح المنشودة والمفاسد التى يجب تجنبها، ولكنها – أى السياسة الشرعية – لا تمثل قانوناً شرعياً أو حكماً واجباً يجب الأخذ به فى كل الأحوال وإنما يتم التصرف – بإدعائهم – حسب ما تقتضيه المصلحة.

والسؤال الذى لا يجيبون عنه أبداً هو: مصلحة من؟ مصلحة كل الناس؟ أم مصلحة عامة المسلمين؟ أم مصلحة الطامعين فى الحكم الراغبين فيما تجلبه السلطة من غنائم دنيوية. وهل يبيح الإسلام ظلم الآخرين المنتمين لغير دين الإسلام: إذ لا شك فى أن منع غير المسلمين من التعبير عن أنفسهم سياسياً يعد قهراً لهم، والقهر صورة من صور الإكراه الذى حرمته شريعة الإسلام!!

ويبرر بعضهم هذه الانتهازية السياسية التى تقوم على خيانة المبادئ وتبعث عليها الشهوة الجامحة للسلطة بما يسمونه – بزعمهم – النظام العام والآداب أو المقومات والمبادئ الأساسية للمجتمع الإسلامى، الذى يشبه فى ذلك كل المجتمعات الأخرى التى تحرص أشد الحرص على عدم المساس بمجموعة من القيم المقدسة التى ينبغى رفعها فوق أى نقد أو مساءلة.

ويضربون المثل بالنظم الشيوعية التى تمنع قيام أحزاب رأسمالية وتحارب الدعوات الدينية. وبالدول الغربية الرأسمالية التى قد تمنع الأفكار الشيوعية أو تحارب الدعوة الإسلامية التى تراها خطراً على أسس بناء الثقافة الغربية.

وهكذا يضطر أولئك الفقهاء والقادة الإسلاميون – من أجل تبرير تناقضهم واضطرابهم الفكرى – إلى ضرب المثل بالدول الشيوعية، والدول الغربية الرأسمالية باعتبارها قدوة يجب أن تحتذيها الدول الإسلامية.

متغافلين عن إدعائهم – بالحق – أن الشريعة الإسلامية قد نزلت من عند الله (ﷻ) لتقيم على الأرض المثل الأعلى الذى يجب على جميع البشر الاقتداء به على مستوى الأفراد والجماعات والدول.

ومتغافلين أيضاً عن ادعائهم – بالحق – أن الشريعة الإسلامية قد نزلت من عند الله (ﷻ) لإعلاء مكانة الإنسان بين المخلوقات جميعاً باعتباره خليفة لله (ﷻ) فى الأرض ولتكريم كل أبناء آدم (عليه السلام)[٢٥٠] وهو ما يقتضى وتقرير المساواة بينهم ومنع

(٢٥٠) انظر إلى قوله (ﷻ): (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (سورة الإسراء: الآية ٢٠).

التمييز والاضطهاد بسبب الجنس أو اللون أو الدين أو المال أو المكانة الاجتماعية. وأسوأ ما فى هذا التبرير الخاطئ الادعاء الكاذب بأن النظام العام أو القيم الأساسية فى المجتمع المسلم تبيح اضطهاد غير المسلمين والتضييق عليهم، فلا شك فى أن منعهم من التعبير عن أنفسهم سياسياً عبر أحزاب تعبر عنهم يعد صورة من صور القهر.

-٣- قول الله (ﷻ):

**(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)** وذلك فى ختام الآية التى يقول نصها الكامل: **(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)**(٢٥١).

يصف الله (ﷻ) سلوك المنافقين المذبذبين بين إعلان الولاء والتأييد للمؤمنين عندما ياتى نصر من الله (ﷻ) لعبادة المؤمنين فى حربهم ضد الكافرين، مدعين كذباً أنهم كانوا إلى جانب المؤمنين، وبين إعلان الولاء والتأييد للكافرين عندما يكون لهم حظ من الغلبة على المؤمنين، فيقولون لإخوانهم الذين كفروا: ألم نحط بكم ونحميكم (= نحرسكم) من المؤمنين.

وسيبقى ما تحتويه القلوب من كفر أو إيمان مستوراً مخفياً إلى أن يكشف الله (ﷻ) الحقيقة كاملة يوم القيامة ويحكم على عباده بموجب عدله الذى لا يظلم الناس مثقال ذرة.

ثم ختم (ﷻ) الآية بإعلان أن الغلبة فى نهاية هذا الصراع الدائم بين الكافرين والمؤمنين فى هذه الدنيا وفى الآخرة ستكون من نصيب المؤمنين فهو (ﷻ) يقول للمنافقين - بإعلان هذه الحقيقة: إنكم لن تفرحوا ولن تستمتعوا بالشماتة فى المؤمنين لأننى – أنا الله القوى العزيز – لن أمكن الكافرين من التغلب على المؤمنين.

---

(٢٥١) سورة النساء: الآية (١٤١).

**(كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)**[٢٥٢].

فالحديث فى الآية الكريمة يصف القتال أى الصراع الحربى الدائر بين المؤمنين والكافرين، فما علاقة هذا بوجود أحزاب (جماعات سياسية) كافرة أى لا تدين بالإسلام فى إطار دولة إسلامية؟!.

ما علاقة هذه الآية الكريمة بحق الجماعات التى لا تدين بالإسلام فى الوجود وممارسة النشاط السياسى المعبرعن أفكارها ومصالحها؟ طالما أنها ارتضت أن تعيش فى دولة إسلامية، أى دولة أكثر سكانها يدينون بالإسلام وتخضع فى قوانينها وإدارتها لأحكام الشريعة الإسلامية. ولاشك فى أن وصف أى دولة بأنها إسلامية يعنى – بموجب هذا التعريف نفسه – أن أغلبية السكان (= المواطنين) يعتنقون الإسلام كدين ويرضون بأحكامه كقوانين منظمة لحياتهم.

وبالتالى فإن الجماعات غير الإسلامية تكون بموجب التعريف نفسه أقلية، و الأحزاب السياسية التى تمثل هذه الجماعات لن تصل أبداً إلى سدة الحكم، ولن تستطيع أبداً الاستواء على كرسى السلطة السياسية فى دولة إسلامية إذا أعطى الناس بالفعل حرياتهم، وترك لهم – حقاً – الاختيار دون إكراه.

ولاشك فى أن الأقلية فى أى دولة بموجب تعريفها تحترم إرادة وسيادة الأغلبية ولا تناصبها العداء، لأن ثمرة الصراع فى هذه الحالة ستكون – لا محالة – إبادة الأقلية أو إجلاءها من الوطن.

ففى الأحوال الطبيعية تكون الخشية على الأقلية من سطوة وبطش الأغلبية وليس العكس.

-٤- قول الله (ﷻ):

**(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ**

(٢٥٢) سورة المجادلة: الآية ٢١.

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[٢٥٣].

يستدلون بقوله (ﷻ): "مِنْكُمْ": على وجوب أن يكون الحاكم مؤمناً أو مسلماً وهو استدلال صحيح ولكن لا دليل فيه على منع قيام أحزاب سياسية لا تدين بالإسلام، لأن الحاكم بموجب مبدأ البيعة – أى حق الناس فى اختيار من يحكمهم والذى يعبر عنه حديثاً بالديموقراطية – لابد أن سيكون منتمياً لدين أغلبية السكان ومن الاستثناء الشاذ الذى لا يعتد به أن يكون الحاكم الأعلى الحائز للخلافة أو الأمانة الكبرى منتمياً لدين يخالف دين أغلبية السكان.

ولا يقع هذا إلا فى نظم استبدادية يفرض فيها الحاكم بقوة السلاح على الشعب. اما إذا تمتع الناس – حقاً – بحرياتهم فإن الحكام يكونون على دين شعوبهم، ولا تكون الشعوب على دين الملوك إلا فى ظل الاستبداد حيث يسود الإكراه بوجهيه البشعين: الإجبار والقهر.

ومحال فى مجتمع إنسانى يتمتع الناس فيه بحرياتهم (بحقوقهم) وتحترم حرماتهم أن يتمكن حزب سياسى يتبنى عقائد ومناهج تخالف دين أغلبية السكان من الوصول إلى سدة الحكم والاستواء على كرسى السلطة.

ومن ثم محال أن يتمكن كافر يجاهر بكفره أن يصل إلى كرسى السلطة فى مجتمع مسلم تحترم فيه حرمات الناس وحرياتهم.

ويفضى بنا هذا الفهم إلى تبين خطأ رأى الذين حرموا الديموقراطية واعتبروها مناقضة – بزعمهم – لما أسموه حاكمية الله (ﷻ) وسيادة الشريعة الإسلامية، لأنها تعد فى نظرهم تأليهاً لإرادة الشعب (الناس) فهى – فى وهمهم – نوع أو شكل من أشكال الشرك بالله (ﷻ).

ويعجز هؤلاء عن ادراك لماذا أقام رسول الله (ﷺ) دولته (سلطته السياسية) فى المدينة المنورة (يثرب) بعد أن هاجر إليها و لم يقمها فى مكة؟

---

(٢٥٣) سورة النساء: الآية ٥٩.

والإجابة: لأن المسلمين فى المدينة المنورة أصبحوا الأغلبية وصار اليهود والمشركون هم الأقلية، فلم يهاجر رسول الله إلى المدينة المنورة إلا بعد أن دخل نور الإسلام فى كل بيت من بيوت المدينة المنورة التى سيصبح سكانها (= مواطنوها) الأنصار الذين نصروا رسول الله (ﷺ) ومكنوا لدينه فى الأرض. إذن، فحاكمية الله (ﷻ) لا تتحقق، وسيادة الشريعة الإسلامية لا تصبح حقيقة إلا من خلال إيمان الناس برسالة الله (ﷻ) وأن يصبح المؤمنون هم الأغلبية على أرض الدولة.

ويسأل أولئك المحرمون للديموقراطية سؤالاً يظنون أنه البرهان الساطع على صحة رأيهم: هل إذا اختار الناس حكماً أو قانوناً يخالف شريعة الله نقبل هذا الحكم أو القانون؟ ويجيبون: بمنطق الديموقراطية يجب قبول هذا الحكم أو سن هذا القانون. وهذا الموقف يخالف حقيقة الإيمان فهو – إذن – يعبر عن الكفر. ومن ثم فإن الديموقراطية فى حقيقتها الفكرية كفر يناقض التوحيد كما يزعم بعض من يسمون أنفسهم بالسلفيين.

ونرد عليهم لرفع هذه الشبهة بسؤال: هل يجوز أو يمكن تطبيق أحكام الشريعة على الكافرين المنكرين للرسالة أصلاً؟ والإجابة: بالطبع لا، وإلا لكان رسول الله (ﷺ) قد حاول تطبيق أحكام الشريعة فى مكة و لم يكن هنالك ثمة حاجة إلى الهجرة!!

والسؤال الآن: هل إذا اختار الناس بمحض إرادتهم ودون إكراه قانوناً أو حكماً يعلمون تماماً أنه يخالف شريعة الإسلام.... هل يمكن فى هذه الحالة تسميتهم بالمسلمين والاستمرار فى وصفهم بالإيمان! والإجابة. بالطبع لا.

إذن، فلا جدوى من محاولة تطبيق أحكام الشريعة فى مجتمع يغلب على أهله الكفر بالإسلام، أى فى دولة غير إسلامية، فما من وسيلة لمحاولة تحقيق هذا الهراء إلا بالإكراه والقرآن الكريم يقول بصريح العبارة: (**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ**)(٢٥٤).

---

(٢٥٤) من الآية ٢٥٦ فى سورة البقرة.

ولا معنى – إذن – لإقامة تناقض بين حاكميه الله (ﷻ) وسيادة الشريعة وبين الديموقراطية.

واستدل المبيحون لتعدد الأحزاب السياسية فى الدولة الإسلامية على جواز قيام أحزاب سياسية غير إسلامية بصحيفة أو كتاب المدينة وهو العقد المكتوب (الموثق) الذى أبرمه رسول الله (ﷺ) مع قبائل اليهود وحلفائهم من سكان المدينة (يثرب)[٢٥٥]، وهو العقد المؤسس لأول دولة متعددة الأديان اعتبر فيها غير المسلمين مواطنين مساوين للمسلمين.

ورد عليهم القائلون بمنع قيام أحزاب سياسية غير إسلامية بأن فى الصحيفة نصاً واضحاً يقول:

"وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله (ﷻ) وإلى محمد". واعتبروا أن هذا النص حجة واضحة و دليلاً دامغاً على منع قيام احزاب غير إسلامية. ولا حجة لهم ولا دليل على ما يزعمون، لأن هذا النص يقول بوضوح ما معناه: أن رسول الله (ﷺ) هو الحاكم الأعلى لهذه الدولة الإسلامية (بالنظر إلى القوانين التى تحكمها) متعددة الأديان – (بالنظر إلى معتقدات السكان – وهو أمر يتفق تماماً مع كون المسلمين (المؤمنين) هم الأغلبية، ولكنه لا يحول أبداً دون قيام أحزاب (جماعات سياسية) تعبر عن مصالح وآراء الأقلية اليهودية والوثنية التى تعيش فى المدينة وارتضت البقاء مع المسلمين فى نفس الوطن وتحت نفس السلطة السياسية (=الدولة) يجمعهم إرادة العيش المشترك.

والدليل على صحة فهمنا بقاء القبائل اليهودية (بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة)

---

(٢٥٥) انظر نصوص هذه الصحيفة (الكتاب) فى كتاب "الإسلام وحقوق الإنسان. ضرورات.... لا حقوق" للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة – نشر عالم المعرفة – العدد ٨٩ شعبان ١٤٠٥هـ – مايو ١٩٨٥م المجلس الوطنى للثقافة والفنون والأداب – الكويت صـ ١٥٢ – ١٦٢.
وقد نقلها من كتاب "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة" صـ ١٥ -٢١ جمع الدكتور/ محمد حميد الله الحيدر أبادى – طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦.

محافظة على كيانها الإجتماعى. وقد بينا من قبل أن القبائل كانت بمثابة الأحزاب السياسية فى الدولة المعاصرة.

ويتساءل المانعون لقيام أحزاب غير إسلامية: هل كانت صحيفة المدينة المنورة تجيز لليهود أن يكونوا حكاماً على المسلمين فى المدينة؟ والإجابة: بالقطع لا. ولكن ذلك يرجع إلى أن اليهود كانوا أقلية فى المدينة المنورة، بدليل أن سكان يثرب عندما فكروا فى إنشاء دولة (مملكة) وإختيار ملك قبيل هجرة الرسول (ﷺ) وقع اختيارهم على عبد الله بن أبى بن سلول زعيم قبيلة الخزرج العربية لأنها كانت أكبر القبائل التى تعيش فى يثرب أى أنها تمثل أغلبية السكان.

إذن، منع اليهود من أن يكونوا حكاماً على المسلمين فى المدينة المنورة يرجع إلى قلة عددهم، ولكنه لا يعنى تحريم الشريعة الإسلامية قيام أحزاب سياسية تعبر عن آراء ومصالح الأقلية التى لا تدين بالإسلام.

-٥- جاء فى بيعة رسول الله (ﷺ) للأنصار:

"وألا تنازعوا الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً، عندكم من الله فيه سلطان".

والنص صريح فى إعطاء الحق للناس فى استخدام القوة لإزالة الحاكم من السلطة أى عزله إن ارتد عن الإسلام، وأعلن الكفر الصريح (البواح) ودعا إليه وعمل من أجل محو شريعة الإسلام.

ولذلك أجمع الفقهاء على اشتراط الإسلام فى الحاكم الحائز للخلافة أو الأمانة الكبرى، وجوب عزله أو خلعه إن طرأ عليه الكفر.

والمتأمل فى كل ما سبق من حجج على ضوء ما قدمنا من بيان - يعلم تهافتها وعجزها عن إقامة الدليل على منع قيام أحزاب سياسية غير إسلامية؛ لأن قصارى ما تدل عليه هو: وجوب أن يكون الحاكم الأعلى للدولة الإسلامية مسلماً، وهى نتيجة منطقية وتعد ثمرة طبيعية إذا رجعنا إلى مبدأ البيعة الذى يعطى الحاكم أساس الشرعية.

ويغفل المانعون لقيام أحزاب سياسية غير إسلامية فى الدول الإسلامية عن حاجة

الأقليات المسلمة فى الدول غير الإسلامية إلى قيام أحزاب تعبر عن مصالحهم وآرائهم فى تلك الدول التى يدين أغلب سكانها بأديان أخرى تخالف الإسلام.

وقاعدة الإنصاف القائم على العدل توجب المعاملة بالمثل بين البشر، فإن ظلم المسلمون الأقليات غير المسلمة فإن الدول غير الإسلامية ستجد المبرر لظلم الأقليات المسلمة فيها.

كما يغفل أصحاب الرأى الخاطئ القائل بتحريم وجود أحزاب سياسية غير إسلامية فى دولة إسلامية عن حكمة الله (ﷻ) البالغة فى وجود الكفر مع الإيمان متصاحبين فى نطاق نفس الجماعة البشرية؛ لأن ذلك والتعايش يدفع كلا الفريقين إلى إعادة النظر دائماً فى رأيه، والإجابة عن الأسئلة التى تثيرها الحياة باستمرار. فمن شأن ذلك التعايش أن يحث الكافر على تغيير موقفه من رسالة الله (ﷻ) عبر تفاعله مع المؤمنين فيتحول من الرفض (الكفر) إلى القبول (= الإيمان). وعلى الناحية الأخرى فإن الأسئلة والشبهات الكثيرة التى يثيرها الكافرون والمنافقون تحث المؤمنين على التفكر فى مضمون الرسالة الإلهية التى ينتمون إليها ويدافعون عنها. ومن شأن التفكر أن يجدد الإيمان فى القلوب ويمكن العقول من استكشاف معان جديدة فى رسالة الله القديمة، فيحمى هذا التجديد الحياة الإنسانية من البلادة والجمود والتخلف.

**(هـ) تفنيد أساطير:**

يحيط بالعقل المسلم المعاصر عدد من الأساطير "الدينية" التى تقف أمامه كحجر عثرة، أو بالأحرى كجدار سميك غليظ يحول بينه وبين الوصول إلى الحقيقة، ومن ثم يخطئ فى تكوين الاستجابة الصحيحة للتحديات التى تفرضها حركة التاريخ بسبب تشبثه بتلك "الأساطير الدينية الإسلامية" التى إذا وضعت فى نور الحقائق وفحصت تحت مصباح العقل الصحيح لاكتشفنا أنها شعارات براقة جوفاء أو بتعبير الإمام علي ابن أبى طالب (رضي الله عنه): كلمة حق يراد بها باطل. وسنتناول فى هذا الفصل أهم تلك الأساطير ونقوم بتفنيدها بإذن الله (ﷻ) وفضله علينا وعلى الناس.

** أسطورة الولاء والبراء على الإسلام وحده:

تقول هذه الأسطورة إن قول الله (ﷻ): (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**)[٢٥٥] وقول رسول الله (ﷺ): "المسلم أخو المسلم"، وغيرها من النصوص الدينية المقدسة تجعل الانتماء إلى الإسلام وحده هو أساس الارتباط والتآلف بين جميع المسلمين الذين يجب أن يجمعهم الإيمان (= الإسلام) ولا يفرقهم أى شيء آخر. ولذلك فإن التجمع والتوحد على أساس الانتماء إلى حزب سياسى، سوف يؤدى – طبقاً لهذه الأسطورة – إلى تفرق الأمة وتمزيقها على المستوى السياسى، وإلى هدم معنى ومقتضى أخوة الإيمان أو الأخوة الإسلامية؛ لأن المنتمى لأى حزب سياسى يشعر بالتآلف والتوحد مع أعضاء حزبه، ويكون مستعداً لتأييدهم وبذل النصرة لهم بينما لا تكون علاقته (= رابطته) مع المسلمين المؤمنين من غير الأعضاء فى حزبه السياسى على نفس الدرجة من الانتماء والولاء، كما لو كان غير الأعضاء فى حزبه السياسى لا يستحقون الحقوق التى أوجبتها الشريعة الإسلامية لكل أخ مسلم ينتمى لنفس الدين.

ونسمع من بعض قادة العمل الإسلامى قولهم: إننا لا نقبل بوجود مسلم ديموقراطى أو مسلم ليبرالى أو اشتراكى أو علمانى، فكل تلك الألفاظ تعبر عن مذاهب فكرية نشأت فى الثقافة الغربية "الملحدة" (؟!!) التى تتناقض مع عقائد ومناهج الإسلام الذى يكفينا الانتماء إليه.... إننا مسلمون وكفى!!!

وهكذا تريد هذه الأسطورة الرائجة فى العقل المسلم المعاصر صب المسلمين جميعاً فى قالب واحد، وترفض رؤية اختلافهم (تنوعهم) بالنظر إلى شعوبهم (= أوطانهم) أو قبائلهم التى انحدروا منها، أو بالنظر إلى اختلاف مذاهبهم الفقهية أو رؤاهم الفكرية فى مجالات السياسة أو الاقتصاد أو الأدب أو الفنون بصفة عامة أو بالنظر إلى اختياراتهم (= تفضيلاتهم) فى مختلف أوجه النشاط الإنسانى.

إنها أسطورة ترفض الإيمان بأية الاختلاف (= التنوع) التى بثها الله (ﷻ) فى مختلف

---

(٢٥٥) فى الآية (١٠) فى سورة الحجرات.

آفاق الوجود، إنما تكفر بما اعتبره القرآن الكريم آية على قدرة الله (ﷻ):

يقول القرآن الكريم:

**(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)**(٢٥٦).

فاعتبر انقسام الناس إلى شعوب (بالانتساب إلى الأوطان التي استقروا فيها) وإلى قبائل (بالانتساب إلى الآباء الذين ولدوهم) جزءاً من التدبير الإلهي للحياة على الأرض، وهو ما يعني أنه آية على القدرة إلهية وهي آية محال محوها ومن الضلال محاولة طمسها. والإسلام رسالة آلهية لكل البشر، وقد دخل فيه وسيدخل فيه ناس من شعوب وقبائل شتى ومن المستحيل صبهم جميعاً في قالب واحد جامد.

ويقول الله (ﷻ):

**(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ)**(٢٥٧).

ويقول الله (ﷻ):

**(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)**(٢٥٨).

فأقر (ﷻ) بانقسام المؤمنين إلى طوائف، وأن الخلاف بين طائفتين منهم قد بلغ حد الاقتتال دون أن يخرجهما عن دائرة الإيمان أو يسلبهما وصف المؤمنين. والانقسام إلى

---

(٢٥٦) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢٥٧) سورة الروم: الآية ٢٢.

(٢٥٨) سورة الحجرات: الآية (٩).

امر الله: حكم الله الذي بينته شريعته التي هي العدل.

العدل: الإقرار بوجوب أن ينال كل ذي حق حقه، وهو ما يعني الإقرار بالحقوق التي أوجبتها شريعة الله لكل الخلق.

القسط: انفاذ العدل، أي تطبيق العدل على القضية التي تثيرها الواقعة محل الخلاف بين المتنازعين.

طوائف قد يكون على أساس قومى (= وطنى)، أو فكرى (= مذهبى) أو حتى صراعاً على مناطق النفوذ وموارد الثروة، لأن البشر تحركهم الأطماع الدنيوية والأهـــواء ولا يلتزمون دائماً بالوازع الدينى أو مقتضى الإيمان دون أن يخرجهم ذلـــك عـــن دائـــرة الإسلام.

ويقول الله (ﷻ):

**(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُـــوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)**(٢٥٩).

فأباح (ﷻ) انقسام المؤمنين إلى فرق بقوله (ﷻ) "مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ".

وانقسام الفرق إلى طوائف؛ لأنه أمر بانبعاث "طَائِفَةٌ"، "مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ"؛ مـــن أجل أن يتفقهوا فى الدين (= العقيدة والشريعة) ليحذروا قومهم من الوقوع فى معصية الله إذا رجعوا إليهم بالسؤال عن حكم شريعة الله فى قضية تثير الجدال والنـــزاع.

ولا شك فى أن كلمة "طَائِفَةٌ" – هنا – تشير إلى جماعة من الناس تفرغت لدراسة علوم الدين. والانقسام إلى طوائف – فى هذه الآية – يشير إلى المهن المختلفـــة الـــتى تختص كل جماعة من أبناء الأمة فى التفرغ لواحدة منها بالدراسة والممارسة لاكتساب العلم والخبرة بها.

والخلاصة أن اعتناق الإسلام والانتماء له لا يجيب عن كل الأسئلة الـــتى تعتـــرض الأفراد والجماعات فى ممارسة الحياة، ولا يضع الحلول لكل المشكلات الـــتى تواجـــه الناس فى خوضهم للابتلاءات العديدة التى تفرضها عليهم هذه الحياة الدنيا. ولابد من الاجتهاد الذى يؤدى إلى اختلاف وجهات النظر، أى إلى تعدد الرأى، ومن ثم يصبح انقسام الناس على المستوى السياسى إلى أحزاب أمر حتمى، لا مفر منه ولا خطـــورة فيه على وحدة الأمة، ولا مبادئ الدين، ما دام الجميع يخضعون للحدود والضـــوابط التى يفرضها احترام مبادئ الشريعة التى تهدف إلى صيانة الحرمـــات والحفـــاظ علـــى

---

(٢٥٩) سورة التوبة: الآية (١١٢).

الحريات والحقوق الإنسانية لكل البشر.

إن انتصار الإنسان لما يعتقد برأيه فى تحقيقه للمصالح العامة للأمة لا يهدم ولا يهز معنى ومقتضى الأخوة فى الدين، طالما التزم الجميع بالكف عن تكفير الآخرين وامتنعوا عن البغى على المخالفين لهم فى الرأى.

ويرتبط بهذه الأسطورة شبهة التعصب الحزبى الذى قد يدفع إلى التمسك برأى الحزب والإصرار عليه حتى إذا كان هذا الرأى مجانباً للصواب أو مخالفاً للحق.

ولكشف هذه الشبهة نقول: إن التعصب الأعمى للقبيلة أو الوطن أو المهنة أو المذهب الفقهى أو الفكرى أو الفريق الرياضى الذى تحبه وتشجعه قد يدفع إلى أشد صور الضلال وأبشع الجرائم، فهل يدفعنا ذلك إلى إلغاء القوميات والمهن والمذاهب الفقهية والفكرية والفرق الرياضية من أجل صب الناس جميعاً فى قالب واحد على كل مستويات الحياة الإنسانية.

إذن، المطلوب محاربة التعصب، وليس منع تعدد الأحزاب السياسية وجوهر ابتلاء الإنسان يكمن فى ألا يحول الاختلاف بمعنى التنوع إلى خلاف بمعنى التضارب والتنازع، وألا يرفع الرأى والاختيار البشرى إلى مكانة الدين المقدس.

**** أسطورة الخلافة الإسلامية:**

يتعجب المرء من ادعاء الفقهاء والمؤرخين والمفكرين الإسلاميين بصفة عامة بقاء الخلافة الإسلامية قروناً متطاولة أى مئات السنين، مع أن حديث رسول الله (ﷺ) – الذى سبق لنا ذكره – يبين بوضوح قاطع لكل شك أن الخلافة السائرة على سنة النبوة فى الحكم ينتهى عهدها بعد ثلاثين عاماً من وفاة النبى (ﷺ) أى فى سنة أربعين هجرية.

وهو ما يعنى انتهاء الخلافة بمقتل علي بن أبى طالب (رضي الله عنه) وأن الحكم من بعده وإلى يوم الناس هذا ليس إلا ملكاً دنيوياً، كان فى معظم عهوده عاضاً أو عضوضاً، و لم تكن فيه أبداً أسوة حسنة للمؤمنين؛ ولذلك لا ينبغى اتخاذ سلوك الملوك والأمراء

والسلاطين الذين سموا خطأً بالخلفاء على طول تاريخ المسلمين بدءاً من معاوية بن أبى سفيان قدوة ينبغى التمثل بها؛ لأنهم بنص حديث رسول الله (ﷺ) ليسوا بخلفـــاء، ولا ينبغى رفع ما يسمى بالتاريخ الإسلامى إلى مكانة الدين أو الشريعة الإسلامية بل ينبغى إخضاع أحداث التاريخ لأحكام الشريعة الإسلامية، أو محاكمة التـــاريخ بنصـــوص الدين.

وبناءً على هذا الفهم الخاطئ لاستمرار "الخلافة" الإسلامية – حتى أعلـــن كمـــال أتاتورك زوالها فى القرن العشرين الميلادى – أقام القائلون بحرمـــة تعـــدد الأحـــزاب السياسية ما أسموه "بانعدام السوابق التاريخية" لقيام الأحزاب، واعتبروا ذلـــك بمثابـــة "إجماع" من الأمة على حظر تعدد الأحزاب السياسية، وأن نشأة الفرق السياسية التى اصطبغت بالدين والتى صارعت على السلطة كثيراً فى تاريخ المسلمين ليس – فى وهم المانعين لتعدد الأحزاب – إلا ظاهرة مرضية اعترت جسد الأمة الإسلامية (!!!) وقـــد فارق أصحابها سبيل المؤمنين وشقوا عصا الطاعة لمن أسموهم الخلفاء أو الأئمة ومزقوا وحدة الأمة،..... إلخ.

ولا شك فى أن هذه رؤية خاطئة وقراءة سطحية للتاريخ لا تستند إلى نص صحيح ولا اجتهاد عقل سليم. وفى الحقيقة إن لفظ التاريخ الإسلامى ينبغى أن يطلـــق علـــى سيرة النبى (ﷺ) وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين. وهم على سبيل الحصـــر أربعـــة لا خامس لهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلـــى بـــن أبى طالب (رضي الله عنهم) وهو التاريخ الذى من الممكن شرعاً ان نتخذه أسوة حسنة وأن تســـتلهم منه الأحكام الشرعية عملاً بحديث النبى (ﷺ) السابق ذكره: "عليكم بســـنتى وســـنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى.....".

ولذلك نرى أن تسمية الملك الأموى عمر بن عبد العزيز بالخليفة الراشد الخامس، كناية عن عدله واستقامته على سنة خلفاء النبى (ﷺ) وهو تعبير مجازى يؤكد صـــدق الحقيقة الدينية التى تقول: أن الخلافة انتهى عهدها بمقتل على بن أبى طالب (رضي الله عنه).

فإذا تأملنا فى سيرة النبى (ﷺ) وسيرة الخلفاء الراشدين من منظور سياسى أدركنا خطأ القائلين بانعدام السوابق التاريخية لقيام أحزاب سياسية ومعارضة جماعية منظمة للحاكم.

فقد رأينا من قبل موقف الأعراب والأنصار المعارض لأمر رسول الله (ﷺ) فى قسمة غنائم حنين وكانت تلك المعارضة جماعية (معبرة عن رأى الأنصار) وعلنية حتى قيلت فيها الأشعار المعبرة عن الشعور بالظلم.

واطلعنا على بعض ما حدث فى سقيفة بنى ساعدة، وما دار من جدال بين الأنصار والمهاجرين حول من يستحق خلافة رسول الله (ﷺ) فى الحكم.

و لم يقبل سعد بن عبادة (رضي الله عنه) ببيعة أبى بكر (رضي الله عنه) فقال – وقد بلغ به الغضب والسخط حداً لم يستطع عنده أن يمسك لسانه – فقال مخاطباً أبا بكر (رضي الله عنه): "أما والله لو أن لى ما أقدر به على النهوض[٢٦٠] لسمعتم منى فى أقطارها زئيراً يخرجك أنت وأصحابك، ولألحقتك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع خاملاً غير عزيز". ولكن الناس تدافعوا لمبايعة أبى بكر (رضي الله عنه) حتى كادوا يطئون سعداً (رضي الله عنه) فقال: قتلتمونى. احملونى من هذا المكان، فحملوه فأدخلوه داره وترك أياماً. ثم بعث إليه أبو بكر (رضي الله عنه): "أن أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك" (يعنى الخزرج والأنصار).

فكان جواب سعد بن عبادة (رضي الله عنه) – وقد أخذ منه الغيظ كل مأخذ – لرسول خليفة رسول الله: "أما والله لا حتى أرميكم بكل سهم فى كنانتى من نبل، وأخضب منكم سنانى ورمحى وأضربكم بسيفى ما ملكته يدى وأقاتلكم بمن معى من أهلى وعشيرتى، ولا والله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى وأعلم حسابى".

فلما أتى بذلك أبو بكر، قال له عمر: "لا تدعه حتى يبايعك".

فقال بشير بن سعد وكان من الأنصار: إنه قد أبى ولج وليس يبايعك حتى يقتل،

---

(٢٦٠) علينا أن نتذكر أنه كان حينذاك محموماً يرتجف.

وليس بمقتول حتى يقتل ولده معه وأهل بيته وعشيرته. ولن تقتلوهم حتى تقتل الخزرج، ولن تقتل الخزرج حتى تقتل الأوس، فلا تفسدوا على أنفسكم أمراً قد استقام لكم، فاتركوه فليس تركه بضاركم، وإنما هو رجل واحد.

فتركوه، وظل سعد (ﷺ) على معارضته لحكم أبي بكر (ﷺ) حتى وفاته. فلما بويع عمر بن الخطاب (ﷺ) بالخلافة خرج سعد بن عبادة من المدينة إلى الشام فمات بها و لم يبايع أحداً[٢٦١].

وكذلك فعل علي بن أبي طالب (ﷺ) فقد استدعاه أبو بكر الصديق (ﷺ) وقيل له: بايع أبا بكر.

فقال على: أنا أحق بهذا الأمر منكم. لا أبايعكم، وأنتم أولى بالبيعة لى أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبى (ﷺ) وتأخذونه منا أهل البيت غصباً، ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة، وسلموا إليكم الإمارة، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار. نحن[٢٦٢] أولى برسول الله حياً وميتاً، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلا فبؤوا بالظلم وأنتم تعلمون[٢٦٣].

فقال له عمر بن الخطاب: إنك لست متروكاً حتى تبايع.

فقال على: والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه.

فقال له أبو بكر: فإن لم تبايع فلا أكرهك.

فقال أبو عبيدة بن الجراح لعلى: "يا بن عم. إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلا الأقوى على هذا

---

(٢٦١) انظر كتاب "الإمامة والسياسة" وهو المعروف بتاريخ الخلفاء – تأليف: الإمام الفقيه أبى محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبه الدينورى – الجزء الأول صـ ٩ – ١٠.

(٢٦٢) يقصد بنى هاشم.

(٢٦٣) من الملاحظ أن غضب وغيظ على بن أبى طالب (ﷺ) قد دفعه إلى اعتبار حقه فى الخلافة أمراً دينياً يحقق العدل (شريعة الله) فى ظنه.

الأمر منك وأشد احتمالاً واضطلاعاً به فسلم لأبى بكر هذا الأمر، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء، فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق فى فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك".

فقال على بن أبى طالب: "الله الله يا معشر المهاجرين لا تخرجوا سلطان محمد فى العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه فى الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به، إنا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر منكم.

ما كان فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه فى دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية، المدافع عنهم الأمور السيئة القاسم بينهم بالسوية، والله إنه لفينا، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله".

ولم يكتف على (رضي الله عنه) بهذا بل خرج يحمل فاطمة (رضى الله عنها) بنت رسول الله (ﷺ) على دابة ليلاً، وطاف بها على مجالس الأنصار لتسألهم النصرة لتمكين زوجها من الخلافة فكانوا يقولون لها: يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل (يقصدون أبا بكر الصديق) ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبى بكر ما عدلنا به، فيقول على: أفكنت أدع رسول الله (ﷺ) فى بيته لم أدفنه وأخرج أنازع الناس سلطانه(٢٦٤).

ولا نريد أن نطيل فى ذكر التفاصيل الكثيرة التى انتهت بمبايعة علي بن أبى طالب (رضي الله عنه) لأبى بكر الصديق (رضي الله عنه) بعد وفاة فاطمة (رضى الله عنها)(٢٦٥).

ولكننا نريد الالتفات والتأمل فى ذلك التنافس العلنى على السلطة، والاستناد إلى البيعة (= اختيار الشعب) فى تأسيس شرعية الحكم، ووجود المعارضة التى تستند إلى تأييد جماعة أو حزب سياسى.

---

(٢٦٤) نفس المصدر صـ ١١- ١٢.

(٢٦٥) نفس المصدر صـ ١٢ – ١٦.

ونكتفى أخيراً بموقف على بن أبى طالب (ﷺ) نفسه – عندما أصبح خليفة – من حزب (فرقة) الخوارج.

ولن نتطرق إلى التفاصيل التاريخية لنشأة الخوارج، وكيف بدأوا كجماعة مؤيدة لعلى بن أبى طالب (ﷺ) فى صراعه ضد معاوية بن أبى سفيان، الذى كان يحاول انتزاع الخلافة معتمداً على بنى أمية وأنصاره من الشام. ثم انقلب من أطلق عليهم فيما بعد "اسم الخوارج" على علىّ بن أبى طالب (ﷺ) و لم يقبلوا بشرعية حكمه بل حكموا بتكفيره؛ لأنه رضى بالتحاكم إلى الرجال والنزول على حكم البشر "ولا حكم إلا لله".

وحاورهم على بن أبى طالب (ﷺ) كثيراً طلباً لإعادتهم إلى طريق الرشاد وأرسل مبعوثين من قبله لمناقشتهم مثل عبد الله بن العباس (رضى الله عنهما) وكان مما قاله على بن أبى طالب (ﷺ) لهم: "لكم علينا ثلاثة: أن لا نمنعكم من المساجد، ولا من رزقكم من الفيء ولا نبدؤكم بقتال ما لم تحدثوا فساداً"(٢٦٦).

ولكنهم رجعوا عن اتفاقهم معه (ﷺ) وتحزبوا عليه وتجمعوا بالمدائن فأخذ يراسلهم لعلهم يعودون إلى صوابهم.

وكان مما قال (ﷺ) فى رسائله إليهم:

"كونوا حيث شئتم وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دماً حراماً ولا تقطعوا سبيلاً، ولا تظلموا أحداً، فإن فعلتم نبذت إليكم الحرب".

قال عبد الله بن شداد راوى هذا الحديث: "فوالله ما قتلهم حتى قطعوا السبيل وسفكوا الدم الحرام"(٢٦٧).

---

(٢٦٦) كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" – لابن حجر – الجزء ٢٦ – صـ ١١٧ – باب "قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم"، وقول الله (تعالى): (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ).

(٢٦٧) نفس المصدر صـ ١٣١ ولينظر القارئ إلى شرح الأحاديث ٦٩٣٢،٦٩٣١،٦٩٣٠، ٦٩٣٣، ٦٩٣٤ صـ ١١٥ – ١٣٨.

هكذا نرى بكل وضوح وجود حزب سياسى معارض للخليفة الحاكم آخر الخلفاء الراشدين (ﷺ) – وهم فرقة الخوارج الذين أعلنوا بقوة رفضهم لشرعية سلطة الخليفة الراشدين وحملوا السلاح لانتزاع الخلافة منه وكانوا يعتقدون بكفره ويدعون إلى تكفيره، ولكنه (ﷺ) قبل بوجودهم وأعطاهم حقوقهم كمواطنين (لا نمنعكم من المساجد، ولا من رزقكم (=نصيبكم) من الفيء (= الدخل العام) ما داموا لا يستعملون السلاح لفرض رأيهم وسلطتهم على الناس ولا ينتهكون الحرمات.

وأعتقد أننا بعد استعراض هذه الأمثلة القليلة نكون على يقين من خطأ الذين زعموا انعدام السوابق التاريخية لقيام الأحزاب السياسية فى دولة الخلافة الإسلامية التى يدعون بغير حق أنها استمرت قروناً عديدة بالمخالفة الصريحة لحديث نبوى صحيح.

ولا شك – أيضاً – فى أن أسطورة الخلافة الإسلامية لا تزال تداعب خيال وأحلام أغلب قادة العمل السياسى الإسلامى باعتبارها الغاية العليا "المقدسة" التى ينبغى حشد الجهود وتوحيدها لبلوغها من أجل التمكين لدين الله فى الأرض. فإذا حاولنا إدراك مفهوم "الخلافة الإسلامية" عندهم لوجدنا أن عقولهم تطوف فى الضباب حول دولة مركزية تضم تحت سلطانها جميع المسلمين فى كافة أنحاء العالم (الكرة الأرضية) باعتبارها تجسيماً لوحدة الأمة الإسلامية.

وإذا وضعنا هذا الحلم أو هذه الأسطورة تحت مصباح العقل فى نور النصوص الدينية المقدسة لوجدنا أنها كلمة حق يراد بها باطل، أى ليست أكثر من شعار أجوف يرفعه بعض الطامعين فى الملك الدنيوى أو السلطة السياسية لإثارة الحماسة الدينية فى قلوب الناس ليجندهم فى معركة وصوله إلى كرسى الحكم. ولقد بينا سابقاً أن لفظ "الأمة" فى القرآن الكريم يعنى الثقافة التى تتضمن رؤية متميزة للكون وطريقة خاصة فى ممارسة الحياة.

وبالتالى فإن دعوة القرآن الكريم المؤمنين إلى أن يكونوا "أمة واحدة" تعنى حثهم على أن يعتنقوا فى قلوبهم العقيدة التى يبثها القرآن الكريم، وأن يتمثلوا فى سلوكهم

القيم الخلقية التى دعاهم (ﷻ) للتحلى بها، وأن يضبطوا معاملاتهم طبقاً للأحكام التى نزلت بها شريعة الله، وفى كلمة واحدة أن تجمعهم ثقافة مشتركة. ومن ثم فإن "الأمة الواحدة" لا تعنى بالتحديد، أى بموجب التعريف نفسه دولة (= سلطة سياسية) واحدة، وإنما تكون "الأمة الواحدة" السبيل الممهد أو الصراط المستقيم إلى الدولة الواحدة. فالمطلوب شرعاً أن نتوحد ثقافياً قبل أن نستطيع أن نتوحد سياسياً فالوحدة الثقافية تسبق وتمهد للوحدة السياسية. هذا **أولاً**.

**ثانياً**: لقد أعلن الله (ﷻ) تقسيم البشر إلى شعوب وقبائل ضمن تدبيره للحياة على الكوكب الأرضى. كما أقر بانقسام المؤمنين إلى طوائف وفرق – كما أسلفنا – ومن ثم تصبح "القومية" القائمة على وحدة اللغة (= اللسان) والإقليم والتاريخ المشترك إحدى الحقائق الإنسانية الصلبة التى يستحيل محوها أو تجاوزها والقفز فوقها عند الحديث عن أي عمل سياسى.

وهكذا يصبح انتشار المسلمين (= المؤمنين) فى إطار دول قومية مختلفة حقيقة تاريخية سياسية لا سبيل إلى طمسها أو الاستهانة بها.

ثالثاً: لم يحدث أبداً فى التاريخ أن انضم جميع المسلمين فى كل أنحاء الأرض إلى دولة إسلامية مركزية واحدة. وعلى سبيل المثال فإن أندونيسيا – التى تعد أكبر دولة إسلامية من حيث عدد السكان – لم تخضع لسلطة أى خلافة أو امبراطورية إسلامية فى أى وقت.

ودولة الخلافة الإسلامية التى تكونت بالفتوحات العسكرية سرعان ما تفككت واعتراها الانقسام، وكان معظم التاريخ "الإسلامى" هو تاريخ الانفصال والاستقلال عن عاصمة الخلافة لتكوين الولايات والإمارات.

ومن التفاهة والتسطيح للأمور والنظر إلى هذه الحقيقة التاريخية باعتبارها مجرد مرض عارض ظل يعترى جسد الدولة الواحدة طوال الوقت بفعل الأعداء أو الشيطان!! إن حقائق "القومية" تصبغ التاريخ بآياتها التى لا تمحى.

**رابعاً**: الإسلام رسالة إلهية إلى جميع الناس، فهو دعوة موجهة إلى كل البشر. فهل يمكن عقلاً تصور وجود دولة مركزية تضم كل البشر تحت سلطانها؟ هل يمكن التفكير الآن فى دولة تبسط سلطانها على كافة أنحاء الكرة الأرضية وتجمع ضمن مواطنيها بين رجل يعيش فى كندا أو السويد وآخر فى الصومال؟ أين ستكون عاصمة هذه الدولة العالمية المنشودة؟!

وكيف السبيل إلى تكوينها وضم أجزائها المترامية والمبعثرة على سطح الكوكب الأرضى كله؟!

هل يمكن دمج كل هذه القطع بقوة السلاح؟ إذن فقد بدأنا فى طريق التفرق والتنازع، وليس طريق التجمع والتوحد !!

لا يمكن أن تكون الخلافة الإسلامية بهذا المفهوم الأسطورى مشروعاً سياسياً لإنسان عاقل لديه قدر معقول من العلم بحقائق الجغرافيا والتاريخ بل بحقائق الإسلام.

هل نحن بهذا الكلام ندعو إلى إبقاء التفرق والتمزق الذى تعانيه الأمة الإسلامية؟ بالطبع لا. ولكن ندعو إلى احترام نصوص القرآن الكريم الذى لم يدع أبداً إلى تكوين سلطة سياسية مركزية واحدة تضم كل المسلمين تحت سلطانها، وندعو إلى احترام حقائق الجغرافيا والتاريخ، وما نتج من تزواجهما من قوميات وندعو إلى توحيد المسلمين ثقافياً أولاً بنشر الإسلام نقياً صافياً مما دخله من أباطيل الثقافات الوثنية القديمة وخطايا التاريخ، وندعو إلى توحيد المسلمين ثانياً بحشد جهود دولهم من أجل تحقيق الأهداف العليا التى تسعى الشعوب المسلمة إلى بلوغها، فنحن فى أمس الحاجة إلى وحدة الهدف التى تمهد السبيل إلى وحدة الصف (٢٦٨).

**** أسطورة النموذج الإسلامى:**

ترتبط هذه الأسطورة بالأسطورة السابقة المتعلقة بالخلافة الإسلامية.

---

(٢٦٨) انظر كتابنا "التحديات التى تواجه العالم الإسلامى" – الباب الثالث: التمزيق السياسى تحدى الوحدة الإسلامية – صـ ١٧١ – ١٩٩. دار الجميل – القاهرة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م. يطلب من دار سعاد الصباح بالقاهرة.

وتقول هذه الأسطورة: إن الأحزاب السياسية ظاهرة تاريخية نبتت فى تربة الثقافة الغربية الأوروبية التى نشأت فيها مفاهيم الديموقراطية والليبيرالية والعلمانية، وهى مفاهيم لا تعرفها ثقافتنا الإسلامية. ومن الخطأ القياس على تعدد الأحزاب السياسية فى دول لا دينية (هكذا يصفون الغرب رجماً بالغيب) حيث تقوم الأحزاب السياسية على الرأى والمصلحة، أما فى الدولة الإسلامية (المنسوبة إلى الدين) فإن التعدد لابد أن يقوم على الدين والخلاف فى الدين يؤدى إلى الفرقة ويقود إلى الفتنة..... إلخ.

وقد بينا بما لا مزيد عليه – فيما نعتقد – أن الأحزاب السياسية تنشأ بسبب التنافس على السلطة (=الحكم) وهو تنافس قديم قدم المجتمعات البشرية نفسها. وقد شهدته المجتمعات الإسلامية منذ عهد النبى (ﷺ) حتى يوم الناس هذا.

ويقول بعض قادة العمل الإسلامى السياسى المعاصرين فى جرأة بالغة على الحق، بل فى غرور الجاهلين: إن النموذج الإسلامى لم يعرف النظام الحزبى!!

ولا أدرى ماذا يقصد بالنموذج الإسلامى؟! إن كان يقصد نموذجاً فكرياً أى نظرية أو دراسة علمية ابتدعها الفقهاء القدامى أو المحدثون أو استنبطوها من نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية، فالرد على هذا الإدعاء: إن انتزاع معاوية بن أبى سفيان وبنى أمية الخلافة وتغيير سنة النبى (ﷺ) فى الحكم، ثم استمرار التاريخ الإسلامى على هذا النحو المخالف لسنة النبى (ﷺ) هو السبب فى امتناع الفقهاء عن تناول مسائل الحكم (= السلطة السياسية) بالدراسة التفصيلية المعمقة، كما فعلوا فى مسائل العبادات والمعاملات. فكانت النتيجة ضموراً بالغاً فى الفقه السياسى مقابل ترهل مفرط فى فقه العبادات والمعاملات !!

وإن كان يقصد نموذجاً عملياً تاريخياً، فبماذا نسمى تلك الجماعات التى تنافست على السلطة وقاتلت من أجلها على طول التاريخ الإسلامى؟! بماذا نسمى التنافس على خلافة النبى (ﷺ) بين الأنصار والمهاجرين الذى شهدناه فى سقيفة بنى ساعدة؟!

وبماذا نسمى الصراع بين معاوية بن أبى سفيان وعلى بن أبى طالب (رضي الله عنه)؟

وبماذا نسمى قتال الخوارج ضد الدولة الأموية، ثم ضد الدولة العباسية؟

إنه التنافس والصراع بين أحزاب سياسية من أجل الانفراد بالجلوس على كرسى السلطة.

ويقول أصحاب الأسطورة: إن تعدد الأحزاب السياسية يعنى الاقرار بتداول السلطة الذى يناقض – فى زعمهم – مبدأ أو مفهوم دوام بيعة الإمام حتى وفاته أو عزله عند طروء ما يقتضى ذلك بالكفر (الارتداد عن الإسلام) أو الجنون أو المرض الشديد،.....

وفى الحقيقة فإن دوام بيعة الإمام ليس مبدأ عاماً يجب الأخذ به شرعاً؛ لأن البيعة ليست إلا عقداً أو صفقة بين طرفين: الإمام والرعية أو الحاكم والشعب، ومن الجائز – طبقاً لأصول الشريعة – تحديد مدة العقد فالأصل فى الأمور كلها الإباحة ما لم يرد نص صحيح على التحريم أو الحظر. ولا يوجد بالقطع مثل هذا النص.

ولا يمكن الاستناد إلى التجربة العملية أو الوقائع التاريخية فى الزمن الذى يجب – شرعاً – استلهامه واستنباط الأحكام الشرعية منه، وأعنى به زمن الخلافة الراشدة؛ لأن الخليفة الأول أبو بكر الصديق (ﷺ) لم يجلس على كرسى السلطة إلا أقل من عامين. وقتل الثلاثة الراشدون من بعده، فقد قتل عمر بن الخطاب (ﷺ) بعدما يقرب من عشر سنوات من الإمارة، وقتل عثمان بن عفان (ﷺ) بعد اثنتى عشرة سنة، وقتل على بن أبى طالب (ﷺ) بعد ست سنوات فقط من الحكم. فأين الجلوس الطويل الممتد على كرسى الخلافة الذى يبرر مفهوم أو مبدأ دوام البيعة واستمرارها حتى الوفاة؟!.

إن أطول مدة كانت من نصيب عثمان بن عفان (ﷺ) وهى تساوى تقريباً مدتين أو فترتين رئاسيتين فى الدول المعاصرة.

كما أن الادعاء بفشل التجارب الحزبية فى الدول الإسلامية المعاصرة – وتلك أسطورة أخرى يعتمد عليها وينشرها أصحاب الرأى القائل بتحريم الأحزاب السياسية

- مردود عليه بأن الأحزاب التى وصلت إلى الحكم فى تلك الـــدول جـــاءت عـــبر انقلابات عسكرية، وحصلت على السلطة بالقوة، وليس باختيار (بيعة) الشعب، وأنها تعتنق أفكار ومناهج تتضارب مع الإسلام وقد حاولت تلك الأحـــزاب - و لم تـــزل تحاول - فرضها على شعوبها بالإكراه والخداع.

وهكذا نرى أن هذه الأحزاب السياسية المستبدة لا علاقة لها بالإســـلام. فكيـــف يمكن الاستدلال بها على تحريم تعدد الأحزاب السياسية فى دولة إسلامية معاصرة !!..

## الباب الثانى
## الحقوق والواجبات

**(أ) الحق والواجب وجهان لحقيقة واحدة:**

لا يمكننا فصل الحقوق عن الواجبات؛ لأن نيل الحقوق لا يتحقق إلا بالقيام بالواجبات، فالحق هو الوجه الآخر للواجب. ولذلك نقول: حقوق الفرد على مجتمعه هى واجبات المجتمع نحو الفرد، وحقوق المجتمع على الفرد المنتمى إليه هى واجبات الفرد إزاء المجتمع الذى يمنحه هويته وتنمو فيه شخصيته.

وحقوق الشعب على حاكمه هى الواجبات الملقاة على الحاكم التى ينبغى عليه القيام بها وأداؤها إلى الشعب، وحقوق الحاكم على الشعب هى الواجبات المفروضة على الشعب ليؤديها إلى الحاكم بموجب البيعة التى تحقق بها استلام السلطة بوسيلة شرعية.

والأحزاب السياسية هى الكيانات الشعبية المباح لها المطالبة بالسلطة، والسعى من أجل الحصول عليها بطرق سلمية، يمكن تلخيصها فى دعوة عموم الناس للاقتناع برؤيتها، ومنهجها وخططها لتحقيق الدولة المنشودة وإصلاح أحوال الناس فى كافة مجالات المعيشة حال حصولها على السلطة. وترجمة هذا الاقتناع الشعبى يتحقق فعلياً باختيار المرشحين الذين تقدمهم الأحزاب لنيل مقاعد السلطة التشريعية أو التنفيذية (= الحكومة) عبر الانتخابات التى تعد بمثابة امتحانات تدخلها الأحزاب السياسية طوعاً من أجل الحصول على ثقة الشعب فى رؤيتها ومنهجها وخططها لإصلاح المجتمع.

وعلى الأحزاب السياسية أن تجتهد فى تحقيق رؤيتها ومنهجها وتنفيذ خططها التى وعدت الشعب بها عند وصولها إلى السلطة، أى فى كلمة واحدة: أن تفى بما عاهدت الشعب عليه، وأن تكون مستعدة للتنازل طوعاً عن السلطة إذا فقدت ثقة الشعب فى

أى انتخابات قادمة أو أظهر الشعب اعتراضه وسخطه على ما تقوم به من إجراءات، لأن اختيار (= رضى) الناس هو مصدر شرعية السلطة، وهذا هو مفهوم البيعة.

أما إذا استعمل الحزب الحاكم ما تتيحه له السلطة من قوة جبرية لفرض استمراره فى السلطة، ورفض النـــزول على إرادة الشعب إذا أظهر سخطه على اســـتمراره فى السلطة فحينئذ يفقد الحزب الحاكم شرعيته.

ونخلص مما تقدم إلى أن الوظيفة الأساسية للحزب السياسى. وبالتالى حقه الأصلى أو الرئيس هو طلب السلطة السياسية.

ويتفرع من هذا الحق الرئيس عدة حقوق فرعية نحاول إيجازها فيما يلي:

(١) إلقاء الضوء على أهم القضايا والمشكلات التى يعانى منها النـــاس وتعتـــرض سبيلهم إلى حياة طيبة تليق بكرامة أبناء آدم (عليه السلام)، خليفة الله فى الأرض. والهـــدف من هذا رفع وعى الناس بما يجرى حولهم من أحداث، وتثقيفهم وحثهم على الاهتمام بالأحوال العامة لأمتهم، والتحديات التى تواجهها، ودفعهـــم للاشـــتراك فى العمـــل السياسى النشط من اجل المساهمة فى مواجهة التحديات التى تواجـــه الأمـــة وحـــل المشكلات التى تعسر معيشة الناس. وكل ذلك يقوى الانتماء والولاء للأمة.

وغنى عن البيان أن هذا الحق يفترض الإقرار بحق الأحزاب السياســـية – خاصـــة المعارضة منها – فى الحصول على المعلومات وتمكينها من استعمال وســـائل (منـــابر) الإعلام المختلفة.

(٢) حق الأحزاب المعارضة فى انتقاد سياسات وإجراءات الحكومـــة (= الحـــزب الحاكم) وكشف مساوئها ومظاهر الفساد فى كافة المجالات والمستويات. سواء كـــان ذلك عن طريق المجالس الشعبية المنتخبة (= البرلمانات) - المنوط بها مراقبـــة أعمـــال الحكومة ومحاسبتها بالإضافة إلى إصدار القوانين – أو عن طريق وســـائل الإعـــلام. ولاشك فى أن هذا العمل يندرج تحت الواجب الشرعى بالأمر بالمعروف والنهى عـــن المنكر، ويمثل ضغطاً على الحكومة من أجل التراجع عن تلك السياسات والإجـــراءات

الخاطئة ومحاربة الفساد والظلم.

(٣) حق الأحزاب السياسية فى تنظيم الفعاليات الجماعية المعبرة عن رأيها فى القضايا الخلافية الاجتهادية مثل المظاهرات والوقفات الاحتجاجية والاعتصامات والإضرابات. وذلك من أجل الضغط على الهيئة الحاكمة (= الحزب الحاكم) لتغيير سياستها وتعديل إجراءاتها.

(٤) حق الأحزاب السياسية فى تقديم رؤيتها وخططها لحل المشكلات التى تواجه المجتمع، "والدعاية الانتخابية" لمرشحيها من أجل إقناع عموم الناس بجدارتهم لاعتلاء كراسى السلطة التشريعية أو التنفيذية. وبذلك يمنح الشعب حريته "الحقيقية" إذ يعطى الفرصة لاختيار ما يلائمه ويفضله من بين البدائل المختلفة.

(٥) حق إنشاء مراكز البحث والمعاهد العلمية التى تقوم بتعليم الناس – خاصة الشباب – العلوم السياسية، وما يتعلق بها من علوم إنسانية مثل الاقتصاد والتاريخ والاجتماع، وغيرها من الدراسات التى تؤهل الناس لمعرفة الحياة السياسية على نحو أفضل وتجعل مشاركتهم فيها على علم وبصيرة.

كما يمكن أن تقوم هذه المراكز العلمية بعقد المؤتمرات البحثية والندوات التى تناقش القضايا الهامة فى مجال السياسة الوطنية والعالمية (الدولية) والاقتصاد والأزمات الخطيرة التى يمكن أن تهدد الأمن القومى والسلام العالمى. ومن ثم يكون للأحزاب السياسية دور هام فى تطوير وتقدم المعرفة الإنسانية، وتقديم الحلول للمشاكل الخطيرة على مستوى الدولة (الوطن) أو العالم.

(٦) الحق فى تدريب الشباب على العمل السياسى ليكون منهم القادة الذين يتولون – عن علم وخبرة – المناصب السياسية؛ لأن السياسة – فى الحقيقة – معرفة إنسانية يجب تحصيلها بالدراسة، ومهارة يجب اكتسابها بالتدريب، والأحزاب السياسية هى المدارس ومراكز التدريب التى ينبغى أن تؤدى هذا الدور الهام لبناء الدولة.

وإذا ألقينا نظرة فاحصة متدبرة على ما ذكرنا من حقوق لوجدنا أنها تندرج جميعاً

تحت تحت عنوان واحد هو حرية (= حق) الإنسان فى التفكير والتعبير أو حرية الرأى.

وبالتالى فإن الواجب الأساسى على الأحزاب السياسية أن تلتزم بالحدود والضوابط التى تمنع حرية (= حق) الإنسان – وبالتالى الأحزاب السياسية – فى التفكير والتعبير عن الرأى من انتهاك حقوق الآخرين بمعنى ألاّ يكون فى ممارسة الحزب السياسى لنشاطه أى اعتداء على حرمات وحقوق الآخرين.

وهو ما يمكن تلخيصه بأن تلتزم الأحزاب السياسية فى ممارسة نشاطها بواجب الحفاظ على إبقاء التنافس السياسى على السلطة فى نطاق اختلاف الرأى ولا تسمح بتحوله إلى صراع دموى عنيف ينتهك الحرمات.

فما هى الحدود والضوابط التى ينبغى الالتزام بها من أجل تحقيق تلك الغاية المنشودة؟[٢٦٩]

(٢٦٩) لمزيد من الشرح والتفصيل نرجو القارئ الكريم الرجوع إلى باب حدود الرأى وباب ضوابط حرية الرأى فى كتابنا "الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة" صـ ٢٤٩ – ٤٥٢ – دار القلم – القاهرة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

**(ب) الحدود:**

الحدود هى "الحرمات الإنسانية" التى ينبغى أن تقطع حق الأحزاب السياسية – والإنسان بصفة عامة – فى التعبير عن الرأى، فإنها بمثابة خطوط حمر لا ينبغى لأى إنسان أن يخترقها أو يتجاوزها فى ممارسته لحقه فى التعبير عن رأيه.

والإقرار بوجود هذه الحدود أمر حتمى لا مفر من الإذعان لمقتضياته، إذا أريد بقاء المجتمعات البشرية واستقرارها لإنتاج الحضارة؛ لأن البديل أن يسعى كل إنسان – على مستوى الأفراد أو الجماعات – إلى بلوغ أهدافه والتعبير عما يريد بغض النظر عن "حرمات الآخرين".

ولما كانت أهداف أو أغراض البشر متضاربة وكثيراً ما تتناقض مصالحهم، فإن ترك باب الحريات مفتوحاً على مصراعيه دون حدود سوف يفضى – لا محالة – إلى إشعال الصراعات وتتحول الحياة على كوب الأرض إلى ميدان حروب لا تنتهى وتصير المجتمعات البشرية غابات يفترس فيها القوى الضعيف.

خاطبنا الله (ﷻ) منذ اللحظة الأولى لبدء هذه الحياة الدنيا – وكنا محمولين فى صلب أبينا آدم (عليه السلام) بقوله: (**اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**)(٢٧٠).

"اهْبِطُوا": اخرجوا من الجنة وانزلوا إلى الأرض. وعبرّ عن هذا بالهبوط، لأن الهبوط يعنى الانتقال من الأعلى إلى الأسفل أو من الأرقى إلى الأدنى. إذ لاشك فى أن الحياة على الأرض حيث يخوض البشر الابتلاء ويتعرضون للفتن أدنى درجة أو أقل مكانة من الحياة فى الجنة حيث النعيم المقيم الذى لا يزول والخلود فى رحمة الله (ﷻ) حيث لا ألم ولا موت.

"بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ": حيث تكابدون العداوة التى ستنشأ – لا محالة – بين بعضكم. وفى التعبير إشارة بليغة إلى جميع صور الصراع الذى يدور رحاه بين بنى

(٢٧٠) سورة البقرة: من الآية ٣٦.

الإنسان على كافة المستويات: بين الجماعات المتنازعة على مناطق الثـــروة والنفـــوذ، وبين الأفراد المتنافسين على المال والجاه والشهوات، بل داخل النفس الإنسانية بين شتى النوازع المتضاربة.

وفى قوله (ﷻ): "بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ" إشارة إلى أن جميع البشـــر يعـــدون – فى الحقيقة – أبعاضاً أى أجزاءً لكائن واحد، هو آدم (عليه السلام) خليفة الله (ﷻ) فى الأرض. والمقصود: أن الناس لو انتبهوا وتيقنوا من تلك الحقيقة وأذعنوا لمقتضـــاها لانتفـــت أسباب الصراع، إذ سيدركون أنهم جميعاً أبناء رجل واحد خلقه الله من تراب، وجعله خليفة فى الأرض.

ولكن الحقيقة تغيب وراء الحجب التى يبنيها الكبرياء، رداء الله (ﷻ) الذى يسعى الإنسان بظلمه وجهله أن ينتزعه من الله (ﷻ) ويستطيل به على خلقه.

وههنا تنشأ العداوة إذ يحاول بعض الناس فرض سلطانهم على الآخرين، وإكراههم على ما لا يرضون. والعداوة كراهية شديدة تبلغ حد إرادة محو الآخـــرين المخـــالفين بإبادتهم أى قتلهم الذى يعنى سلب حياتهم أو إكراههم على إعلان ما يكرهون (وهذا هو الإجبار) أو كتمان ما يحبون (وهذا هو القهر) وفى كلمة واحدة سلب إرادتهم.

العداوة – إذن – تفضى إلى سلب حياة أو إرادة المخالفين.

وقوله (ﷻ): (**وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**)، يعـــنى: واعلمـــوا أن الأرض ســـتكون لكـــم منـــزلاً وبيتـــاً مؤقتـــاً تســـتريحون فيـــه (وهـــذا هـــو معـــنى "مُسْـــتَقَرٌّ") وتحصـــلون بعـــض منـــافعكم (وهـــذا هـــو معـــنى مَتَـــاعٌ) "إِلَى حِينٍ" يأتى أجل عودتكم إلى الغيب الذى كنتم فيه قبل هبوطكم.

والسؤال كيف ستكون الأرض مستقراً ومتاعاً وقد أنذرتنا الآية الكريمة بالعـــداوة التى ستشتعل بين بعضنا البعض؟

فإننا لو تركنا لكل إنسان الحق (الحرية) فى عمل ما يريد وتحصيل مـــا يشـــتهى، لتحولت الأرض إلى ميدان حرب وساحة قتال، تسفك فيه الدماء وتستباح الحرمات،

ولم تكن أبداً مستقراً ولا متاعاً، ولاستحال ظهور الحضارات الإنسانية.

هكذا وجد البشر أنفسهم مضطرين إلى التوافق والإجماع على مجموعة من المبادئ والقوانين أو النظام العام الذى يجتمعون ويتوحدون على احترامه، وطاعة أوامره حتى يتم ضبط الصراع فيما بينهم ولا يسمح للعداوة الناشبة بينهم – لا محالة – أن تضرم النار فى حياتهم.

ولذلك وجدنا جميع الدول المعاصرة تنص فى دساتيرها أو قوانينها الأساسية على أن حرية الرأى والتعبير عنه حق مكفول لكل مواطن فى حدود القانون. وتصدر كل دولة من دول العالم القوانين المنظمة لحق التعبير عن الرأى مثل قانون المطبوعات والنشر ومواثيق العمل الإعلامى فضلاً عن أجهزة الرقابة المختلفة التى تضع الحدود لحق التعبير وتدفق المعلومات بما يتلاءم مع ظروف كل دولة وأمنها القومى.

وكذلك وجد البشر جميعاً فى كل الدول أنفسهم مضطرين إلى التوافق والإجماع على مجموعة من المبادئ والقوانين ذات الصبغة العالمية – أو بالأحرى الإنسانية – حتى يمكن استمرار الحياة على كوكب الأرض مثل: ميثاق الأمم المتحدة، والإعلان العالمى لحقوق الإنسان، والمعاهدات الدولية الخاصة بحظر انتشار الأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل، والمعاهدات الدولية الخاصة بحماية المدنيين أثناء الحروب، ومعاملة الأسرى.

فلا يمكن عقلاً، ولا يقبل إنسانياً أن تطلق الحريات والحقوق ومن بينها حق التعبير عن الرأى بلا قيد ولا شرط، فكان حتماً مقضياً أن توضع الحدود التى يتوقف عندها حق الإنسان وبالتالى الأحزاب السياسية فى التعبير عن الرأى.

فأين تكمن المشكلة التى تثار دائماً فى مختلف المجتمعات البشرية أو على مستوى العالم بشأن حرية الرأى؟ ما هو مصدر الأزمات المتكررة المتعلقة بحق الإنسان فى التفكير والتعبير الحر عن فكره؟

والإجابة: المصدر الأول للأزمات هو محاولة بعض الجهات – سواء كانت أفراد أو

جماعات أو دول – استغلال "شعار" حرية الرأي من أجل الحصول على بعض الأغراض الأخرى التى ليست لها علاقة بالغاية العليا لحرية الرأى، ألا وهى الكشف عن الحقيقة أو تحقيق الصالح العام للناس عبر إلقاء الضوء من مختلف الجوانب أى من خلال وجهات النظر أو الأراء المتباينة حول القضية موضوع البحث.

فنجد على سبيل المثال بعض الكتاب والفنانين يتخذون من شعار حرية الرأى قناعاً براقاً يخفون وراءه رغبتهم فى السخرية من عقائد الآخرين المخالفين لهم فى الرأى، والاستهزاء بأعرافهم وثقافتهم بصفة عامة تحقيقاً لأغراض سياسية – مثلاً – وليس بهدف الكشف عن الحقيقة أو زيادة العلم، وذلك بالتناقض مع الإحساس الفطرى بالكرامة الآدمية والمساواة بين البشر، فضلاً عن القوانين والأعراف التى توجب احترام الآخرين، وتجنب إيذائهم بالإضافة إلى أن العقل البشرى يعترف بأن العقائد وقضايا الثقافة العميقة تتجاوز قدرته على الحكم (الفصل) فيها، ومن ثم فلا يحق لإنسان – يحترم عقله – أن يستهزئ بالآخرين.

والمصدر الثانى للأزمات هو محاولة بعض الجهات اصطناع حرمات أو مقدسات زائفة، ورفعها إلى مكانة الحد القاطع لحرية الإنسان فى التعبير عن رأيه، مثل جريمة "معاداة السامية" التى يقصد بها تحديداً "معاداة اليهود"(٢٧١).

وبالتالى أصبح من حق سلطة الادعاء القانونى (النيابة العامة) فى الدول الأوروبية اتهام أى شخص بارتكاب تلك الجريمة، وتقديمه إلى المحاكمة وتجريمه ومعاقبته، ويكون "جسم الجريمة" – إن صح التعبير – مجرد مقال أو بحث علمى يتناول التاريخ اليهودى ويشكك على سبيل المثال فى بعض تفاصيل واقعة "الهولوكست" أو محرقة اليهود على يد الزعيم الألمانى النازى هتلر؛ لأن تلك الحادثة التاريخية صارت فى الفكر الغربى المعاصر إحدى المقدسات التى لا يجوز للعقل الإنسانى – بزعمهم – أن يقترب منها بالجدال والنقاش فى تفاصيلها كما يرويها اليهود الصهيونيون، ويمتنع على العقل

(٢٧١) انظر كتاب "الساميون والمعادون للسامية" تأليف برنارد لويس – ترجمة محمد محمود عمر – نشر الهيئة العامة للكتاب – القاهرة.

الإنسانى أن يضع تلك الحادثة التاريخية تحت مصباح العقل على ضوء حقائق التاريخ وأساليب البحث العلمى!!![٢٧٢].

كما تقوم كثير من النظم السياسية الاستبدادية باختراع بعض "المقدسات" الزائفة التى يمتنع على المواطنين الاقتراب منها بالتفكير والجدال. وذلك للحفاظ على بقاء الحكام فوق كراسى السلطة رغم أنف المواطنين.

ومن أجل الخروج من تلك الأزمات يجب أن تجتمع البشرية كلها على كلمة سواء تتضمن مجموعة من الحدود أو المقدسات التى تحظى باحترام جميع الناس، ويتفقون على اعتبارها بمثابة خطوط حمر لا ينبغى أبداً تحت أى ظرف من الظروف لأى نسان أن يخترقها، أو يتجاوزها أثناء ممارسته لحقه فى التعبير عن رأيه. وهو ما يعنى أننا – نحن البشر – فى أمس الحاجة إلى ما يكون "الإجماع" فى هذا المجال.

وأعتقد أن الإعلان العالمى لحقوق الإنسان[٢٧٣] والعهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية[٢٧٤] يصلحان لبناء ذلك الإجماع المنشود إذ يكونان أساساً متيناً لمعرفة الحدود التى ينبغى أن تقف عندها حرية الإنسان فى التعبير عن رأيه، وذلك لأنهما وثيقتان عالميتان وصادرتان عن الجمعية العامة للأمم المتحدة التى تمثل مجموع البشر، وتعتبر الوثائق والقرارات الصادرة عنها بمثابة تعبير عن ضمير الإنسانية، ويعد توقيع كل الدول عليها بمثابة "إجماع" بشرى يعبر عن موافقة كل الناس على ما تحتويه تلك الوثائق والقرارات من مبادئ.

يقول الإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى المادة ٢٩:

(١) "على كل فرد واجبات إزاء الجماعة التى فيها وحدها يمكن أن تنمو شخصيته النمو الحر الكامل".

---

(٢٧٢) انظر كتاب "الأساطير المؤسسة لدولة اسرائيل" – تأليف روجية جارودى – دار الشروق – القاهرة.

(٢٧٣) انظر نص "الإعلان العالمى لحقوق الإنسان" فى كتاب الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان – المجلد الأول (الوثائق العالمية) صـ ٢٧-٣٢ – اعداد الدكتور/ محمود شريف بسيونى - دار الشروق – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ - ٢٠٠٣م.

(٢٧٤) انظر نص العهد الدولى الخاص بالحقوق السياسية والمدنية فى نفس المرجع – صـ ٧٩ – ٩٦.

(٢) لا يخضع أى فرد فى ممارسة حقوقه وحرياته إلا للقيود التى يقررهـــا القـــانون مستهدفاً منها – حصراً – ضمان الاعتراف بحقوق وحريات الآخرين، والوفاء بالعادل من مقتضيات الفضيلة والنظام العام ورفاه الجميع فى مجتمع ديموقراطى[٢٧٥].

ويضع هذا النص المتفق عليه عالمياً حدوداً لممارسة الفرد لحقوقه وحرياتـــه، ومـــن بينها بالطبع حرية التعبير عن الرأى، التى قلنا أنها النشاط الأساسى للأحزاب السياسية.

وهذه الحدود هى:

١- احترام حقوق وحريات الآخرين.

إذ لا يعقل ولا يقبل أن يكون فى ممارسة الإنسان لحقه فى التعبير الحر عـــن رأيـــه اعتداء على حقوق وحريات البشر الآخرين. وقد أرجع نص الإعلان العالمى لحقـــوق الإنسان وجوب احترام سائر حقوق وحريات الآخرين إلى الكرامة المتأصلة فى نفوس جميع البشر وليس فقط إلى ضمان الاعتراف الواجب بتلك الحقوق والحريات.

٢- المحافظة على الأخلاق الفاضلة، التى تحفظ تماسك البنيان الاجتماعى للأمـــة. وقد عبر النص عن ذلك بقوله: "الوفاء بالعادل من مقتضيات الفضيلة"، والمقصـــود: الحفاظ على القدر المعقول والمقبول إنسانياً من الالتزامات الخلقية.

٣- رعاية الاستقرار الاجتماعى والصالح العام.

إذ لا يعقل ولا يقبل إنسانياً أن تكون ممارسة حرية التعبير عن الرأى سبباً فى إثـــارة الاضطراب الاجتماعى، وإشاعة الفوضى والإضرار بمصالح مجموع الناس. هـــذا هـــو المعنى المقصود من حديث النص عن "الوفاء بالعادل من مقتضيات النظام العام ورفـــاه الجميع فى مجتمع ديموقراطى".

ولاشك فى أن الالتزام بهذه الحدود عند ممارسة الحق فى التعبير عن الرأى يعد واجباً على الفرد – كما يقول البند الأول من المادة ٢٩ – إزاء الجماعة التى فيها وحـــدها يمكن أن تنمو شخصية الإنسان نموا حراً كاملاً، أى أنها تمثل حق الجماعة على الفـــرد

---

(٢٧٥) نفس المصدر صـــ ٣٢.

الذى يستحيل عقلاً أن يحيى وأن يعرف نفسه إلا من خلال الأمة التى ينشأ فيها وتمنحه هويته (ثقافته).

ثم جاء العهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية - الصادر بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٦ ديسمبر ١٩٦٦ والذى بدأ تنفيذه فى ٢٣ مارس ١٩٧٦ – فأعطى بعض التفاصيل الشارحة لما تضمنته المادة ٢٩ من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان من حدود لممارسة حرية التعبير عن الرأى.

فنصت المادة (١٧) من هذا العهد على أنه:

"(١) لا يجوز تعريض أى شخص – على نحو تعسفى أو غير قانونى – لتدخل فى خصوصياته أو شئون أسرته أو بيته أو مراسلاته لأى حملات غير قانونية تمس شرفه أو سمعته.

(٢) "من حق كل شخص أن يحميه القانون من مثل هذا التدخل أو المساس"[٢٧٦].

وأجازت المادة (١٨) من هذا العهد "إخضاع حرية الإنسان فى إظهار دينه أو معتقده للقيود التى يفرضها القانون والتى تكون ضرورية لحماية السلامة العامة أو النظام العام أو الصحة العامة أو الآداب العامة أو حقوق الآخرين وحرياتهم الأساسية"[٢٧٧].

وتنص المادة (١٩) على حق كل إنسان فى أن يعتنق ما يشاء من آراء دون مضايقة، وحقه فى حرية التعبير الذى يعطيه الحق فى الحصول على المعلومات والأفكار وتلقيها ونقلها للآخرين دون اعتبار للحدود سواء كان ذلك على شكل مكتوب أو مطبوع أو فى قالب فنى أو بأية وسيلة أخرى يختارها.

ولكن نص المادة يقرر بوضوح تام فى البند الثالث أن ممارسة هذه الحقوق تستتبع واجبات ومسئوليات على الإنسان، ولذلك يجوز إخضاعها للقيود ولكن بشرط أن

---

(٢٧٦) نفس المصدر صـ ٨٥.

(٢٧٧) نفس المصدر صـ ٨٦.

تكون هذه القيود محددة بنص القانون – الذى يجب أن يخضع له الجميع – وأن تكون ضرورية لاحترام:

"(أ) حقوق الآخرين وسمعتهم.

(ب) حماية الأمن القومى أو النظام العام أو الصحة العامة أو الآداب العامة"[٢٧٨].

وتخضع ممارسة الحق فى التجمع، والحق فى تكوين الجمعيات والنقابات لنفس القيود[٢٧٩].

وباستقراء ما قدمنا من نصوص – تحظى بإجماع عالمى يشمل كل البشر – نستطيع أن نقول: إن الحدود التى ينبغى ألا يعتدى عليها الإنسان فى ممارسته لحقه فى التعبير عن رأيه هى:

(١) حقوق الآخرين وحرياتهم، أى حرمات الإنسان التى تعنى حرمة الحياة (= النفس) والمال والكرامة.

(٢) سمعة الناس أو شرفهم الذى يطلق عليه فى الحديث النبوى الشريف اسم "العرض".

(٣) الحياة الخاصة والأسرار الشخصية للأفراد.

(٤) الأمن القومى.

(٥) السلامة العامة والنظام العام.

(٦) الأخلاق الفاضلة والأداب العامة.

(٧) الصحة العامة وسلامة البيئة.

وفى كلمة واحدة حدود الحرية هى حرمات الإنسان التى يجب احترامها وتجنب الاعتداء عليها.

وبهذا نطقت آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى (ﷺ).

---

(٢٧٨) نفس المصدر صـ ٨٦.

(٢٧٩) نفس المصدر صـ ٨٦، ٨٧.

وسنتناول باختصار فى الفصول الآتية بعض نصوص الشرع الإسلامى الحكيم التى تتعامل مع هذه الحرمات الإنسانية باعتبارها سيوفاً تقطع حق الإنسان بصفة عامة والأحزاب السياسية بصفة خاصة فى التعبير عن الرأى.

**(١) حرمة النفس (= حق الإنسان فى الحياة):**

قال الله (ﷻ):

**(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)**(٢٨٠).

"نَفْساً": إنساناً.

فهذا لفظ يشمل جميع الناس، فهو بيان أن كل نفس إنسانية قد جعلها الله (ﷻ) حرماً آمناً لا يجوز انتهاكه أو اقتحام حرمته.

"بِغَيْرِ نَفْسٍ": دون أن يكون ذلك الإنسان قد قتل نفساً أخرى.

"أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ": أو بغى على السلطة الشرعية الحاكمة بغية انتزاع الحكم، مما يفضى إلى انتهاك الحرمات (قتل الناس وتدمير الممتلكات، وإشاعة الفوضى وتفويض البنيان الاجتماعى ونشر الخوف،.....) أثناء القتال، ويؤدى إلى فرض قوانين تخالف الشريعة الإسلامية. وهى الجريمة التى أعطاها الفقهاء قديماً اسم "الحرابة"، والآية الكريمة تبين أنه لا يجوز قتل أى إنسان إلا إذا ارتكب – هو نفسه – جريمة القتل أو جريمة الحرابة (= الفساد فى الأرض).

وقوله (ﷻ): "فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً" تصوير لبشاعة جريمة (خطيئة) القتل، وإشارة إلى أن جميع الناس يعودون بأصلهم إلى نفس واحدة هى آدم (عليه السلام). فهذا بيان بليغ لعظمة حرمة النفس الإنسانية، فمن ينتهك حرمتها بالقتل يكون كمن أباد جميع البشر، ولوحدة الأصل الذى خرج منه كل الناس، فهم متساوون فى الحقوق والواجبات.

---

(٢٨٠) سورة المائدة من الآية (٣٢).

وقوله (ﷻ): "وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً": دعوة بالغة إلى الحفاظ على الحياة الإنسانية بانقاذ كل نفس تتعرض لما يهدد حياتها، إذ يكون ثواب من ينقذ نفساً إنسانية واحدة كمن أنقذ جميع الناس من الهلاك، كما يكون عقاب من قتل نفساً واحدة كمن قتل جميع الناس.

وقال الله (ﷻ): (**وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**)[٢٨١].

"بِالْحَقِّ": بالعدل الذى هو حكم الله (ﷻ) وهو عقوبة جريمة القتل أو الحرابة.

وقال رسول الله (ﷺ):

"أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور"[٢٨٢].

والخلاصة أن حياة الإنسان هى أعظم الحرمات التى لا يباح انتهاكها بأى دعوة من الدعوات، أو تحت أى ظرف من الظروف إلا بالعدل الذى ينبغى أن يعبر عنه حكم القانون.

ولا يقبل – إذن — من أى حزب من الأحزاب السياسية أن يدعو إلى قتل الناس، أو إبادة جماعة من البشر تحت أى شعار، كما فعل الحزب النازى فى ألمانيا مع اليهود، وإذا صنع هذا يجب حظره وعقاب من دعا إلى ذلك.

**(٢) حرمة المال (حق الإنسان فى التملك):**

قال الله (ﷻ): (**وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)[٢٨٣].

"بِالْبَاطِلِ": بالظلم الذى هو نقيض العدل. والعدل هو حكم الله (ﷻ) الذى جاء فى وحيه. والمعنى المقصود بأى وسيلة تخالف شريعة الله مثل السرقة والرشا (الرشوة) والنهب (السطو المسلح أى السرقة تحت تهديد السلاح) والاختلاس (= الاستيلاء على المال الذى أؤتمن عليه الإنسان بموجب وظيفته أو مكانته) والغلول (الاستيلاء على المال العام).

---

(٢٨١) سورة الأنعام: من الآية (١٥١).

(٢٨٢) الحديث رقم ١١٩٥ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٢٨٣) سورة البقرة: الآية (١٨٨).

وقال الله (ﷻ): (**وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**)(٢٨٤).

وقال الله (ﷻ): (**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)(٢٨٥).

فجعل (ﷻ) هذه العقوبة الشديدة على النفس (قطع اليد) ردعاً لكل من تسول له نفسه أخذ أموال الناس بغير حق.

وقال رسول الله (ﷺ): "لا إسلال ولا غلول"(٢٨٦).

إسلال: اختلاس.

غلول: استيلاء على المال العام بغير حق.

وقال (ﷺ): "لعن الله الراشى والمرتشى"(٢٨٧).

وقال (ﷺ): "من أريد ماله بغير حق فقاتل فقتل فهو شهيد"(٢٨٨).

وقال (ﷺ): "قاتل دون مالك حتى تحوز مالك أو تقتل فتكون من شهداء الآخرة"(٢٨٩).

ويتضح لنا مما تقدم من نصوص أن حرمة المال تعد أحد حدود الله (ﷻ) التى لا يباح الاعتداء عليها. وبالتالى فلا يجوز لحزب من الأحزاب أن يدعو إلى استحلال أموال الناس كما فعل الخوارج قديماً، وبعض حركات تيار الإسلام السياسى التى انتهجت العنف وسيلة لانتزاع الحكم فأفضى بها هذا المنهج الضال إلى استحلال أموال الناس – خاصة النصارى واليهود – بدعوى تكفيرهم، أى أنهم كفار يباح الاستيلاء على أموالهم (؟!!).

---

(٢٨٤) سورة آل عمران: الآية (١٦١).

(٢٨٥) سورة المائدة: الآية (٣٨).

(٢٨٦) الحديث رقم ٧١٦٩ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٢٨٧) الحديث رقم ٥١١٤ فى نفس المصدر.

(٢٨٨) الحديث رقم ٦٠١١ فى نفس المصدر.

(٢٨٩) الحديث رقم ٤٢٩٣ فى نفس المصدر.

وكانت هذه الفتوى الضالة المضلة من أجل توفير المال اللازم للقيام بالعمليات العسكرية الإجرامية الإرهابية التى أطلقوا عليها زوراً وبهتاناً اسم "الجهاد"؟!!

وتحت شعار الجهاد قاموا بالسطو المسلح على محلات الذهب والمؤسسات التجارية المملوكة للنصارى، ثم توسعوا فى ممتلكات المسلمين بدعوى أنهم محاربون لشريعة الإسلام!!

ولا يباح لأى حزب من الأحزاب أن يسير المظاهرات التى تعتدى على الناس وممتلكاتهم الخاصة أو العامة، لأن حرمة المال من الحدود التى تقطع حق الإنسان فى التعبير عن رأيه، فلا يجوز بحال من الأحوال الاعتداء على ممتلكات الآخرين تحت شعار حرية التعبير عن الرأى.

**(٣) حرمة العرض (حق الإنسان فى الكرامة):**

توسلت الشريعة الإسلامية إلى حفظ حرمة العرض (حق الإنسان فى الكرامة) وحظر الإساءة إلى سمعته بعدة وسائل، نذكر منها:

(أ) بيان عظمة حرمة العرض:

قال رسول الله (ﷺ): "إن دماءكم، وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا فى شهركم هذا"(٢٩٠).

يبين أن حرمة العرض (سمعة الإنسان وكرامته) تساوى حرمة الدم (النفس أو الحياة) وحرمة المال وحرمة يوم عرفة أو يوم النحر فى شهر الله المحرم ذى الحجة فى بلد الله الحرام مكة. ولا يوجد شئ أعظم حرمة عند الله من هذا.

(ب) تحريم السب والفحش واللعن:

السب: أن تصف الشيء بما يعيبه وتنسب إليه ما يحط من قدره بين أقرانه الذين من المفترض شرعاً أو عقلاً أو عرفاً أو قانوناً أنه يساويهم وأن له نفس المكانة التى لهم، ويستحق نفس القدر من الاحترام ونفس المعاملة. وهو ما يمكن تلخيصه بكلمة واحدة

---

(٢٩٠) من الحديث رقم ٧٨٨٠ فى نفس المصدر وهو جزء من خطبة حجة الوداع.

هى السخرية أو الاستهزاء.

والفحش: أن تستعمل ألفاظ بذيئة عند الكلام مع الآخرين وأن تؤذيهم بحديثك معهم، فإن فى ذلك إهانة لهم.

واللعن: أن تعلن أن الشيء محروم من رحمة الله (ﷻ) التى وسعت كل شيء وأنه يستحق غضب الله (ﷻ). واللعن هو أشد أنواع السب؛ لأنك عندما تدعى أن الشيء "ملعون" فإنك تقول أنه قد اتصف بأقبح الصفات التى تخرجه من رحمة الله وتجعله أهلاً للعذاب الأبدى.

يقول الله (ﷻ): (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ**)[٢٩١].

"اللمز": الإيذاء باللسان، أى هو العنف اللفظى فى مقابل.....

"الهمز": الذى يعنى الإيذاء باليد، أى العنف الجسدى.

"وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ": ولا يؤذى بعضكم بعضاً بالكلام الفاحش.

"وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ": ولا ينادى بعضكم بعضاً بالألقاب التى تقال على سبيل الاستهزاء.

"بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ": ما أسوأ أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن كان مؤمناً. والمعنى أن ارتكاب خطايا السخرية واللمز والتنابز بالألقاب المكروهة يخرج الإنسان من دائرة الإيمان، فيصبح منافقاً يبطن فى قلبه الكفر وإن بقى قالبه (= ظاهره) مسلماً.

يقول الله (ﷻ): (**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ**)[٢٩٢].

---

(٢٩١) سورة الحجرات: الآية ١١.

(٢٩٢) سورة التوبة: من الآية (٦٧).

وقد استلهم رسول الله (ﷺ) هذا المعنى القرآنى فقال: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"(٢٩٣).

وقال (ﷺ): "ساب المؤمن كالمشرف على الهلكة(٢٩٤)".

"كالمشرف على الهلكة": مثل القائم على شفا هاوية يوشك أن يتردى فيها. وهذا تصوير بليغ لخروجه من دائرة الإيمان واقترابه من السقوط فى هاوية الكفر؛ لأن المنافق كافر يظهر الإيمان على سبيل الخداع، وقد هدد الله (ﷻ) من لم يتب عن خطايا السخرية واللمز والتنابز بالألقاب بالوقوع فى الكفر، فقال: (**وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ**)، وقال (ﷻ): (**وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ**)(٢٩٥).

وقال (ﷺ): "المستبان شيطانان، يتهاتران ويتكاذبان"(٢٩٦).

وقال (ﷺ): "إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه" وتعجب الناس واستبعدوا أن يحدث هذا؛ لأن الطبع الإنسانى السليم يأباه فقالوا متسائلين: "يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه؟".

قال (ﷺ): "يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه"(٢٩٧).

وقال (ﷺ): "لا تسبن أحداً، ولا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق (أو قال: ولو أن تكلم أخاك وأنت منبسط إليك وجهك) إن ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين وإياك وإسبال الإزار، فإنه من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك، فلا تعيره بما

---

(٢٩٣) الحديث رقم ٦٠٤٤ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" عن عبد الله بن مسعود.
كما رواه مسلم، وأحمد بن حنبل، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه. وقد رواه ابن ماجه أيضاً عن أبى هريرة، وسعد، والطبرانى عن عبد الله بن مغفل وعن عمرو بن النعمان بن مقرن. والدار قطنى عن جابر بن عبد الله. ورواه الطبرانى عن ابن مسعود بلفظ: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر وحرمة ماله كحرمة دمه".

(٢٩٤) حديث رقم ٣٥٦٨ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير).

(٢٩٦) الحديث رقم ٦٦٩٦ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٢٩٧) الحديث رقم ٥٩٧٣ فى "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" – كتاب الأدب.

تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه"[٢٩٨].

وقال (ﷺ): "لا تسبوا الديك، فإنه يوقظ للصلاة"[٢٩٩].

وقال (ﷺ) لأم العلاء (رضى الله عنها) وقد دخل عليها يزورها فى مرضها فوجدها تسب الحمى التى أصابتها، فقال لها:

"لا تسبى الحمى فإنها تنقى الذنوب كما تنقى النار خبث الحديد"[٣٠٠].

أو قال لها: "فإنها تذهب خطايا بنى آدم كما يذهب الكير خبث الحديد"[٣٠١].

وقال (ﷺ): "لا تسبوا الريح، فإنها من روح الله تأتى بالرحمة والعذاب، ولكن سلو الله من خيرها، وتعوذوا بالله من شرها، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أرسلت به"[٣٠٢].

وقال (ﷺ): "لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء، فإنهم أفضوا إلى ما قدموا"[٣٠٣].

بل إن رسول الله (ﷺ) نهى عن سب الشيطان، فقال: "لا تسبوا الشيطان وتعوذوا بالله من شره"[٣٠٤].

وقال (ﷺ): "لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر"[٣٠٥].

وقال (ﷺ) معبراً عن الله (ﷻ) فى الحديث القدسى: "يسب بنو آدم الدهر، وانا الدهر بيدى الليل والنهار"[٣٠٦].

بل إن الله (ﷻ) نهانا عن سب الأوثان: الآلهة الزائفة التى تعبد من دون الله فقال:

---

(٢٩٨) الحديثين ٦٠٢٩، ٦٠٥٣ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٢٩٩) الحديث رقم ٧٣١٤ فى نفس المصدر.

(٣٠٠) الحديث رقم ٧٣٢٢ فى نفس المصدر.

(٣٠١) الحديث رقم ٧٣٢١ فى نفس المصدر.

(٣٠٢) الأحاديث ٧٣١٥، ٧٣١٦، ٧٣١٧ فى نفس المصدر

(٣٠٣) الحديثين ٧٣١١، ٧٣١٢ فى نفس المصدر.

(٣٠٤) الحديث رقم ٧٣١٨ فى نفس المصدر.

(٣٠٥) الحديث رقم ٧٣١٣ فى نفس المصدر.

(٣٠٦) الحديث رقم ٦١٨١ فى "فتح البارى بشرح صحيح البخارى".

**(وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**[٣٠٧].

ودخل رهط من اليهود على رسول الله (ﷺ) وكانت عنده زوجه عائشة (رضى الله عنها) فقالوا: "السام عليك".

يوهمون أنهم يلقون السلام، ولكنهم – فى الحقيقة – يدعون على النبى (ﷺ) بالهلاك العاجل، فإن السام هو الموت العاجل.

وظنت عائشة (رضى الله عنها) أن النبى (ﷺ) لم يفطن إلى حقيقة ما قالوا، وأغاظتها هذه الإساءة من هؤلاء اليهود الكافرين، فاندفعت ترد عليهم إساءتهم: "بل عليكم السام والذام ولعنكم الله وغضب عليكم". وأشار إليها رسول الله (ﷺ) أن كفى، وقال لها: "مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش". "فإن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله".

فقالت (رضى الله عنها): "أو لم تسمع ما قالوا"؟

فقال (ﷺ): " أو لم تستمعى إلى ما قلت؟ رددت عليهم ذلك فقد قلت: "وعليكم" فيستجاب لى فيهم ولا يستجاب لهم في"[٣٠٨].

وجاء مخرمة بن نوفل – وكان رجلاً من قريش طاعناً فى السن ومعروفاً بفحشه وبذاءة لسانه – يستأذن فى الدخول على النبى (ﷺ) فقال: "أئذنوا له"... "بئس أخو العشيرة".

وجلس الرجل إلى رسول الله (ﷺ) فهش له وبش (تطلق) فى وجهه، وانبسط له، وألان له الكلام. فلما خرج قالت عائشة (رضى الله عنها): "يا رسول الله! حين رأيت الرجل قلت ما قلت، ثم تطلقت فى وجهه، وانبسطت إليه وألنت له الكلام؟!". ظنت عائشة (رضى الله عنها) أن هذا السلوك من المداهنة التى لا تليق بالنبى (ﷺ)،

---

(٣٠٧) سورة الأنعام: الآية (١٠٨).

(٣٠٨) انظر الأحاديث ٦٠٢٤، ٦٠٣٠، ٦٢٥٢، ٦٢٥٦، ٦٣٩٥، ٦٩٢٧ فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى والحديث ٦٦٢٧ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير).

واستشكل عليها الأمر، فقال (ﷺ): "مه يا عائشة! فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش أى عائشة! متى عهدتنى فاحشاً؟! إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه الناس اتقاء فحشه"(٣٠٩).

"مه": لفظ يقصد منه النهى والتحذير من الوقوع فى الخطأ.

وسمع رسول الله (ﷺ) – فى بعض أسفاره – رجلاً يلعن بعيره الذى يركبه، فغضب رسول الله (ﷺ) وقال: "من هذا اللاعن بعيره؟! انزل عنه فلا تصحبنا .بملعون لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم"(٣١٠).

(ج) تحريم القذف:

"القذف": اتهام إنسان بارتكاب جريمة دون دليل. وقد اعتبرت الشريعة الإسلامية القذف جريمة، لأنه انتهاك لعرض الإنسان.

ولاشك فى أن أبشع صور القذف وأشدها وطأة على نفس الإنسان هى اتهام المرأة بالزنا. وإلى هذا المعنى صارت الإشارة بلفظ "القذف" ولكن المعنى القانونى (الشرعى) للقذف هو اتهام أى إنسان سواء كان رجلاً أو امرأة بأى جريمة يعاقب عليها القانون دون تقديم الدليل على ذلك.

قال رسول الله (ﷺ): "الكبائر: الإشراك بالله وقذف المحصنة، وقتل النفس المؤمنة، والفرار يوم الزحف وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين المسلمين، وإلحاد بالبيت قبلتكم أحياءً وأمواتاً"(٣١١).

(د) تحريم الغيبة والبهتان:

قال رسول (ﷺ): "أتدرون ما الغيبة"؟

---

(٣٠٩) انظر الأحاديث ٦٠٣٢، ٦٠٥٤، ٦١٣١ فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر، الجزء ٢٢ – كتاب الأدب والحديث ٦٦٢٦ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير).

(٣١٠) الأحاديث ١٥٠٠، ٦٥٨٢، ٧٢٦٧ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير).

(٣١١) الحديث رقم ٤٦٠٢ فى نفس المصدر.

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال (ﷺ): "ذكرك أخاك بما يكره".

يعنى من وراء ظهره و فى غيابه، ومن هنا جاء لفظ "الغيبة".

فقيل له: "أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟

فقال (ﷺ): "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته"(٣١٢).

وقد نهى رسول الله (ﷺ) عن الغيبة فى أحاديث كثيرة نذكر منها:

** أمر رسول الله (ﷺ) بإقامة حد الرجم على ماعز الأسلمى (رضي الله عنه) الذى كان قد طلب أن يقام عليه الحد ليتطهر من خطيئة الزنا التى ارتكبها.

وفى طريق العودة سمع النبى (ﷺ) رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رُجِمَ رَجْم الكلب".

فأسرها النبى (ﷺ) فى نفسه و لم يبدها لهما حتى مر بجيفه حمار فقال: "أين فلان وفلان"؟

فأسرعا إليه وقالا: نحن ذا يا رسول الله.

فقال رسول الله (ﷺ) لهما: "أنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار".

ففزع الرجلان، وقالا: "غفر الله لك يا رسول الله!! يا نبى الله ومن يأكل من هذا؟".

فقال (ﷺ): "فما نلتما من عرض أخيكما آنفاً أشد من الأكل منه، والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة ينغمس فيها"(٣١٣).

** قال رسول الله (ﷺ): "لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء الذ ين يأكلون لحوم

---

(٣١٢) الحديث رقم ٨٦ فى نفس المصدر – انظر تفسير القرطبى للآية رقم ١٢ فى سورة الحجرات صـ ٦١٥٤، ٦١٥٥.

(٣١٣) انظر تفسير القرطبى للآية ١٢ من سورة الحجرات وتفسير ابن كثير.

الناس ويقعون فى أعراضهم"[٣١٤].

** وقام رجل من عند رسول الله (ﷺ)، وعنده جماعة من أصحابه فرأوا فى قيامه عجزاً، فقالوا: ما أعجز فلاناً!! فقال رسول الله (ﷺ): "أكلتم لحم أخيكم"[٣١٥].

** وقال (ﷺ): "كل المسلم على المسلم حرام، ماله، وعرضه ودمه، بحسب امرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم"[٣١٦].

** وقال (ﷺ): "إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء"[٣١٧].

** وقال (ﷺ): "من بهت مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله فى طينة الخبال"[٣١٨].

وطينة الخبال هى عصارة أهل النار: القاذورات والنفايات الناتجة عن احتراق أجسادهم.

ونكتفى بهذا القدر لنقول: إن شريعة الإسلام قد حرصت أشد الحرص على حفظ عرض (سمعة وكرامة) الإنسان واعتبرته حداً من الحدود التى تقطع حرية الإنسان فى التعبير عن رأيه.

وعلى الأحزاب السياسية فى ممارستها للتنافس على السلطة أن تلتزم بحفظ سمعة وكرامة خصومها وألا تتردى فى خطايا السب والفحش واللعن والقذف والغيبة والبهتان أثناء الحملات الانتخابية أو أثناء مناقشة وانتقاد الإجراءات التى تقوم بها الحكومة، وغير ذلك من أوجه النشاط السياسى.

وتبقى كلمة موجزة عن الأسباب الشرعية التى تبيح الغيبة أو إساءة القول بصفة

---

(٣١٤) الحديث رقم ٥٢١٣ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) عن أنس بن مالك (رضي الله عنه).
وقد أخرجه أبو داود والإمام أحمد وأورده القرطبى وابن كثير فى تفسير الآية ١٢ من سورة الحجرات.
(٣١٥) تفسير القرطبى صـ ٦١٥٦.
(٣١٦) أخرجه أبو داود وأحمد بن حنبل. انظر تفسير ابن كثير للآية ١٢ من سورة الحجرات.
(٣١٧) انظر تفسير القرطبى صـ ٦١٥٢.
(٣١٨) نفس المصدر صـ ٦١٥٨.

عامة. يقول رسول الله (ﷺ): "إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى....."[٣١٩].

وبناءً على هذا يمكننا تعريف "الغيبة" المحرمة شرعاً بانها: ذكر عيوب الناس بقصد (نية) الإساءة إليهم والاستهزاء بهم. فالعبرة فى كل عمل تكمن فى النية التى تبعث عليه، فإن كانت النية (القصد) تحقيق مصلحة شرعية أبيح العمل، بل أصبح واجباً شرعياً.

وهكذا يكون من واجب الإنسان المسلم فى بعض الأحيان ذكر عيوب الناس دون الوقوع فى خطيئة الغيبة، مثل: حالات الزواج والتقاضى وتمحيص الشهادات ونقض الروايات فى الأبحاث العلمية.

وإذا كانت رسالة الأمة الإسلامية هى الأمر بالمعروف (= العدل) والنهى عن المنكر (= الظلم)، فلا يمكن تصور القيام بالنهى عن المنكر دون ذكر عيوب الظالم وبيان مظالمه. ومن ثم فإن النهى عن المنكر سيفضى حتماً إلى الغيبة التى تصبح هنا مباحة بل واجبة.

ولما كان المظلوم مضطراً – لا محالة – إلى ذكر عيوب من ظلمه ولا سبيل أمامه لرفع الظلم ونيل حقه إلا باغتياب الظالم والتشهير به وإساءة القول له، أبيح له ذلك.

يقول الله (ﷻ): **(لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً)**[٣٢٠].

إن الله (ﷻ) لا يرضى من عباده المؤمنين أن تعلو أصواتهم بالأقوال السيئة التى يغتابون بها ويؤذون إخوانهم من المسلمين باستثناء المظلوم فإنه يباح له أن يغتاب من ظلمه، وأن يشهر به وأن يسبه ويفحش له فى القول؛ لأن تلك الإساءة العلنية قد تدفع الظالم إلى الرجوع عن ظلمه وإعطاء المظلوم حقه، حرصاً من الظالم على مكانته فى الناس وحسن سمعته.

---

(٣١٩) جزء من الحديث الأول فى صحيح البخارى.

(٣٢٠) سورة النساء: الآية ١٤٨.

فعند وقوع الظلم يرضى الله (ﷻ) للمظلوم أن يسئ القول؛ لأن هذا يمثل ضغطاً معنوياً على الظالم.

ولاشك فى أن هذه الآية الكريمة توسع دائرة النقد المباح المشروع عند مقاومة الظلم، وتكف أيدى السلطات الحكومية عن معاقبة المظلومين وتكف المدافعين عن حقوقهم و المطالبين برد المظالم؛ لأن السلطات الحكومية تبادر فى مثل تلك الأحوال بمحاكمة ومعاقبة أولئك المظلومين بتهمة السب والقذف!! وأعتقد أنه لا يوجد نص قانونى فى أى تشريع وضعى يعطى الإنسان حق إساءة القول عند وقوع الظلم عليه!!

وأعتقد أن الأحزاب السياسية المعارضة يمكن أن تستفيد من مفهوم هذه الآية الكريمة عند قيامها بمقاومة الظلم.

**(٤) حرمة الحياة الخاصة والأسرار الشخصية:**

احترمت الشريعة الإسلامية حق الإنسان فى ستر عوراته، وإخفاء عيوبه، وحجب أسراره التى لا يحب أن يطلع عليها غيره، انطلاقاً من حرص الإسلام على حفظ عرض الإنسان. وتجلى ذلك فى عدة أحكام نذكر منها:

(أ) الأمر بالاستئناس:

وذلك عند دخول بيوت الآخرين كما جاء قوله (ﷻ): **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)**(٣٢١).

"تَسْتَأْنِسُوا": تستأذنوا فى الدخول بعد أن تعلموا بالمشاهدة أنكم مرحب بكم، فالاستئناس ليس مجرد الاستئذان (= طلب إذن) بل يشمل أيضاً معنى العلم والرؤية والشعور بالأنس الذى يعنى الألفة والترحيب.

فالمؤمن محظور عليه أن يقتحم بيوت الآخرين على حين غرة منهم، بل عليه أن "يرى" أنه قد جاء فى وقت مناسب، وأنه سيكون موضع ترحيب داخل البيت، ولن

(٣٢١) سورة النور: الآية ٢٧.

يكون سبباً فى حرج أهل البيت الذين قد لا يرغبون فى استقباله فى هذا الوقت، فحينئذ فقط يطلب الإذن (= يستأذن) ويسلم على أهل البيت.

(ب) أدب دخول بيوت الآخرين

** جاء رجل إلى رسول الله (ﷺ) فوجد "جحراً"[٣٢٢] فى باب إحدى حجر النبى (ﷺ)، فأدخل رأسه فيه، واطلع منه فوجد النبى (ﷺ) جالساً وهو يمسك بمدرى[٣٢٣] فى يده (ﷺ) ويمشط به شعره.

وانتبه النبى (ﷺ) إليه، فأسرع وبدا كأنه (ﷺ) يريد أن يفقأ بالمدرى فى يده عين المتطلع فى حجرته بغير إذن. وفزع الرجل فأسرع متراجعاً يبعد رأسه.

ثم أذن (ﷺ) له بالدخول، وقال له غاضباً: "هكذا" ينكر عليه أن يطلع فى بيت غيره بغير إذن. فقال الرجل معتذراً: إنما نظرت لأستأذن.

فقال النبى (ﷺ) له: "إنما جعل الاستئذان من أجل البصر، لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينك".

ثم قال النبى (ﷺ): "لايحل لامرئ مسلم أن ينظر إلى جوف بيت حتى يستأذن، فإن فعل فقد دخل".

ثم وجه حديثه إلى الرجل قائلاً: "لو أن امرءاً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح"[٣٢٤].

** وذهب رسول الله (ﷺ) إلى بيت سعد بن عبادة (رضي الله عنه) ليزوره، فقام إلى جانب الباب وقال بصوت مسموع: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته". وكان سعد (رضي الله عنه) فى البيت وسمع النبى (ﷺ) ولكنه لم يرد أن يرد عليه بصوت مسموع، فقال بصوت خفيض كأنما يحدث نفسه: "وعليكم السلام ورحمة الله". فلم يسمع رسول الله (ﷺ)

---

(٣٢٢) جحراً: ثقباً مستديراً، وأصل الكلمة يعنى الحفرة التى يصنعها الوحش فى الأرض ويكمن (يختبئ) فيها.

(٣٢٣) مدرى: آلة من الحديد (أو العاج أو الأبنوس) تتخذ لتمشيط الشعر وفرقه.

(٣٢٤) جمعنا هذه القصة من الروايات المختلفة التى أوردها الإمام ابن حجر فى شرحه للأحاديث ٥٩٢٤، ٦٢٤١، ٦٢٤٢، ٦٨٨٨، ٦٨٨٩، ٦٩٠٠، ٦٩٠١، ٦٩٠٢ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى".

صوت سعد (رضي الله عنه) فكرر رسول الله (ﷺ) القول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وكرر سعد (رضي الله عنه) صنيعه، فكرر رسول الله (ﷺ) القول: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته". ولم يصل إلى سمع الرسول (ﷺ) رد ولا إذن بالدخول.

فانصرف راجعاً من حيث أتى وقال (ﷺ) معلماً لأصحابه: "إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف"[٣٢٥].

(ج) الأمر بالاستئذان:

ولم يكتف الإسلام بحفظ حرمة البيت والحياة الخاصة من اطلاع الآخرين "الغرباء"، أوجب على أهل البيت أنفسهم من البالغين أو من أوشكوا على البلوغ أن يستأذنوا قبل الدخول إلى المضاجع (غرف النوم) حتى يحمى الإنسان من انكشاف عوراته ومن أن يرى على حال لا يرضى لنفسه أن يرى فيها.

يقول الله (سبحانه وتعالى): **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنْ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)**[٣٢٦].

وجاء رجل إلى رسول الله (ﷺ) فسأله:

أستأذن على أمي؟

قال (ﷺ): "نعم".

فقال الرجل: إن أخدمها.

---

(٣٢٥) الحديث رقم ٣١٨ في كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) وانظر بقية القصة في كتابنا "الحريات العامة والحقوق السياسية في القرآن والسنة"، صـ ٢٩٦ – ٢٩٧. ولمزيد من تفاصيل قضية حرية الرأي يراجع كتابنا المذكور.

(٣٢٦) سورة النور: الآيتان ٥٨، ٥٩.

يقصد أنه هو الذى يقوم على رعايتها، ومن ثم فلا غنى لها عنه وقيامه بخدمتها يجعله يرى منها ما لا يرى فى العادة.

فقال رسول الله (ﷺ) مصراً: "استأذن عليها".

فكرر الرجل اعتراضه ثلاث مرات رغبة منه فى الحصول على رخصة تبيح له ترك الاستئذان على أمه.

فقال رسول الله (ﷺ) ليقطع اعتراضه: "أتحب أن تراها عريانة"؟!

فقال الرجل: لا .

فقال رسول الله (ﷺ): "فاستأذن عليها"(٣٢٧).

(د) النهى عن التجسس:

التجسس: تتبع الأخبار "المخفية" أو الأسرار بغية الكشف عن عورات الناس وفضح عيوبهم والضغط المعنوى عليهم بها (= ابتزازهم) من أجل تحصيل بعض المنافع الدنيوية.

وعلينا أن نميز هنا بين لفظين متشابهين لا يختلفان إلاّ فى نقطة واحدة وهما: التجسس والتحسس.

قال الله (ﷻ) على لسان يعقوب (عليه السلام) فى حديثه لأبنائه عندما ضاع منهم يوسف وأخذ بنيامين وانقطعت أخبارهما أو اختفت: **(يَا بَنِي اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)**(٣٢٨).

"فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ": فتتبعوا ما يأتيكم من أخبار يوسف وأخيه بنيامين من أجل العثور عليهما والكشف عما آل إليه مصيرهما.

الغاية هنا مشروعة أو شرعية، فالعمل إذن مباح لا يخالف الشرع أو واجب تقتضيه طاعة الشرع، فاستعمل لفظ التحسس.

---

(٣٢٧) انظر تفسير القرطبى صـ ٤٦١١.

(٣٢٨) سورة يوسف: من الآية ٨٧.

يقول الله (ﷻ): (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**)[٣٢٩].

ويقول رسول الله (ﷺ): "من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنيه الأنك، ومن أرى عينيه فى المنام ما لم ير كلف أن يعقد شعيرة"[٣٣٠].

"الأنك": سائل شديد السخونة يسبب ألماً شديداً حارقاً، جزاء وفاقاً لجريمة التنصت على "أسرار" الغير.

"أرى عينيه فى المنام ما لم ير": كذب فادعى رؤية ما لم ير فى منامه. فيكون جزاؤه يوم القيامة أن يؤمر بعقد خيط بالغ الدقة لا يكاد يرى بالعين، فلا يستطيع أبداً رغم استمرار محاولاته المضنية.

وقال (ﷺ): "من نظر فى كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر فى النار"[٣٣١].

وقال (ﷺ) غاضباً: "يا معشر من آمن بلسانه و لم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين..... لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم. ولا تتبعوا عوارتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتتبع الله عورته، ومن يتتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله (= بيته)"[٣٣٢].

وقال رسول الله (ﷺ) لمعاوية بن أبى سفيان الذى كان (ﷺ) يرى بنور النبوة شدة تعلق قلبه بالإمارة (= الحكم): "إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كدت تفسدهم"[٣٣٣].

---

(٣٢٩) سورة الحجرات: الآية ١٢.

(٣٣٠) الحديث رقم ٦٠٢٨ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٣٣١) أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس. انظر كتاب الاستئذان، صـ ٥٤ – الجزء ٢٣ من فتح البارى "بشرح صحيح البخارى" لابن حجر.

(٣٣٢) رواية تجمع فى سياق واحد بين الحديثين ٧٩٨٤، ٧٩٨٥ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٣٣٣) الحديث رقم ٢٢٩٥ فى نفس المصدر.

وهو حديث نبوى شريف ينبغى أن يوجه إلى الحكام فى كل عصر ومكـــان، لأن التجسس على المواطنين بغية إخضاعهم لأهواء الحكام يعد واحداً من أخطر مظـــاهر إساءة استعمال السلطة.

ونخلص مما تقدم إلى أن الحياة الخاصة وأسرار الناس الشخصـــية تعـــد فى شـــريعة الإسلام إحدى الحرمات العظيمة، ومن ثم فإنها حد من الحدود التى تقطع حق الإنسان فى التعبير عن رأيه، ولذلك يحظر على الأحزاب السياسية أن تجعل من الحياة الخاصـــة والأسرار الشخصية للخصوم السياسين موضوعاً أو مجالاً للنشـــر العـــام والحمـــلات الدعائية الانتخابية بغرض تحطيمهم (اغتيالهم) معنوياً، لإنـــزال الهزيمة بهم فى معركـــة التنافس على السلطة، لأن ذلك يعد انتهاكاً لحرمة الحياة الخاصة التى حرصت الشريعة الإسلامية أشد الحرص على احترامها وحمايتها.

**(٥) حرمة الأمن القومى:**

اقتضت حكمة الله (ﷻ) أن يكون الصراع (العداوة) من أهم بواعث حركة الناس على هذه الأرض فى هذه الحياة الدنيا. وكان من تجليات هذه الحقيقة الكونية الحـــرب التى تعد الظاهرة الغالبة على التاريخ البشرى منذ أقدم العصور إلى يوم النـــاس هـــذا. وعلى هذا التاريخ الدموى نشأت الدول القومية، ورسمت الحدود الـــتى تخـــط علـــى الأرض مناطق السيادة لكل دولة، فتلك الحدود بين الدول ليست – فى الحقيقة – إلا نتائج الحروب التى اشتعلت بين الشعوب على مر العصور.

وصار حتماً مقضياً أن تكون لكل دولة أسرارها القومية التى تحرص أشد الحـــرص على إخفائها عن أعدائها. تلك الأسرار القومية هى "العورات" التى ينبغى على كـــل دولة أن تحميها من اطلاع عوام الناس، حتى تضمن منع تسربها إلى الأعداء، فلا يبـــاح كشف تلك العورات إلا للحكام المسئولين عن حماية الأمن القومى للبلاد.

والواجب الشرعى على كل مواطن يتاح له بموجب منصبه أو بالصدفة الإطـــلاع على بعض الأسرار القومية أن يحفظها طى الكتمان ولا يبوح بها أو يتـــداولها إلا مـــع

أولى الأمر المسئولين عن حماية البلاد.

عندما عزم رسول الله (ﷺ) فتح مكة، فإنه (ﷺ) حرص أشد الحرص على كتمان هذا الأمر حتى يباغت قريش فيدفعهم إلى الاستسلام دون قتال، ليقلل من سفك الدماء، لأنه (ﷺ) كان حريصاً دائماً على حقن الدماء، وحفظ الأموال والأعراض قدر المستطاع. كان يدعو ربه قائلاً: "اللهم عم عليهم خبرنا".

وفى هذه الأثناء، جاءت جارية من مكة اسمها سارة، وذهبت إلى رسول الله (ﷺ) وهو مستغرق فى تجهيز الجيش.

وارتاب الرسول (ﷺ) فى أمرها فسألها:

"أمهاجرة جئت يا سارة؟"

قالت المرأة: لا.

قال رسول الله (ﷺ): "أمسلمة جئت؟"

قالت: لا.

قال (ﷺ) لها، وقد زاد شكه فيها: "فما جاء بك"؟

قالت: "كنتم الأهل والموالى والأصل والعشيرة. وقد ذهب الموالى وقد احتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطونى وتكسونى".

تعلل مجيئها فى هذا الوقت بحاجتها الشديدة إلى الصدقة. وقد هلك الذين كانوا يعطونها بسبب الحروب التى دارت بين المسلمين وكفار قريش فحث رسول الله (ﷺ) أصحابه وأقاربه من بنى عبد المطلب وبنى المطلب على أن يتصدقوا عليها.

وكان رسول الله (ﷺ) يتعجل ذهابها من المدينة المنورة حتى لا تشعر بالاستعدادت الجارية على قدم وساق لتجهيز الجيش. وأعطيت المرأة فوق ما طلبت، فكسوها وتصدقوا عليها بكثير من المال وحملوها فخرجت وأخذت طريقها عائدة إلى مكة.

وأدركها حاطب بن أبى بلتعة (رضي الله عنه) فى الطريق، بعد أن غادرت مكة وقال لها: أعطيك عشرة دنانير وبرداً على أن تبلغى هذا الكتاب إلى أهل مكة. وقبلت المرأة

فأخذت الكتاب (= الصحيفة) والثمن وانطلقت إلى قريش.

وفى هذه اللحظة نـــزل الوحى على النبى (ﷺ) بصدر سورة الممتحنـــة وفى نـــور الوحى رأى النبى (ﷺ) ما وقع من حاطب مع المرأة.

واستدعى رسول الله (ﷺ) ثلاثة من أصحابه الفرسان: على بن أبى طالب، والزبير ابن العوام، وأبى مرثد الغنوى (رضى الله عنهم) وقال لهم: "انطلقوا حتى تأتوا روضـــة خاخ فإن ظعينة[٣٣٤] معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين، فخذوه منها، وخلوا سبيلها، فإن لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها".

وانتهى الأمر بالعثور على الكتاب الذى أفشى فيه حاطب (ﷺ) سر الحـــرب إلى الأعداء. فاستدعاه رسول الله (ﷺ) للمحاكمة، وكان أصحاب النبى (ﷺ) يطـــالبون بضرب عنقه؛ لأنه خان الله ورسوله والمؤمنين.

سأله رسول الله (ﷺ): "يا حاطب! ما هذا؟ هل تعرف هذا الكتاب؟

قال حاطب (ﷺ) صادقاً مقراً بخطئه: نعم.

فاعطاه رسول الله (ﷺ) الفرصة ليدافع عن نفسه.

فقال (ﷺ) له: "ما حملك يا حاطب على ما صنعت؟"

فقال حاطب: "لا تعجل علىّ يا رسول الله! إنى كنت امرءاً ملصقاً[٣٣٥] فى قريش، وليس من أصحابك المهاجرين أحد إلا وله قرابات يحمون بهـــا أهلـــيهم وأمـــوالهم، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ فيهم يداً يدفع الله بهـــا عـــن أهلـــى ومالى. ولم أفعله كفراً، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، وما بى إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، وما غيرت ولا بدلت".

وانتهت المحاكمة بأن عفا رسول الله (ﷺ) عنه، وقال لأصحابه الغاضـــبين: "لقـــد

---

(٣٣٤) ظعينة: امرأة مسافرة داخل هودج على جمل.

(٣٣٥) ملصقاً: غريباً ليس من أنفس قريش، ولكنه دخل فى جوار (حماية) بعض أهلها وصار حليفاً لهم. وكـــان حاطب بن أبى بلتعة (ﷺ) حليفاً لبنى أسد بن عبد العزيز، وهم رهط الزبير بن العوام (ﷺ) ابن عمة النبى صـــفية بنت عبد المطلب (رضى الله عنها).

صدقكم صاحبكم، فلا تقولوا له إلا خيراً"(٣٣٦).

وعاب الله (ﷻ) على المؤمنين "إذاعة" الأنباء المتعلقة بالحرب أو زوال الخطر أو التهديد عندما تصل إلى أسماعهم فيبادرون بنشرها، قبل أن يبلغوا بها الحكام القادرين بموجب مناصبهم وما تحت أيديهم من معلومات على تقدير ما فى تلك الأنباء من حقائق أو أوهام، ومدى تأثير إذاعة تلك الأنباء على الأمن القومى والرأى العام واستقرار البلاد.

يقول الله (ﷻ): **(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً)**(٣٣٧).

ينهى الله (ﷻ) المؤمنين عن المسارعة بنشر (= إذاعة) أى خبر (= أمر) يصل إلى علمهم من جهة زوال الخطر الذى يتهدد البلاد (= الأمن) أو من جهة مجيئ الخطر مثل الحرب (= الخوف) ويأمرهم بالرجوع أولاً بمثل هذا الأمر إلى الرسول (ﷺ) باعتباره الحاكم أو الأمير على البلاد، وإلى الذين يتولون الحكم من بعده، لأن منهم من يستطيع استنباط الحقيقة من مثل هذا الأمر وتقدير الخطورة الكامنة فيه على أمن ومصلحة البلاد.

ولاشك فى أن الشيطان هو الذى يغرى ويغوى الإنسان بإذاعة كل ما يصل إلى سمعه من أخبار هامة تختص بأمن البلاد والأخطار المحدقة بها، لأن الإنسان يحب أن يظهر دائماً فى صورة العليم الخبير ببواطن الأمور بباعث من الكبر الذى ينفخه الشيطان فى قلبه.

ولذلك ختم الله (ﷻ) الآية بقوله: **(وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمْ**

---

(٣٣٦) جمعنا هذه القصة من تفسير القرطبى للآية الأولى من سورة الممتحنة صـ ٦٥٢٨ – ٦٥٣٣ ومختصر تفسير ابن كثير – المجلد الثالث صـ ٤٨١- ٤٨٢ والروايات التى أوردها ابن حجر فى شرحه للأحاديث ٤٢٧٤، ٤٨٩٠، ٦٢٥٩ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى".

(٣٣٧) سورة النساء: الآية ٨٣.

**الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً**)، مبيناً أن العاصم الوحيد للمؤمنين من الضلال هو علم الله (ﷻ) المحيط الذى وسع كل شئ، وفاض به عليهم عبر وحيه إلى النبى (ﷺ) فأضاء لهم طريق الرشاد و حذرهم مما يجب اجتنابه، ورعى مواضع الضعف فى نفوسهم فنبههم إليها حتى لا تسول لهم اتباع الشيطان ومعصية الله (ﷻ) وهذا هو معنى رحمته به.

ونخلص مما تقدم إلى أن الأمن القومى هو أحد الحدود التى تمنع حق الإنسان فى التعبير عن رأيه إذا احتوى على أسرار قومية تهدد أمن البلاد. فهذا من أوجب الواجبات على كل إنسان إزاء الجماعة الوطنية التى فيها وحدها يمكن أن تنمو شخصيته النمو الحر الكامل إذ هى وحدها التى تمنحه هويته.

ولذلك يكون من المحظور على الأحزاب السياسية أن تجعل من الأسرار القومية " مجالاً للنشر العام والتداول فى أنشطتها السياسية.

**(٦) حرمة وحدة الأمة وتماسكها الاجتماعى:**

اعتبر الإسلام وحدة الأمة حقيقة دينية مقدسة، وربطها القرآن الكريم بتوحيد الله (ﷻ) وإفراده بالعبادة فأصبحت تعبيراً تاريخياً عن وحدانية الله (ﷻ)

قال الله (ﷻ): (**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**)(٣٣٨).

وقال (ﷻ): (**وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**)(٣٣٩).

ولذلك كان الحفاظ على تماسك الأمة الاجتماعى على رأس الفروض (الواجبات) الشرعية كما يتضح لنا مما يلي:

(أ) الأمر بالتآلف والاتحاد والنهى عن الخلاف والتفرق:

ولا نحتاج إلى ذكر الكثير من النصوص الدينية التى دلت على ذلك، فإنها أشهر وأوضح من أن يشار إليها.

---

(٣٣٨) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

(٣٣٩) سورة المؤمنون: الآية ٥٢.

(ب) تحصين السلطة التشريعية ضد البغى:

لا جدال فى أن التنازع على السلطة هو السبب الرئيسي فى إشعال الخلافات التى تفضى إلى تفرق الأمة وضياع وحدتها. ولذلك جاءت النصوص الدينية المقدسة بوجوب تحصين السلطة الشرعية – التى تستحق هذا الاسم باستنادها إلى البيعة وحكمها بالعدل وإدارتها لشئون البلاد بالشورى – ضد البغى عليها من قبل المغامرين الطامعين فى غنائم الحكم.

وسنكتفى هنا بذكر وتوضيح بعض الأحاديث النبوية الشريفة ساطعة الدلالة على هذا الوجوب.

قال رسول الله (ﷺ): "من أتاكم وأمركم على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه"(٣٤٠).

"وأمركم جميع على رجل واحد": وحكمكم مجتمع مؤتلف فى يد رجل واحد قد توافقتم عليه، ورضى به أكثركم حاكماً عليكم، وهو ما يعنى أنه قد حصل على بيعة شرعية أى اختيار صحيح من جانب أكثر الناس. وأنه يحكم بالعدل ويدير أمر البلاد بالشورى، ولذلك حظى برضى الناس أو أغلبهم، لأن الظلم والاستبداد لا يجعلان أبداً الحكم (= الأمر) مجتمع مؤتلف (= جميع).

"يشق عصاكم": العصا رمز الحكم، فهى كناية عن السلطة السياسية: وشق العصا يعنى السعى إلى انتزاع الحكم ممن يتولاه على نحو شرعى فهو يهدف إلى اقتسام السلطة (= شق العصا) وهو الأمر الذى سيفضى – لا محالة – إلى تفرق الأمة وانفراط عقد الجماعة، لأنه سيكون لكل زعيم طامع فى السلطة أتباع وأشياع يحاربون من أجله ضد الآخرين. وهذا هو مدلول قوله (ﷺ): "ويفرق جماعتكم".

وبالطبع فإن المغامرين طلاب الحكم الطامعين فى غنائم السلطة يلعبون فى عقول

---

(٣٤٠) الحديث رقم ٥٩٤٤ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير). وأخرجه مسلم فى كتاب الإمارة عن عرفجة (رضي الله عنه) باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع.

الناس بالأخطاء والمظالم التى يقع فيها الحكام ويرفعون شعارات الإصلاح ورايات الشريعة ويتخذون منها وسيلة لتهييج الرأى العام من أجل تحقيق غرضهم، ألا وهو انتزاع الحكم، ولذلك قال رسول الله (ﷺ) فى بداية الحديث: "ستكون بعدى هنات وهنات، فمن رأيتموه فارق الجماعة ويريد أن يفرق هذه الأمة وهى جميع فاقتلوه كائناً من كان، فإن يد الله مع الجماعة، وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض"[٣٤١].

وقوله (ﷺ): "فارق الجماعة، ويريد أن يفرق أمر هذه الأمة" دليل على حصول الحاكم فى هذه الحالة على شرعية سلطته، وأن من ينازعه الحكم يريد اغتصاب السلطة تحقيقاً لأهوائه وتحصيلاً لشهواته.

وليس معنى هذا الحديث النبوى الشريف الرضى بالهنات والسكوت عليها بل يجب إنكارها، أى رفضها والعمل على إزالتها أو تصحيحها، ولكن دون الوصول إلى حد "البغى" الذى يعنى إنكار شرعية الحاكم، ومنازعته بالقوة؛ لأن مقاومة الظلم (النهى عن المنكر) تكون بالقلب واللسان واليد (العمل) على قدر الاستطاعة وتقدير مصلحة الأمة التى يأتى على رأسها الحفاظ على وحدتها.

قال رسول الله (ﷺ): "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما"[٣٤٢] لأن الآخر (الثانى) يكون هو الباغى على صاحب السلطة الشرعية.

قال رسول الله (ﷺ): "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم".

فقالوا: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك؟

فقال (ﷺ): "لا. ما أقاموا فيكم الصلاة

---

(٣٤١) رواية تجمع فى سياق واحد ما اخترناه من الروايات المختلفة لحديث عرفجة (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ). انظر كتاب الإمارة – باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع. وانظر نص الحديثين ٣٦٢١، ٣٦٢٢ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

وجاءت بعض الروايات بلفظ "يريد أن يفرق أمر أمة محمد" وبلفظ "فمن أراد أن يفرق أمر المسلمين وهم جميع"، وبلفظ "فاضربوه بالسيف" بدلاً من لفظ "فاقتلوه".

(٣٤٢) انظر صحيح مسلم – كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع.

لا. ما أقاموا فيكم الصلاة

وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه، فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة.

ألا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعة"(٣٤٣).

ينهى رسول الله (ﷺ) عن التمرد والخروج المسلح (المنابذة بالسيف) ما دام الحاكم يأمر بإقامة الصلاة (ما أقام فيكم الصلاة) ولا يمنعها. وفى هذا إشارة إلى المحافظة على أساس (عماد) الدين. ولكن ليس معنى هذا النهى قبول الظلم؛ لأنه (ﷺ) أمر بكراهية المعصية (فليكره ما يأتى من معصية الله) والكراهية تعنى النفور المفضى إلى الإنكار (الرفض) الذى يكون بالقلب واللسان واليد على قدر الاستطاعة، ولكن دون الوصول إلى حد إنكار الشرعية والقتال (ولا ينزعن يداً من الطاعة)، فنزع اليد من الطاعة تعبير مجازى عن رفض الإقرار بشرعية السلطة الحاكمة القائمة ومن ثم العمل على إزالتها بالقوة من على كرسى الحكم.

وقال (ﷺ): "ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضى وتابع لم يبرأ"

قالوا: أفلا نقاتلهم؟

قال (ﷺ): لا. ما صلوا(٣٤٤).

"فتعرفون وتنكرون": فيقومون باعمال توافق الشرع وترضيكم، وأعمال أخرى تخالف الشرع فلا تقبلونها.

"فمن كره فقد برئ": فمن أنكر بقلبه المعاصى التى وقع فيها الحكام فقد برئ من

---

(٣٤٣) نفس المصدر – باب خيار الأئمة وشرارهم عن عوف بن مالك الأشجعى (رضي الله عنه).

(٣٤٤) أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة، "باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا ونحو ذلك" عن أم سلمة (رضى الله عنها). وأخرجه أبو داود أيضاً فى سننه وأورده الألبانى فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) تحت رقم ٣٦١٨.

وقد اضطربت روايات هذا الحديث واخترنا الرواية التى تتفق مع مضمون الأحاديث النبوية الصحيحة الأخرى.

النفاق الذى يخرج الإيمان من القلب ويترك الإنسان كافراً فى باطنه أو حقيقتـــه، وإن اتخذ صورة المؤمن.

لأن الإنكار بالقلب هو أدنى درجات الإيمان وليس من ورائه حبه خردل من إيمان. فلفظ "كره" – هنا – يشير إلى مرتبة الإنكار (الرفض) بالقلب الـــذى هـــو ضـــعف الإيمان.

قال(ﷺ): "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلســـانه، فـــإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان[٣٤٥]".

وقال (ﷺ): "ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان لـــه مـــن أمتـــه حواريـــون وأصحاب يأخذون بسنته ويتقدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلســـانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ولـــيس وراء ذلـــك مـــن الإيمـــان حبـــة خردل"[٣٤٦].

"ومن أنكر فقد سلم": ومن أظهر الإنكار بلسانه أو يده حسب اســـتطاعته فقـــد سلم من عقاب الله (ﷻ)، لأنه قد برهن بعمله على صدق الإيمان فى قلبه.

"ولكن من رضى" بمعصية الله (ﷻ) "وتابع" الحاكم فى ظلمه "لم يبرأ" من النفـــاق الذى يجمعه يوم القيامة مع الكافرين (**إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَـــنَّمَ جَمِيعاً**)[٣٤٧].

وقال رسول الله (ﷺ): "إنكم سترون بعدى أثرة وأموراً تنكرونها".

أثرة: استئثار أهل الحكم بالغنائم والمنافع التى تتيحها السلطة.

---

(٣٤٥) انظر الحديث رقم ٦٢٥٠ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) وقد أخرجه مســـلم وابـــن حنبل وأصحاب السنن (أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه) عن أبى سعيد الخدرى (ﷺ).

(٣٤٦) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبات – وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – أنظر صـــحيح مســـلم بشرح النووى – الجزء الثالث صـــ ٢٧.

(٣٤٧) سورة النساء: من الآية (١٤٠).

"وأمور تنكرونها": ومظالم تخالف الشرع لا تقبلونها.

قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله، كيف تأمر من أدرك ذلك منا؟

قال (ﷺ): "تؤدون إليهم حقهم الذى عليكم وتسألون الله الحق الذى لكم".

"حقهم الذى عليكم": الطاعة

"الحق الذى لكم": العدل الذى يعنى المساواة بين الناس:

فقال سلمة بن يزيد الجعفى: يا نبى الله، أرأيت إن قامت علينا أمراء يأخذون حقهم الذى علينا، ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟ أنقاتلهم؟

فأعرض رسول الله (ﷺ) عنه،

ثم أعاد الرجل السؤال فأعرض رسول الله (ﷺ) عنه،

ثم أعاد الرجل السؤال للمرة الثالثة فأعرض رسول الله (ﷺ) عنه، وقد بدت الكراهة على وجهه. فجذبه الأشعث بن قيس (رضي الله عنه) ليسكت ويجلس، وكان من الواضح أن الرجل يريد فتوى بالقتال، ولو فتح الباب أمام القتال لتمزقت الأمة وتشتت شملها.

ثم قال رسول الله (ﷺ) ليحسم الأمر: "لا. اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ماحملوا وعليكم ما حملتم" يعنى: أن الحكام مكلفون ومسئولون أمام الله كما أنكم مكلفون ومسئولون أمام الله، فليعمل كل واحد ما عليه من واجبات.

ثم قال (ﷺ): "من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإن من خرج من السلطان، وفارق الجماعة شبراً فمات لا يموت إلا ميتة جاهلية".

"من خلع يداً من طاعة فكأنما خلع ربقة الإسلام من عنقه ولقى الله ولا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية".

"السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصيته، فإذا أمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة "لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق إنما الطاعة فى

المعروف"[٣٤٨].

ونأتى أخيراً إلى حديث حذيفة بن اليمان (ﷺ) الذى يقول فيه: "كان الناس يسألون رسول الله (ﷺ) عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى.

فقلت: يا رسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير شر؟

قال (ﷺ): "نعم"[٣٤٩]

قلت: فهل بعد ذلك الشر من خير؟

قال (ﷺ): نعم، وفيه دخن[٣٥٠]

قلت: وما دخنه؟

قال (ﷺ): يكون بعدى أئمة يستنون بغير سنتى، ويهدون بغير هدىى، تعرف منهم وتنكر وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان أنس"[٣٥١]

---

(٣٤٨) جمعنا فى هذا السياق الروايات المختلفة التى أوردها ابن حجر فى شرحه للأحاديث ٣٦٠٣، ٧٠٥٢، ٧٠٥٣، ٧٠٥٤، ٧١٤٣، ٧١٤٤ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" والأحاديث التى أخرجها الإمام مسلم فى كتاب الإمارة عن عبد الله بن مسعود (ﷺ) فى باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول. وعن سلمة بن يزيد الجعفى (ﷺ) فى باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة واستئثارهم وعن ابن عمر (ﷺ) فى باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية وتحريمها فى المعصية.

وانظر أيضاً الأحاديث ٩٨٤، ٢٣٠٥، ٣٦٢٠، ٣٦٩٣، ٦٢٢٩، ٦٢٤٩، ٧٥١٩، ٧٥٢٠، ٧٥٢١ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير).

(٣٤٩) يقصد (ﷺ) – فى رأيي – الصراع على السلطة الذى أفضى عهد الخلافة الراشدة عام ٤٠ هـ وافتتح عصر الملك العاض أو العضوض.

(٣٥٠) "وفيه دخن": ويخالطه شر، فلن يكون خيراً صافياً كعهد الخلافة الراشدة فهو صلاح مشتبك مع فساد.

(٣٥١) يقصد (ﷺ) – فى رأيي – عصر الخلافة أو بالأحرى الملك الأموى ثم الملك العباسى وما تلاه من عصور كثرت فيها المظالم وزاد الانحراف عن نهج النبوة والخلافة الراشدة، ولكن بقيت – رغم كل ذلك – أسس الإسلام وأصوله التى اختفت وراء ظلمات الاستبداد والبطش والفجور.

قوله (ﷺ): "تعرف منهم وتنكر" يعنى يخلطون أعمالاً صالحة بأخرى فاسدة. وهذا هو تفسير "الدخن".

والرجال الذين لهم قلوب الشياطين هم علماء السوء، أو فقهاء السلطان الذين يزينون لكل حاكم أهواءه واستبداده وبطشه، والشعراء المداحون الذين يؤلهون الملوك والأمراء طلباً للمال والجاه.

قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟

قال (ﷺ): تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع.

قلت: هل بعد ذلك الخير – يعنى الذى فيه دخن – من شر؟

قال (ﷺ): "نعم. دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها"[٣٥٢]

فقلت: يا رسول الله صفهم لنا.

قال (ﷺ): نعم. قوم من جلدتنا ويتكلمون ألسنتنا.

قلت: يا رسول الله. فما ترى إن أدركنى ذلك؟

قال (ﷺ): تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.

فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام[٣٥٣]

قال (ﷺ): فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك[٣٥٤].

ما يعنينا – هنا – قوله (ﷺ): "تسمع وتطيع الأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع"؛ لأن كثيراً من الناس يخطئون فى فهمه فيتوهمون أنه دليل على الإذعان والخضوع للحاكم وعدم الاعتراض عليه مهما ظلم وبطش.

والصواب غير ذلك، فإن مقصود الحديث النبوى الشريف ألا يكون غضب الإنسان لنفسه ورغبته الشخصية فى الانتقام وإن كان محقاً باعثاً له على الخروج على

---

(٣٥٢) يقصد (ﷺ) – فى رأيي – العصور التى ضاعت فيها معالم الإسلام، وخضع المسلمون لحكم غيرهم وغابت شريعة الله (ﷻ) من الحياة، بل أصبح الكفر بالله (ﷻ) وتكذيب القرآن الكريم هو سلم الارتقاء الاجتماعى، وطريق الوصول إلى أعلى المناصب.

(٣٥٣) لاشك – عندى – فى أن إلهاماً ربانياً هو الذى فاض على قلب سيدى حذيفة (رضي الله عنه) فنطق بهذا السؤال الذى يوحى بإحساس قلبه بالعصر الذى ستزول فيه سلطة الإسلام السياسية، ويخضع المسلمون تحت حكم غيرهم. وتتمزق وحدتهم ويتناثرون فى كثير من الدول المتصارعة التى يفصلها عن بعضها حدود صنعها أعداؤهم.

(٣٥٤) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفى كل حال وتحريم الخروج من الطاعة ومفارقة الجماعة. انظر صحيح مسلم بشرح النووى – الجزء ١٢، صـ ٢٣٦ – ٢٣٨.

وقد أورد الإمام مسلم فى صحيحه روايتين مختلفتين لهذا الحديث يشوبهما بعض الاضطراب فى السياق فقمت، بإدراجهما فى سياق منطقى واحد.

السلطة الحاكم ومنازعته السلطة. فمن حق الإنسان أن يعترض على ما أصابه من ظلم؛ لأن هذا الحق يندرج تحت الواجب الشرعى (الدين) بالنهى عن المنكر، وأن يسعى قدر جهده لإزالة الظلم عن نفسه ولكن عليه ألاّ يبلغ بسعيه هذا حد رفض شرعية الحاكم والعمل على انتزاع السلطة السياسية.

وهو ما يعنى أن يضبط المظلوم غضبه وانتقامه حتى لا يمزق وحدة الأمة ويزعزع تماسكها الاجتماعى خاصة وقد بين الحديث النبوى الشريف أن الحكم المذكور فى النص "خير فيه دخن" فهو ليس شراً محضاً.

والخلاصة: أن على الإنسان فى ممارسته لحق التعبير عن نفسه واجب حفظ حرمة وحدة الأمة وتماسكها الاجتماعى.

(ج) واجب إصلاح ذات البين وتحريم النميمة:

بين الله (ﷻ) فى القرآن الكريم وعلى لسان رسوله (ﷺ) إن إصلاح العلاقة بين أفراد الأمة أحد المقاصد الأساسية للشريعة الإسلامية. وقد أخذت تلك العلاقة أو الرابطة اسم "ذات البين" وهو لفظ يشير إلى قوة الجذب اللطيفة التى تجمع أفراد الأمة وتخلق بين قلوبهم التآلف والمودة وتجعلهم إخوة متحابين.

ولذلك أمر الله (ﷻ) المؤمنين بإصلاح ذات بينهم بقوله: **(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)**[٣٥٥].

وقال (ﷻ): **(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً)**[٣٥٦].

"قَالُوا سَلاماً": تكلموا بما يصنع سلاماً بين الناس وينزع فتيل الخلاف والحرب.

وقال رسول الله (ﷺ): "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام

---

(٣٥٥) سورة الأنفال: الآية (١).

(٣٥٦) سورة الفرقان: الآية (٦٣).

والصلاة والصدقة"؟

قالوا: بلى، يا رسول الله.

قال (ﷺ): "صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هى الحالقة"[٣٥٧]

قال (ﷺ): "إياكم وذات البين فإنها الحالقة"[٣٥٨]

"لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين".

ولذلك حرم رسول الله (ﷺ) النميمة، باعتبارها السبب الأعم والأخطر فى إفساد ذات البين.

قال رسول الله (ﷺ) فى الحديث الذى ذكرناه فى تقديم هذه الدراسة: "وتجدون شر الناس ذا الوجهين: الذى يأتى هؤلاء بوجه، ويأتى هؤلاء بوجه "لا يدخل الجنة قتات"[٣٥٩].

قتات: نمام. وجاء الحديث بلفظ: "لا يدخل الجنة نمام".

وقال (ﷺ): "من كان له وجهان فى الدنيا، كان له يوم القيامة لسانان من نار"[٣٦٠].

وقال (ﷺ): "ألا أخبركم بخياركم؟"

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال (ﷺ): "الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل".

ثم قال (ﷺ): "ألا أخبركم بشراركم؟ المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة الباغون للبراء العنت (أو العيب)[٣٦١].

وقال (ﷺ): "من أكل برجل مسلم أكلة، فإن الله يطعمه مثلها من جهنم. ومن

---

(٣٥٧) الحديث رقم ٢٥٩٥ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٣٥٨) الحديث رقم ٢٦٨٣ فى نفس المصدر.

(٣٥٩) انظر الأحاديث ٣٤٩٤، ٦٠٥٦، ٦٠٥٨، ٧١٧٩ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" والحديث رقم ٧٦٧٢ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٣٦٠) الحديث رقم ٦٤٩٦ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٣٦١) انظر تفسير القرطبى لسورة "الهمزة" صـ ٧٢٧١ ومختصر تفسير ابن كثير، المجلد الثالث تفسير سورة القلم، صـ ٥٣٤.

اكتسى برجل مسلم ثوباً فإن الله يكسوه مثله من جهنم، ومن قام برجل مسلم مقام سمعة ورياء، فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة"(٣٦٢).

ويتضح لنا من تلك الأحاديث النبوية الشريفة وغيرها خطورة ذات البين وأهمية صلاحها لحفظ وحدة الأمة وتماسكها الاجتماعى.

* * * * *

وبالتأمل فى كل ما سبق من نصوص يصير لزاماً على الأحزاب السياسية أن تتجنب فى دعوتها ونشاطها كل ما يعرض وحدة الأمة وتماسكها الاجتماعى للخطر فلا يباح لها مثلاً أن تثير الفتن الطائفية بين الجماعات المكونة للأمة، أو تدعو إلى التمييز العنصرى، أو استعمال القوة لانتزاع السلطة أو إفساد العلاقات بين الناس.

**(٧) حرمة الأخلاق والآداب العامة:**

لا يمكننا تصور بقاء النوع الإنسانى ونشأة الحضارات على الأرض إلا بوجود مجموعة من القيم الخلقية التى ضبطت السلوك البشرى، ولذلك بوسعنا أن نقول: إن الدولة تؤول فى أصلها الأول إلى مجموعة من القيم الخلقية، التى لا غنى للناس عنها من أجل بقائهم فى حياة تليق بالإنسان.

يقول الله (ﷻ): **(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)**(٣٦٣).

وقد ذكرنا من قبل أن الإعلان العالمى لحقوق الإنسان يشترط فى المادة (٢٩) أن تكون ممارسة الحقوق والحريات محدودة "بالوفاء بالعادل من مقتضيات الفضيلة" كما اشترط العهد الدولى الخاص بالحقوق المدنية والسياسية فى المادة (١٨) إخضاع حرية الإنسان فى إظهار دينه أو معتقده للقيود التى يفترضها القانون والتى تكون ضرورية لحماية "السلامة العامة أو النظام العام او الصحة العامة أو الآداب العامة، أو حقوق الآخرين وحرياتهم السياسية".

---

(٣٦٢) الحديث رقم ٦٠٨٣ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٣٦٣) سورة النور: الآية (١٩).

ولذلك ينبغى أن تلتزم الأحزاب السياسية فى أنشطتها المختلفة بالقيود التى تفرضها حماية الآداب العامة، ولا يمكن أن يباح للأحزاب السياسية أن تكون وسيلة لإشاعة الفاحشة فى المجتمع.

**(٨) حرمة سلامة البيئة والصحة العامة:**

أفاض القرآن الكريم فى بيان رعاية الله (ﷻ) للإنسان وسائر المخلوقات التى تعيش على الأرض ليحفظ حياتها ويحميها من الأخطار التى تتهددها. كما نهى (ﷻ) الإنسان عن الفساد فى الأرض، وقدم رسول الله (ﷺ) عشرات الأحاديث التى تجعل إصلاح الأرض و الإحسان إلى البيئة واجباً (فرضاً) شرعياً. ولن نطيل الحديث – هنا – عن هذه القضية ونحيل القارئ الكريم إلى فصل "حرمة سلامة البيئة والصحة العامة" فى كتابنا "الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة"[٣٦٤].

وما يعنينا – هنا – التأكيد على منع الأحزاب السياسية من ممارسة أى نشاط يكون من شأنه إفساد البيئة، أو تعريض الكائنات الحية للإبادة أو الأمراض، أو تهديد صحة الإنسان، فإن المحافظة على سلامة البيئة والصحة العامة تعد حداً لا يجوز الاعتداء عليه من قبل الأحزاب السياسية.

---

(٣٦٤) انظر الكتاب صـ ٣٦٢ – ٣٩١.

**(ج) الضوابط:**

نقصد بالضوابط مجموعة من القيم الخلقية والفكرية التى ينبغى على الإنسان – وبالتالى الأحزاب السياسية – الالتزام بها عند ممارسة حق التعبير عن الرأى. وإذا كانت الحدود – التى أسلفنا الحديث عنها – تعد قيوداً خارجية تفرض على الناس من الخارج، ويعاقبون بالقانون إذا اعتدوا عليها أو تجاوزوها، فإن الضوابط تعد – فى المقابل – قيوداً داخلية (باطنية) تنبع من نفسه وتعبر عن معتقداته وقيمه وتفضيلاته.

وسنتناول باختصار أهم الضوابط التى ينبغى أن يلتزم بها كل إنسان من تلقاء نفسه عند ممارسة حقه فى التعبير عن رأيه.

**(١) إرادة الخير:**

هذا هو الضابط العام الذى يشمل فى باطنه كل الضوابط الأخرى. والخير هو نفع الغير، أى بذل ما ينفع الناس.

قال رسول الله (ﷺ) ضمن حديث طويل:

"ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"[٣٦٥].

"فليقل خيراً": فليتكلم بما ينفع الناس

"أو ليصمت": أو ليسكت، لأن كل كلام آخر سيكون شراً. والمقصود أن باعث نفع الناس وتحقيق مصالحهم ينبغى أن يكون الدافع لكل نشاط تقوم به الأحزاب السياسية.

**(٢) تحريم الكذب:**

قال رسول الله (ﷺ): "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار وما

(٣٦٥) انظر الأحاديث ٦٠١٨، ٦٠١٩، ٦١٣٥، ٦١٣٦، ٦٤٧٥، ٦٤٧٤ فى "فتح البارى" بشرح صحيح البخارى.

يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً"[٣٦٦].

وقال (ﷺ): "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتمن خان"[٣٦٧].

وقال (ﷺ): "يطبع المؤمن على كل شيء إلا الخيانة والكذب"[٣٦٨].

قال الله (ﷻ): **(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَاذِبُونَ)**[٣٦٩].

وكتمان الشهادة من أسوأ وأبشع صور الكذب التى بينّ القرآن الكريم أنها تلوث كامل الكيان الإنسانى.

يقول القرآن الكريم: **(وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)**[٣٧٠].

"الشَّهَادَةَ": العلم الواجب إبلاغه وإعلام الناس به ويحظر كتمه.

"آثِمٌ قَلْبُهُ": كاذب قلبه. فلا يتوهم من يكتم الشهادة (= العلم الذى يجب شرعاً إبلاغه ويحظر كتمه) أنه لم يقع فى معصية (خطيئة) الكذب، لأنه سكت و لم ينطق بشئ بل إنه – فى الحقيقة – قد ارتكب الكذب بقلبه (كيانه الباطن) وإذا فسد القلب فقد فسد الجسد كله كما أخبرنا النبى (ﷺ).

قال رسول الله (ﷺ): "من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من

---

(٣٦٦) الحديث رقم ٤٠٧١ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) وهو متفق عليه، وقد روى بألفاظ أخرى. انظر على سبيل المثال الحديث رقم ١٦٦٥، والحديث رقم ٧٠٧٢ فى نفس المصدر. والحديث رقم ٦٠٩٤ فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى.

(٣٦٧) الحديث رقم (١٦) فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير)، عن أبى هريرة (رضي الله عنه) وقد أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى.

(٣٦٨) أخرجه البزار بسند قوى عن سعد بن أبى وقاص (رضي الله عنه). انظر "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" – الجزء ٢٢ – كتاب الأدب صـ ٣٠٦.

(٣٦٩) سورة النحل: الآية ١٠٥.

(٣٧٠) سورة البقرة: من الآية ٢٨٣.

نار"[٣٧١].

"من كتم علماً عن أهله، ألجم يوم القيامة لجاماً من نار"[٣٧٢].

وتعد شهادة الزور (قول الزور) أبشع صور الكذب وأشدها خطراً على بنيان الأمة، ولذلك قال الله (ﷻ): **(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)**[٣٧٣].

فربط (ﷻ) فى الإثم وسوء المصير بين الإشراك بالله وعبادة الأوثان وبين قول الزور، ليقول لنا بدلالة السياق أن قول الزور يشبه فى القذارة (= الرجس) التى يلقيها على قلب الإنسان الرجس النازل على قلوب المشركين من الأوثان، وأن قائل الزور يشبه فى مصيره عابد الوثن.

"الزور": الكذب المعد (= المرتب) المقصود به إيذاء إنسان آخر، فهو الشهادة الكاذبة التى يدلى بها فى موقف القضاء والفصل فى القضايا من أجل الاعتداء على حقوق الآخرين. وقول الزور – إذن – هو شهادة الزور التى سماها رسول الله (ﷺ): "اليمين الغموس" التى تغمس صاحبها الذى نطق بها فى نار جهنم.

جاء أعرابى إلى النبى (ﷺ) فسأله:

- ما الكبائر.
- قال (ﷺ): الإشراك بالله.

قال الأعرابى: ثم ماذا.

- قال (ﷺ): ثم عقوق الوالدين.
- قال الأعرابى: ثم ماذا؟

---

(٣٧١) الحديث رقم ٦٢٨٤ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٣٧٢) الحديث رقم ٦٥١٧ فى المصدر السابق.

(٣٧٣) سورة الحج: الآيتان ٣٠ -٣١.

قال (ﷺ): اليمين الغموس.

ثم قال (ﷺ): ألا أنبئكم بأكبر الكبائر

ألا أنبئكم بأكبر الكبائر

ألا أنبئكم بأكبر الكبائر

فاشتد انتباه أصحاب النبى (ﷺ) لهذا التكرار، فقالوا: بلى يا رسول الله.

فقال (ﷺ): "الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس". وكان (ﷺ) يحدثهم وهو متكئ فجلس، وقد بدا على وجهه شدة الإنزعاج، وهو يردد: "ألا وقول الزور، ألا وقول الزور، ألا وقول الزور"(٣٧٤).

ظل يكررها حتى ظنوا أنه (ﷺ) لن يسكت فقالوا فى أنفسهم: "ليته سكت" إشفاقاً عليه مما يعانى، وقد عرفوا من كلامه وهيئته وحاله عظم وبشاعة شهادة الزور.

وإذا كانت أهم وظيفة للأحزاب السياسية كشف الفساد الذى تقوم به أو تتستر عليه السلطة الحاكمة، ومحاربة الظلم (= النهى عن المنكر) وبيان الخلل والخطأ فى السياسات والإجراءات الحكومية، فإن ذلك يفرض على الأحزاب السياسية أن تتحرى الصدق، وتتجنب الكذب وتقوم بالإدلاء بشهادتها الصحيحة الصادقة فى كل القضايا التى تهم الناس وتنزه نفسها عن كتم الشهادة أو قول الزور.

**(٣) الإخلاص والتجرد:**

نقصد بالإخلاص أن يكون كشف الحقيقة – أو تبين وجه الحق – وتحقيق الخير للناس هو الغاية الوحيدة الباعثة للأحزاب السياسية – ولكل صاحب رأى – على أن يقوم بالتعبير عن رأيه. ولاشك فى أن الإخلاص- بموجب هذا التعريف – يتطلب من كل إنسان أن يتخلص من القيود التى تعوق عقله عن الوصول إلى الحقيقة أو كشف

---

(٣٧٤) جمعنا هذه الرواية من الأحاديث التى أوردها ابن حجر فى شرحه للأحاديث النبوية ٢٦٥٣، ٢٦٥٤، ٥٩٧٦، ٥٩٧٧، ٦٢٧٣، ٦٢٧٤، ٦٦٧٥، ٦٩١٩، ٦٩٢٠ فى كتاب "فتح البارى بشرح صحيح البخارى".
وانظر أيضاً الأحاديث ١١٩٥، ٢٦٢٨، ٤٦٠١، ٤٦٠٤ فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) .

وجه الحق، وأن يتحرر من "الأغراض" الأخرى التى تعكر صفو إخلاصه أو تشوش على صدق قصده. وهذا هو معنى التجرد.

قال رسول الله (ﷺ): "من طلب العلم ليجارى به العلماء، أو ليمارى به السفهاء" أو ليصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله فى جهنم"[٣٧٥].

وقال (ﷺ): "من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة"[٣٧٦].

وفى ميدان الإخلاص والتجرد تقع المحنة الحقيقية للأحزاب السياسية، وتوقد نيران الفتن العظيمة التى ينبغى على رجال السياسة أن يخوضوا غمار امتحانها العسير؛ لأن التنافس على الحكم والتطلع إلى غنائم السلطة يثير فى النفس الإنسانية أسوأ نوازعها ويطفئ نور الإخلاص ويغيب شمس التجرد فى ليل الأهواء والشهوات.

ولا يوجد مقياس "خارجى موضوعى" يمكننا من تقدير ما فى القلوب من إخلاص وتجرد، ومحال أن يوجد قانون بشرى يمكننا من محاسبة السياسيين. والناس بصفة عامة إذا تنكروا للإخلاص والتجرد؛ لأن الحساب على ذلك يكون بين يدى الله (ﷻ) يوم القيامة (**بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**)[٣٧٧].

**(٤) إدراك خطر الكلام (الحساب العسير على اللسان):**

لاشك فى أن أعضاء الأحزاب السياسية هم أشد الناس احتياجاً إلى معرفة خطورة الكلمات التى تخرج من أفواههم لتوجيه الرأى العام، فتحث الناس على انتخاب إنسان بدعوى أنه الأفضل، وتحرضهم ضد آخر بإدعاء أنه لا يصلح. وقد يفضى بهم حرصهم على السلطة (الإمارة) إلى ارتكاب كل الخطايا المتعلقة باللسان مثل الكذب، وكتم الشهادة، وقول الزور، والغيبة، والنميمة، والسب، واللعن، والفحش، والقذف.... ويؤدى كل ذلك بالطبع إلى إضلال الناس.

---

(٣٧٥) انظر الأحاديث ٦١٥٨، ٦٣٨٢، ٦٣٨٣ فى "صحيح الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير).

(٣٧٦) الحديث رقم ٦١٥٩ فى نفس المصدر.

(٣٧٧) سورة القيامة: الآيتان (١٤)، (١٥).

يقول الله (ﷻ): (**مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**)(٣٧٨).

"رَقِيبٌ عَتِيدٌ": راصد يحصى فى كتاب ما ينطق به اللسان وهو مستعد جاهز لتقديم ما رصده عند السؤال والحساب.

وقال رسول الله (ﷺ): "إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالاً يهوى بها سبعين خريفاً فى النار"(٣٧٩).

وقال (ﷺ): "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله – تعالى – ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله – تعالى – ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة"(٣٨٠).

وسأل رجل رسول الله (ﷺ): يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف علىّ؟

فقال (ﷺ): "هذا". وأخذ بلسانه(٣٨١).

وسأل عقبة بن عامر: يا رسول الله: ما النجاة؟

فقال (ﷺ) أمسك عليك لسانك(٣٨٢).

وسأل معاذ بن جبل (رضي الله عنه): يا رسول الله، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة؟

فقال (ﷺ): "ألا أخبرك بملاك الأمر كله؟

فقال معاذ (رضي الله عنه): بلى يا رسول الله

قال (ﷺ): "كف هذا" وأشار إلى لسانه.

فقال معاذ (رضي الله عنه) مندهشاً. يا رسول الله وإناّ لمؤاخذون بما نتكلم به؟

فقال (ﷺ): "ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلاّ

---

(٣٧٨) سورة ق: الآية (١٨).

(٣٧٩) الحديث رقم ١٦١٨ فى نفس المصدر.

(٣٨٠) الحديث رقم ١٦١٩ فى نفس المصدر

(٣٨١) أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح.

(٣٨٢) نفس المصدر.

حصائد ألسنتهم"[٣٨٣].

وفى رواية للطبرانى: "ثم إنك لن تزال سالماً ما سكت، فإذا تكلمت كتب عليك أولك".

وقال (ﷺ): "من يضمن لى ما بين لحييه. وما بين رجليه أضمن له الجنة"[٣٨٤].

"ما بين لحييه": لسانه

"ما بين رجليه": فرجه

**(٥) احترام آية الله فى اختلاف الناس:**

لم يترك القرآن الكريم ظلاً من شك فى حقيقة أن الناس سيبقون مختلفين فى العقائد والآراء ما بقيت السماوات والأرض، وأن محاولة جمعهم على رأى واحد (حتى إذا كان الحق المبين) أو عقيدة واحدة – حتى إذا كانت الحقيقة التى لا ريب فيها – ضرب من المستحيل لا يقول به إلا جاهل بالحقيقة الإلهية.

يقول الله (ﷻ): **(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)**[٣٨٥].

ويقول (ﷻ) مخاطباً نبيه محمداً (ﷺ): **(وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمْ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)**[٣٨٦].

ولا يبقى أمام عقل الإنسان بعد أن يتأمل فى هذه الآيات، وغيرها كثير فى القرآن الكريم، إلا أن يوقن باستحالة جمع البشر على عقيدة واحدة أو رأى واحد فى أى مجال من مجالات المعرفة الإنسانية. وبناء على هذا اليقين ينبغى عليه أن يكف عن المحاولة

---

(٣٨٣) رواه أحمد بن حنبل والنسائى وابن ماجة والترمذى وصححه.

(٣٨٤) الحديث رقم ٦٦١٧ فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير).

(٣٨٥) سورة يونس: الآية ٩٩.

(٣٨٦) سورة الأنعام: الآية ٣٥.

البائسة اليائسة لصب الناس جميعاً فى قالب فكرى واحـــد، فقـــد خلقهـــم الله (ﷻ) مختلفين وسيبقون كذلك.

فعلى كل حزب سياسى أن يذعن لمقتضى الحق، ويعلم أنه ما من ســـبيل أمامـــه لإقناع جميع الناس بدعوته وخططه وأساليبه ومرشحيه، وأنه سيبقى دائماً من يعارضه، وأن كل محاولة لمحو المخالفين أو إسكات صوتهم ستبؤ بالفشل وستفضى إلى النـــزاع الذى يمزق وحدة الأمة ويدمر استقرارها ولا يجلب إلا الخراب.

ولذلك، فإن أوجب الواجبات على جميع الناس أن يتيقنوا أنهم سيبقون مخـــتلفين، وأن عليهم أن يتعايشوا مع بعضهم تحت سقف حقيقة اختلافهم فيتعاونو ا فيما اتفقوا عليه ويحاولوا تضييق شقة الخلاف فيما بينهم؛ لأن ابتلاءهم يكمن فى منع الاخـــتلاف من أن يتحول إلى نـــزاع وقتال، ولا سبيل إلى ذلك إلا باتبـــاع الموعظـــة الحســـنة والجدال بالتى هى أحسن عند ممارسة حق التعبير عن الرأى.

يقول الله (ﷻ): (**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَـــادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**)[٣٨٧].

**(٦) الموعظة الحسنة:**

وهى الدعوة التى يمكن أن تلقى استحساناً. أى تجد قبولاً عند من تتوجه إليه لأنهـــا تخاطبه بلغة يفهمها ويستطيع التفاعل معها، ولأنها تراعى مواضع الضعف فى نفســـه – وهذا هو معنى الرحمة – ولا تتعالى (تتكبر) عليه، وتبث الأمل فى قلبه إذ تجعل النجـــاة من الخطر والضيق ميسورة فتمنحه شعوراً بقرب الفرج ويلمس بقلبه صدق وإخلاص القائم بالدعوة.

وهى المعانى التى أشار إليها رسول الله (ﷺ). عندما أمر أصحابه المكلفين بـــإبلاغ رسالة الإسلام إلى الناس بالتيسير (التخفيف) والتبشير (تغليب الرجاء على الخـــوف)

---

(٣٨٧) سورة النحل: الآية (١٢٥).

ونهاهم عن التعسير والتنفير والتكلف والغلو[٣٨٨].

**(٧) الجدال بالتى هى أحسن:**

وهو إجراء الحوار بين الآراء المتضاربة التى لا يمكن الجمع والتوفيق بينها على نحو يقرب شقة الخلاف ولا يثير الكراهية فى القلوب ويمنع تحول اختلاف الآراء (= وجهات النظر) إلى تنازع وصراع.

ولا يمكن أن يتحقق شيء من ذلك إلا بالكف عن الرد على الإساءة بالقول بمثلها، بل ينبغى أن تقابل الإساءة – التى من المتوقع أن تقع كثيراً فى هذا الجو الخانق الذى يثيره الخلاف بين وجهات النظر – بالإحسان كما – أمرنا الله (ﷻ) بقوله: **(وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)**[٣٨٩].

فيجب أولاً أن يبدأ الطرفان المختلفان فى القضية المعروضة الحوار (= الجدال) من قاعدة المساواة بينهما. فيتخلى كل واحد منهما عن إظهار شعوره بأنه على الحق وأن الآخر على الباطل ولا يتصرف باعتبار أنه الأعلم أو الأعلى مكانة؛ لأن ذلك يسمم "جو" الحوار ويجرح كرامة الآخر ويدفعه إلى النفور والتعالى والإساءة، وقد ضرب الله (ﷻ) لنا المثل فى ذلك بقوله: **(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)؟**

هذا هوالسؤال أو القضية الخلافية المعروضة للجدال. ورغم أن الله (ﷻ) يعلم علم اليقين أنه (ﷻ) هو الرازق الوحيد ولا يوجد رازق غيره، ورغم أن النبى (ﷺ) والمؤمنين يصدقون هذه الحقيقة ولا يشكون فيها ويعلمون أنهم على الحق، رغم كل ذلك قال الله (ﷻ) ليجرى الحوار مع الكافرين المشركين على قدم المساواة طلباً لهدايتهم.

---

(٣٨٨) انظر كتابنا "الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة" – صـ ٤١٧ – ٤٤٤.

(٣٨٩) سورة فصلت: الآية (٣٤).

قال الله تعالى: **(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)**[٣٩٠].

والمقصود: نحن نعتقد أن الله وحده (ﷻ) هو الرازق وقد نكون مهتدين على حق، وقد نكون مخطئين فى ضلال مبين. وأنتم أيها المنكرون لتلك الحقيقة أيضاً كذلك. فساوى بين الطرفين المتخاصمين ليبدأ جدالاً مثمراً مفضياً إلى الكشف عن الحقيقة وتحقيق الخير.

ثم يجب – ثانياً – تجنب الإساءة إلى الخصم فى الجدال؛ لأن الإساءة ستدفعه إلى الرد عليها بمثلها ويتحول الحوار إلى شجار واختلاف وجهات النظر إلى تنازع وصراع.

وأشار القرآن الكريم إلى هذا الشرط بقوله: **(قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)**[٣٩١].

فقد وصف المشركون الوثنيون محمداً (ﷺ) والمؤمنين بالمجرمين فلم يرد عليهم بمثلها.

وبيّن لهم أن كل إنسان مسئول أمام الله عن عمله ولا يحاسب على عمل غيره و لم يقل لهم: لا تسألون عما أجرمنا ولا نسئل عما تجرمون، بل أمر الله (ﷻ) رسوله (ﷺ) بالرد عليهم دون إساءة: لا تحاسبون على إجرامنا ولانحاسب على أعمالكم. فنسب إليهم مجرد الأعمال لا الإجرام.

ثم ينبغى – ثالثاً– مواجهة الإساءة إذا وقعت من الخصم بالإحسان.

"ادفع" الإساءة "بالتى هى أحسن": لأن ذلك هو طريق إزالة الخلاف ومحو العداوة **(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)**.

**(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)**[٣٩٢].

* * *

(٣٩٠) سورة سبأ: الآية (٢٤).

(٣٩١) سورة سبأ: الآية ٢٥.

(٣٩٢) سورة فصلت: الآية (٣٥).

## أهم المراجع


**(١) القرآن الكريم.**

**(٢) تفسير الطبرى (جامع البيان من تأويل آى القرآن).**

تأليف: أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى.

الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر – القاهرة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م.

**(٣) تفسير الزمخشرى (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل).**

تأليف: الإمام محمود بن عمر الزمخشرى.

الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة.

الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ هـ.

**(٤) تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) لأبى عبد الله محمد بن احمد الأنصارى القرطبى.**

الناشر: دار الشعب – القاهرة (٩٢ شارع قصر القر العينى).

**(٥) مختصر تفسير ابن كثير لأبى الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى.**

اختصار وتحقيق: محمد على الصابونى.

الناشر: دار القرآن الكريم – بيروت – لبنان - الطبعة السابعة (منقحة) ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١م

**(٦) صفوة التفاسير**

تأليف: محمد على الصابونى.

الناشر: دار القرآن الكريم – بيروت – لبنان لطبعة الرابعة (منقحة) ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م.

**(٧) التفسير الوسيط للقرآن الكريم**

تأليف: لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

الناشر: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر – القاهرة – الطبعة الثانية عام ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

**(٨) فى ظلال القرآن**

تأليف: سيد قطب.

الناشر: دار الشروق – القاهرة – الطبعة الثالثة عشرة ١٩٨٧م – ١٤٠٧هـ.

**(٩) فتح البارى بشرح صحيح البخارى (ثلاثون جزءً فى خمسة عشر مجلداً)**

لأبى الفضل شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى.

الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة.

**(١٠) صحيح مسلم بشرح النووى (ثمانية عشر جزءاً فى ستة مجلدات)**

تأليف: الإمام محيى الدين يحيى بن شرف النووى.

الناشر: المطبعة المصرية ومكتبتها – القاهرة.

**(١١) مختصر سنن أبى داود للحافظ المنذرى ومعالم السنن لأبى سليمان الخطابى وتهذيب الإمام ابن قيم الجوزية.**

تحقيق: أحمد محمد شاكر، محمد حامد الفقى.

الناشر: مطبعة أنصار السنة المحمدية – القاهرة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.

**(١٢) سنن المصطفى (ﷺ)**

للإمام محمد بن يزيد أبى عبد الله ابن ماجة القزوينى.

الناشر: المطبعة التازية لصاحبها عبد الواحد محمد التازى – القاهرة.

**(١٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، (مجلدان)**

تأليف: محمد ناصر الدين الألبانى.

الناشر: المكتب الإسلامى – بيروت – لبنان، ودمشق – سوريا الطبعة الثانية

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

**(١٤) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد (١٣ جزءً) للإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى.**

الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامى – وزارة الأوقاف – القاهرة – جمهورية مصر العربية.

**(١٥) سيرة النبى (ﷺ) لأبى محمد عبد الملك بن هشام.**

الناشر: كتاب التحرير – مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر – القاهرة ١٣٨٣هـ.

**(١٦) البداية والنهاية – الأجزاء ٣، ٤، ٥ (فى المجلدين الثانى والثالث)**

تأليف: أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى.

الناشر: دار الريان للتراث – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

**(١٧) الرحيق المختوم**

تأليف: صفى الرحمن المباركفورى.

الناشر: دار إحياء التراث – القاهرة.

**(١٨) صفوة السيرة النبوية للإمام أبى الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير**

الناشر: مركز السيرة والسنة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – وزارة الأوقاف – القاهرة – جمهورية مصر العربية.

**(١٩) فقه السيرة**

تأليف: الشيخ محمد الغزالى.

(خرج الأحاديث محدث الديار الشامية العلامة محمد ناصر الدين الألبانى) دار الشروق – القاهرة – الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

**(٢٠) فقة السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة**

تأليف: الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطى.

الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة – الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ -

١٩٩٧م.

**(٢١) الطبقات الكبرى لابن سعد**

الناشر: لجنة الثقافة الإسلامية (سلسلة التاريخ الإسلامى) بدار جمعية الجهاد الإسلامى – القاهرة ١٣٥٨هـ.

**(٢٢) اجتهاد نبى الإسلام**

تأيف: الأستاذ الدكتور/ عبد الجليل عيسى أبو النصر.

الناشر: دار احياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى وشركاه) – القاهرة ١٣٩٨هـ – ١٩٤٩م.

**(٢٣) محمد (ﷺ) فى التوراة والإنجيل والقرآن**

تأليف: إبراهيم خليل أحمد.

الناشر: دار المنار للنشر والتوزيع – القاهرة ١٩٨٩م.

**(٢٤) أسباب النـــزول**

تأليف: الإمام أبو الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى.

الناشر: مكتبة المتنبى – القاهرة.

**(٢٥) الإمامة والسياسة (المعروف بتاريخ الخلفاء)**

تأليف: الإمام أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينورى.

الناشر: مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده – القاهرة ١٣٥٦هـ – ١٩٣٧م.

**(٢٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين للإمام ابن قيم الجوزيـــة – شرح منازل السائرين إلى الحق المبين للإمام إبى إسماعيل عبد الله بن محمد بن على ابن محمد الأنصارى الهروى (صححه وخرج أحاديثه محمد عبد الله).**

الناشر: دار التقوى للنشر والتوزيع – القاهرة – ٢٠٠٤.

**(٢٧) لسان العرب لابن منظور**

دار المعارف – القاهرة.

**(٢٨) الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة.**

تأليف: توحيد الزهيرى.

الناشر: دار القلم – القاهرة – ٣٦ شارع القصر العينى) ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

**(٢٩) التحديات التى تواجه العالم الإسلامى**

تأليف: توحيد الزهيرى.

الناشر: دار الجميل للنشر والتوزيع والإعلام – القاهرة (٢ شارع عائشة التيمورية) ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

**(٣٠) نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن**

تأليف: توحيد الزهيرى.

الناشر: دار القلم – القاهرة (٣٦ شارع القصر العينى) ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

**(٣١) الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان – (مجلدان) إعداد الأستاذ الدكتور/ محمود شريف بسيونى.**

الناشر: دار الشروق – القاهرة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

**(٣٢) الإسلام وحقوق الإنسان (ضرورات.... لا حقوق)**

تأليف: الدكتور/ محمد عمارة.

الناشر: سلسلة عالم المعرفة – العدد ٨٩ (شعبان ١٤٠٥هـ مايو ١٩٨٥م) المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب – الكويت.

**(٣٣) حقوق الإنسان فى الإسلام.**

(دراسة مقارنة فى ضوء الإعلان العالمى لحقوق الإنسان)

تأليف: الدكتور/ سهيل حسينى الفتلاوى.

الناشر: دار الفكر العربى – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى عام ٢٠٠١.

**(٣٤) حقوق الإنسان فى الإسلام.**

تأليف: الدكتور/ أمير عبد العزيز.

الناشر: دار السلام – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

**(٣٥) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة.**

تأليف: الشيخ/ محمد الغزالى.

الناشر: دار الدعوة – الأسكندرية – الطبعة الخامسة عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

**(٣٦) شبهات وإجابات حول الجهاد فى الإسلام**

تأليف: الأستاذ الدكتور/ على جمعة.

الناشر: سلسلة دراسات إسلامية – العدد ٨٣ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – وزارة الأوقاف – القاهرة – جمهورية مصر العربية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

**(٣٧) الحرية الدينية فى الإسلام**

تأليف: الشيخ/ عبد المتعال الصعيدى.

الناشر: دار المعارف – القاهرة.

**(٣٨) حرية الفكر فى الإسلام**

تأليف: الشيخ/ عبد المتعال الصعيدى.

الناشر: دار المعارف – القاهرة.

**(٣٩) أدب الاختلاف فى الإسلام**

تأليف: الدكتور/ طه جابر فياض العلوانى.

الناشر: سلسلة كتاب الأمة – العدد رقم ٩ – الدوحة – قطر.

**(٤٠) لا إكراه فى الدين (إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام حتى اليوم)**

تأليف: الدكتور/ طه جابر فياض العلوانى.

الناشر: مكتبة الشروق الدولية – القاهرة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

**(٤١) انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء.**

تأليف: الدكتور/ نبل الوفا بباوى.

الناشر: دار البباوى للنشر – القاهرة.

**(٤٢) الساميون والمعادون للسامية – بحث فى الصراع والكراهية.**
تأليف: برنار لويس.
ترجمة: محمد محمود عمر.
**(٤٣) الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل**
تأليف: روجيه جارودى.
الناشر: دار الشروق – القاهرة.
**(٤٤) النظم السياسية والقانون الدستورى**
تأليف: الأستاذ الدكتور/ فؤاد العطار.
الناشر: دار النهضة العربية – القاهرة ١٩٧٤.
**(٤٥) فى النظام السياسى للدولة الإسلامية**
تأليف: الأستاذ الدكتور/ محمد سليم العوا.
الناشر: المكتب المصرى الحديث – الطبعة الثانية ١٩٧٩م.
**(٤٦) نظرية الدولة والمبادئ العامة للأنظمة السياسية ونظم الحكم**
تأليف: الأستاذ الدكتور/ طعيمة الجرف.
الناشر: مكتبة القاهرة الحديثة – عام ١٩٧٣.
**(٤٧) الأنظمة السياسية المعاصرة**
تأليف: الأستاذ الدكتور/ يحيى الجمل.
الناشر: دار الشروق – القاهرة.
**(٤٨) النظم السياسية – الدولة والحكومة**
تأليف: الأستاذ الدكتور/ محمد كامل ليلة.
الناشر: دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٦٧.
**(٤٩) السلطات الثلاث فى الدساتير العربية وفى الفكر السياسى الإسلامى**
تأليف: الأستاذ الدكتور/ سليمان الطماوى.

الناشر: دار الفكر العربى – القاهرة – الطبعة الرابعة ١٩٧٩م.

**(٥٠) القانون الدستورى والأنظمة السياسية**

تأليف: الأستاذ الدكتور/ عبد الحميد متولى.

الناشر: دار المعارف – القاهرة ١٩٦٦م.

**(٥١) الخلافة الإسلامية بين نظم الحكم المعاصرة**

تأليف: الدكتور/ جمال أحمد السيد جاد المراكبى – رسالة لنيل درجة الدكتوراه فى الحقوق تحت إشراف الأستاذ الدكتور/ محمد ميرغنى خيرى أستاذ ورئيس قسم القانون العام – كلية الحقوق – جامعة القاهرة.

**(٥٢) الدولة نظرياً وعملياً**

تأليف: هارولد – ج. لاسكى.

الناشر: سلسلة اخترنا لك – العدد رقم ٦١ دار المعارف – القاهرة.

**(٥٣) الحضارة العربية القديمة**

تأليف: الأستاذ الدكتور/ محمد بيومى مهران.

الناشر: دار المعرفة الجامعية – الأسكندرية.

**(٥٤) تاريخ العرب القديم – جزءان**

تأليف: الأستاذ الدكتور/ محمد بيومى مهران.

الناشر: دار المعرفة الجامعية الأسكندرية – الطبعة الحادية عشرة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

**(٥٥) تاريخ العرب فى عصر الجاهلية**

تأليف: الأستاذ الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم.

الناشر: مؤسسة شباب الجامعة – الأسكندرية.

**(٥٦) قصص الأنبياء والتاريخ – الجزء الرابع (موسى وهارون) الجزء الخامس (أنبياء بنى إسرائيل).**

تأليف: الدكتور/ رشدى البدراوى.

**(٥٧) دراسات تاريخية من القرآن الكريم**

الجزء الثانى (فى مصر).

تأليف: الأستاذ الدكتور/ محمد بيومى مهران.

الناشر: دار المعرفة الجامعية – الأسكندرية ١٩٩٥م.

**(٥٨) آرام دمشق وإسرائيل فى التاريخ و التوراتى**

تأليف: فراس السواح.

الناشر: دار علاء الدين – دمشق – سوريا ١٩٩٥م.

**(٥٩) الحدث التوراتى والشرق الأدنى القديم**

تأليف: فراس السواح.

الناشر: دار علاء الدين – دمشق – سوريا ١٩٩٧م.

**(٦٠) تاريخ الديانة اليهودية**

تأليف: الأستاذ الدكتور/ محمد خليفة حسن أحمد.

الناشر: دار قباء – القاهرة.

**(٦١) خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه**

إعداد وتحقيق: الدكتور/ محمد أحمد عاشور.

الناشر: دار الاعتصام – القاهرة.

**(٦٢) كيف نحكم بالإسلام فى دولة عصرية**

تأليف: الدكتور/ أحمد شوقى الفنجرى.

الناشر: الهيئة العامة للكتاب – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٩٩٩م.

* * *

## الكاتب فى سطور


الاســـــــــــــم : **توحيد عبد الفتاح حواش الزهيرى**

تاريخ الميلاد : **١٦ فبراير ١٩٥٣م**

المهنـــــــــــــة : **طبيب**

**عضو عامل باتحاد الكتاب المصريين**

العنـــــــــــوان : **جمهورية مصر العربية – محافظة القليوبيـــة – طـــوخ منـــزل رقم ١٩ الطريق السريع أمام نقطة المرور.**

تليفـــــــــــون : **٠١٣/٢٤٦١٩٢٦**

محمـــــــــــول : **٠١٢٨/٣٢٢٤١٢٥**


**المؤلفـــات المنشـــورة:**

(١) كلمة من الله – رواية تاريخية تتناول حياة المسيح عيسى بن مريم فى سياق عرض تاريخى للعصر الذى عاش فيه – صدرت فى نوفمبر ١٩٩٣ – تطلب من دار القلـــم بالقاهرة.

(٢) نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن – دراسة تؤسس لموقف إســـلامى أصـــيل فى ميدان فلسفة الفن والجمال. صدرت عام ١٤١٨ هـــــ - ١٩٩٨م عـــن دار القلـــم (٣٦ شارع القصر العينى – القاهرة. ص ب: ٦٥ مجلس الشعب).

(٣) القرآن معجزة كل العصور – مدخل إلى فهم النص القـــرآنى. دار الشـــعب – القاهرة (٩٢ شارع القصر العينى) عام ١٤٢١ هـــ - ٢٠٠١م.

(٤) الماء فى القرآن والسنه والعلوم الحديثة – دراسة فى الإعجـــاز العلمـــى للقـــرآن. صدرت عن مكتبة الدار العربية للكتاب – القاهرة (شارع عبد الله العـــربى. الحـــى السابع – مدينة نصر) عام ١٤٢٤هـــ - ٢٠٠٣م.

(٥) التحديات التى تواجه العالم الإسلامى – البحث الفائز بجائزة الدكتور محمد شوقى الفنجرى لخدمة الدعوة والفقه الإسلامى - الناشر: دار الجميل – القاهرة عام ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

(٦) لمحات من حياة نبى الرحمه (ﷺ) – سلسلة دراسات إسلامية – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة.

(٧) الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنه – دار القلم للنشر والتوزيع – القاهرة (٣٦ شارع القصر العينى – ص.ب: ٦٥ مجلس الشعب) عام ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

* * *

## فهرس الموضوعات


| الموضـــــــــــــوع | رقم الصفحة |
|---|---|
| **تأصيل وتمهيد** ..... | ٥ |
| (١) قريش من القبيلة الجاهلية إلى الدولة الإسلامية ..... | ٥ |
| (٢) القبائل: أحزاب الدولة الإسلامية الأولى ..... | ٧ |
| (٣) المغزى السياسى للحديث النبوى ..... | ١١ |
| (٤) الإمامة (الخلافة) ..... | ١٥ |
| (٥) قريش هى الحزب الذى اختاره الرسول (ﷺ) للحكم ..... | ١٧ |
| (٦) الكفاءة الإنسانية أساس استحقاق القيادة (الإمامة) ..... | ٢٢ |
| (٧) المعنى التاريخى للحديث النبوى ..... | ٢٩ |
| **الباب الأول: المشروعية** ..... | ٣٣ |
| (١) مفهوم المشروعية ..... | ٣٣ |
| (٢) قيام الدولة (السلطة السياسية) ضرورة إنسانية وفريضة دينية ... | ٤١ |
| أ- فى القرآن الكريم ..... | ٤١ |
| ب- فى السنة النبوية ..... | ٥٢ |
| (٣) طلب الإمارة (السلطة) حق مشروع للكافة وواجـــب شـــرعى على الأكفاء ..... | ٦١ |
| (٤) شرعية الحكم فى الشريعة الإسلامية ..... | ٨١ |
| أ- ما هو مصدر شرعية السلطة؟ ..... | ٨١ |
| ب- ما هى الوظيفة الأساسية للدولة؟ ..... | ٨٤ |
| (جـــ) كيف يدير الحاكم شئون البلاد؟ ..... | ٨٦ |
| (٥) كشف شبهات وتفنيد أساطير ..... | ٩٩ |
| أ- شبهة ذم الأحزاب فى القرآن الكريم والحديث النبوى ..... | ٩٩ |

| الموضـــــــــــــوع | رقم الصفحة |
| --- | --- |
| ب- شبهة تفرق الأمة وتمزيق وحدتها ..... | ١٢١ |
| جـــ- شبهة تزكية النفس والطعن فى الآخرين ..... | ١٤١ |
| (د) شبهة قيام أحزاب غير إسلامية كافرة ..... | ١٤٨ |
| (هـــ) تفنيد أساطير ..... | ١٥٨ |
| ** أسطورة الولاء والبراء على الإسلام وحده ..... | ١٥٩ |
| ** أسطورة الخلافة الإسلامية ..... | ١٦٢ |
| ** أسطورة النموذج الإسلامى ..... | ١٧٠ |
| **الباب الثانى: الحقوق والواجبات** ..... | ١٧٥ |
| أ- الحق والواجب وجهان لحقيقة واحدة ..... | ١٧٥ |
| ب- الحدود ..... | ١٧٩ |
| (١) حرمة النفس (حق الإنسان فى الحياة) ..... | ١٨٧ |
| (٢) حرمة المال (حق الإنسان فى التملك) ..... | ١٨٨ |
| (٣) حرمة العرض (حق الإنسان فى الكرامة) ..... | ١٩٠ |
| (٤) حرمة الحياة الخاصة والأسرار الشخصية ..... | ١٩٩ |
| (٥) حرمة الأمن القومى ..... | ٢٠٤ |
| (٦) حرمة وحدة الأمة وتماسكها الاجتماعى ..... | ٢٠٨ |
| (٧) حرمة الأخلاق والآداب العامة ..... | ٢١٨ |
| (٨) حرمة سلامة البيئة والصحة العامة ..... | ٢١٩ |
| (ج) الضوابط ..... | ٢٢٠ |
| (١) إرادة الخير ..... | ٢٢٠ |
| (٢) تحريم الكذب ..... | ٢٢٠ |
| (٣) الإخلاص والتجرد ..... | ٢٢٣ |

| الموضـــــــــــــوع | رقم الصفحة |
| --- | --- |
| (٤) إدراك خطر الكلام (الحساب العسير على اللسان) ..... | ٢٢٤ |
| (٥) احترام آية الله فى اختلاف الناس ..... | ٢٢٦ |
| (٦) الموعظة الحسنة ..... | ٢٢٧ |
| (٧) الجدال بالتى هى أحسن ..... | ٢٢٨ |
| المراجع ..... | ٢٣١ |
| الكاتب فى سطور ..... | ٢٤٠ |
| فهرس الموضوعات ..... | ٢٤٢ |


* * *

## هذا الكتاب

لاشك فى أن قضية تعدد الأحزاب السياسية التى تتنافس على السلطة فى دولة إسلامية تعد إحدى المعضلات الشائكة أو الأزمات الشديدة التى تواجه عقل المسلم المعاصر التى تعوقه مجموعة من الشبهات الكثيفة والأساطير الشائعة عن الفهم الصحيح والوصول إلى الحقيقة.

ومن أجل كشف تلك الشبهات، وتفنيد هذه الأساطير يجيء هذا الكتاب ليجيب عن الأسئلة الحائرة التى لم تزل تبحث عن إجابة شافية يطمئن إليها قلب المؤمن وعقله.

توحيد الزهيري